بهجة المجالس وأنس المجالس

ابن عبدالبر رحمه الله

من نوادر الموسوعات الأدبية الأخبارية. أفرغ فيه ابن عبد البر القرطبي خلاصة قراءاته وملاحظاته في ميدان الأدب، أو كما يقول: (وجمعت فيه ما انتهى إليه حفظي ورعايتي، وضمته روايتي وعنايتي) فحفظ لنا بين دفتيه تراثاً قيماً، ضاعت معظم مصادره الأصلية، وكاد يندثر لولا أن ضم شمله وجمع شتاته.
أما منهج الكتاب، فبسيط لا تعقيد فيه، بناه القرطبي على (132) باباً، يفتتح الباب منها بما تيسر من الآيات والأحاديث، ثم يورد أشعار العرب وحكمها، أو ما أثر عن غيرهم من العجم والروم، من كل ما قيل في معنى الباب، أو ضده، ليكون أبلغ وأشفى وأمتع. ومن نوادره: قصيدة المريمي، وأولها: (تعزّ فإن الحر لا بد يخلق(

الجزء الثاني

ليت الباع لنا كانت مـجـاورةً وليتنا لا نرى مما نرى أحـدا
إن السباع لتهدا في مرابضهـا والناس ليس بهاءٍ شرّهم أبـدا
فاهرب بنفسك واستأنس بوحدتها تعش سليماً إذا ما كنت منفرداً

وقال منصور الفقيه :

أحذّرك الناس إلاّ قـلـيلا فلا تبغين إليهـم سـبـيلا
وفارقهم عن قليّ واتـخـذ إذا ما خشيت انفراداً خليلا
من الجنّ والجنّ إن تلقهـم تجدهم أبرّ فعالا وقـلـيلا
من الإنس ،لا كان مستأنساً بهم طالبٌ من سواهم بديلاً

وقال أبو العتاهية :

أياربّ إنّ الناس لا ينصفوننـي وإن أنا لم أنصفهم ظلمونـي
وإن كان لي شيْ تصدّوا لأخذه وإن جئت أبغي شيئهم منعوني
وإن نالهم بذلي فلا شكر عندهم وإن أنا لم أبذل لهم شتمونـي
وإن طرقتني نكبةٌ فرحوا بهـا وإن صحبتني نعمةٌ حسدونـي
سأمنع قلبي أن يحـنّ إلـيهـم وأحجب عنهم ناظري وجفوني

أنشدني حكم بن المنذر لنفسه :

وكنتم أخلائي الذين أعـدّهـم لصرف زمان إن ألمّ بداهـيه
فأخلفتم ظني بكم فقلـيتـكـم فنفسي عنكم أخر الدهر ساليه

وقال آخر : ولما رأيت الناس لا عهد عندهم صدفتوبيت اللهعن صحبة الناس

وصرت جليس الكتب ما عشت فيهم وأعلمت حـسن الصبّر عنهم مع الياس
رأيت لـهـم كـاسـاً مـن الغـذر بينهم تدار وما بـالقوم صـبرٌ عن الكاس

وهذا الباب وما جانسه من معاني صحبة الناس والفرار منهم ،واتخاذ الإخوان والزهد فيهم ،قد أكثر الناس فيه جدا ،وقد جمع فيه ابن وكيع فتقصىّ وكثّر وجوّد وغزر ،وغرضنا في الكتاب أن نورد فيه ما تصلح

المذاكرة به من غير تطويل ،لأن الحفظ أكثر ما يكون مع التقليل ،وبالله العون والتأييد والحول والقوة.

باب الصّديق والعدو

قال جعفر بن محمد : لقد عظمت منزلة الصّديق حتى عند أهل النار ، ألم تسمع إلى قوله الله تعالى حاكيا عنهم : " فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم " .

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ صديقه في غيبته وبعد وفاته.

قال سويد بن الصّامت :

ألا ربّ من تدعو صديقاً ولو ترى	مقالته بالغيب ساءك مـا يفـري
مقالته كالشّهد ما كـان شـاهـداً	وبالغيب مأثورٌ على ثغره النّحـر
تبين لك العينان مـا هـو كـاتـمٌ	من الشرّ بالبغضاء والنظر الشّزر
يسـرّك بـاديه وتـحـت أديمـه	تميمة غشّ تبترى عقب الظهـر
فرشني بخير طالما قد بـريتـنـي	وخير الموالى من يريش ولا يبرى

كان أبو العباس السّفاح إذا تعادى اثنان من أهل بطانته لا يسمع من أحد منهما في صاحبه شيئاً ،وإن كان عدلا ،ويقول :العداوة تزيل العدالة.

كان يقال :لا تجالس عدوّك فإنه يحفظ عليك عيوبك ،ويماريك في صوابك.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :ابذل لصديقك كلّ المودة ،ولا تبذل له كلّ الطمأنينة ،وأعطه من نفسك كلّ المواساة ،ولا تفضي إليه بكلّ الأسرار.

روى عن عليّ بن الحسين رحمه الله ،أنه قال :لا يكون الصديق صديقاً حتى بقطع لأخيه المؤمن قطعةًمن دينه يرقّعها بالاستغفار.

قال غيره :من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً ،ولعدوّ صديقه عدوا.

قال يزيد بن الحكم الثّقفي :

تصافح من لا قيت لي ذا عداوه	وأنت صديقي ليس ذاك بمستوى

في أبيات قد ذكرتها في باب البغي والحسد وغيره ،وفي رواية أخرى :

عدوّك يخشى صولتي إن لقيتـه	وأنت صديقي ليس ذاك بمستوى

وقال آخر :

عدوّ صديقي داخلٌ في عداوتي	وإنّي لمن ودّ الصـديق ودود
فلا تقترب مني وأنت عدوّ من	أصادقه فالخير منك بـعـيد

وقد أنشد المبرد هذين البيتين على قافية القاف على ما رواه شيخنا عيسى عن ابن مقسم ،قال :أنشدني أبو على إسماعيل بن محمد الصّفّار ،قال :أنشدني أبو العباس المبردّ :

صديق عدوى داخل في عـداوتـي ... وإنيّ على ودّ الصـديق صـديق
أعادي الذي عادى وأهوى له الهوى ... كأنّي منه فـي هـواه شـقـيق

وقال العتّابي :

تودّ عدوّى ثم تـزعـم أنّـنـي ... صديقك إنّ الرأي عنك لعازب
وليس أخي من ودّني رأى عينه ... ولكن أخي من ودّني وهو غائب

قال آخر :

إذا والى صديقك من تعادى ... فقد عاداك وانقطع الكلام

قال معاوية : النبل مؤاخاة الأكفاء ، ومداجاة الأعداء.

قيل لعبد الحميد الكاتب : أيّما أحب إليك أخوك أو صديقك ؟ قال : إنما أحب أخي إذا كان صديقي.

قال بعض العلماء أهل المدينة : من ثقل على صديقه خفّ على عدوه ، ومن أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه مالا يعلمون.

عذل رجل رجلا ، فقال : أراك رطب اللسان من عيوب أصدقائك ، فلا تزدهم في أعداءك ، فإن الصديق يحوّل بالجفاء عدوا ، وكذلك العدو يحول بالصلة صديقا.

كان يقال : لا تجترئ على عداوة رجل بصداقة ألف.

قال الشاعر :

تكثّر من الإخوان ما استطعت أنّهم ... بطونٌ إذا استنجدتهم وظـهـور
وليس كثيراً ألف خلًّ وصـاحـبٍ ... وإن عـدواً واحـداً لـكـثـير

ومما أنشده المبرد :

ترفّع عن مخاشنة الصّـديق ... ولا تلج العدوّ إلى مـضـيق
وإن يسنح من المعروف شئٌ ... فبادر خوف إمكان الطـريق
وأحسن من مجاهدة الأعـادي ... مجاهدة النفوس على الحقوق

كان المغيرة بن شعبة يقول : إن أنكأ لعدوك ألاّ تعلمه أنك أتخذته عدوّا.

سئل أعرابي عن ابن العمّ ، فقال : عدوّك وعدوّ عدوّك.

كان يقال : من سعادة المرء أن يرى عدوّه خلفه في حياته ، ويقدمه أمامه في وفاته.

كان يقال : لا تلتمس معاونة ذي عداوة بإعطائه فضل قوة يستكثر بها عليك في مخالفتك.

جمع كسرى يوما مرازبته وعيون أصحابه ، فقال لهم : من أي شئ أنتم أشد حزراً ؟ قالوا من العدوّ الفاجر ، والصديق الغادر.

قال موسى بن جعفر : أتّق العدوّ ، وكن من الصديق على حذر فإن القلوب إنما سميت قلوباً لتقلّبها.

منصور الفقيه :

احـذر مـودة مـاذقٍ ... مزج المرارة بالحلاوه

يحصى الذنوب عليك أيّامَ الصداقة للعداوه وقال جحظة البرامكي :

لا تعدّنّ للزمان صديقـاً ... وأعدّ الزمان للأصدقاء

قال آخر :

دار الصديق إذا أستشاط تغضباً ... فالغيظ يخرج كامن الأحقـاد

ولربما كان التغيظ بـاحـثـاً ... لمعـايب الأبـاء والأجـداد

استعدى أعرابي على بلاد ابن جرير بن الخطفي إلى قثم بن العبّاس فقال :

أعوذ بالعبّاس وحقوى مـحـمّـد ... وحقويك من طول الأذى والغوائل

فإنّ بلالاً يابـن عـمّ مـحـمـدٍ ... عدوٌ إذا جاملتـه لـم يجـامـل

إذا نال يوماً رشوة من مخـاصـمٍ ... رمى كلّ حقٍّ أدعيه بـبـاطـل

قال ابن وكيع :

ليس بالمنكر انـقـلاب صـديقٍ ... ربما غصّ شاربٌ بالـشـراب

وتلاقى الأخوان بعد فسادٍ كتلاقي ... كتلاقي الأرواح بعد الـذهـاب

لا تضيعّ مـودةً مـن صـديقٍ ... فانقلاب الصديق شرّ انقـلاب

قال آخر :

وروّعت حتّى ما أراع من النّـوى ... وإن بان جـيرانٌ عـلـىّ كـرام

فقد جعلت نفسي على النأى تنطوي ... وعيني على هجر الصديق تنـام

وقال صالح بن عبد القدوس :

إذا وتر امـرءًا فـاحـذر عـداوتـه ... من أن يزرع الشوك لا يحصد به عنبا

إن العـدوّ وإن أبـدي بـشـاشـتـه ... إذا رأى منك يومـاً فـرصة وثـبـا

قال الصاحب بن عبّاد :

لقد صدقوا والراقصات إلى مني ... بأنّ مداراة العدى ليس تـنـفـع

ولو أنني دارأت عـمـري حـيةً ... إذا استمكنت يوما من اللسع تلسع

وقال آخر :

ليس الصديق الذي إن زالّ صاحبه ... يوماً رأى ذنباً غير مـغـفـور

إن الصديق الذي تلقاه يعـز فـي ما ليس صاحبه فيه بـمـعـذور

وقال آخر :

كان صديقي وكان خالصتي أيام نجري مجاري السّوق

قال أبو تمام الطائي :

وحسبك حسرةً لك من صديقٍ رأيت زمامه بـيدي عـدوّ

قال العطوي :

إذا أنكرت أخـلاق الـصـديق فلست من التحيّر في مضـيق

طريقاً كنت تسلكـه سـلـيمـاً فأسبع فاجتنبـه إلـى طـريق

فإن قابلت يسرى منه عسـرى فراجع من قطعت من الصّديق

وقال عبد بني الحسحاس :

رأيت الحبيب لا يملّ حديثه ولا ينفع المشنوء أن يتودّدا

وقال زياد اللأعجم :

عدوّك مسرور وذو الودّ بالـذي أتى منك من غيظ عليّ كظيظ

تلين لأعل الغلّ والغمز منـهـم وأنت على أهل الصفاء غلـيظ

نسيّ لما أوليت من صالحٍ مضى وأنت لتأنيب عـلـيّ حـفـيظ

وسميت غيّاظاً ولست بـغـائظ عدوّا ولكنّ الـصـديق يغـيظ

وقال أبو الطيب :

وأرحم أقواماً من العيّ والغـبـا وأعذر في بغضي لأنهـم ضـدّ

ومن نكد الدّنيا على الحرّ أن يرى عدوّا له من صـداقـتـه بـدّ

وقال آخر :

شر البلاد مكانٌ لا صديق بـه وشرّ ما يكسب الإنسان ما يصم

وقال منصور الفقيه :

إذا تخلفت عن صـديق فلم يعاتبك في التخلف

فلا تعد بعدهـا إلـيه فإنما وده تـكـلـف

وإن تعد بعدهـا إلـيه فلا تلمه على التصلف

وقال آخر :

إذا كتم الصديق أخـاه سـرّا	فما فضل الصّديق على العدوّ

وقال ابن الروّمى :

عدوّك من صديقك مسـتـفـادٌ	فأقلل ما استطعت من الصّحاب
فإن الـداء أكـثـر مـا تـراه	يكون من الطّعام أو الشـراب
وإنّك قلّما اسـتـكـثـرت إلاّ	وقعت على ذئابٍ فـي ثـياب
فدع عنك الكثير فكـم كـثـيرٍ	يعاب وكم قليلٍ مسـتـطـاب
وما اللّجج الملاح بـمـرويات	وتلقى الرّىّ في النطف العذاب
إذا انقلب الصديق غـدا عـدوّا	مبيناً والأمور إلـى انـقـلاب

وقال منصور الفقيه :

احـذر عـدوّك مــرة	واحذر صديقك ألف مرّة
فلربمّا انقلب الـصـديق	فكان أعلم بالمـضـرّة

قال آخر :

كن من صديقك خائفاً	فلربّما حال الصديق

وقال أخر :

أحذر صديقك لا عدوّك إنمـا	مستور سرّك عند كلّ صديق

قال أبو بكر الخالدى :

ما في زمانك ما يعزّ وجوده	إن رمته إلاّ صديقٌ مخلص

وقال الكميت يخاطب بني العباس :

إذا نحن خفنا في زمان عدوّ كم	وخفنا كم إنّ البلاء لـراكـد

وقال آخر :

وبغضك للتقّـى أقـل ضـراً	وأسلم من مودة ذي الفسـوق
ولن تنفك تحسـد أو تـعـادى	فأكثر ما استطعت من الصديق

خالفه ابن الرومي فقال :

عدوك من صديقك مستـفـادٌ	فأقلل ما استطعت من الصديق
فإن الداء أكـثـر مـا تـراه	من الأشياء تحلو في الحلـوق

أكثر رجل على رجل بالسّلام وقال له : أنا صديقك. قال : وكيف ? قال : لأني أسلم عليك. فأنشأ يقول :

لئن كان من قال السّلام عليكم — يعد صديقاً فالصديق كثـير

وقال عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر :

لا تهن للصديق تـكـرمـه — نفسك حتى تعدّ من خـولـه
يحمل أثقاله عـلـيك كـمـا — يحمل أثقاله على جـمـلـه
ليس الفتى بالذي يحول عن ال — عهد ويؤتي الصّديق من قبله
ولست مستبقـاً أخـاً لـك لا — تصفح عن جهله رعن زللـه

وقال آخر :

إن الصّديق فلا تأمن بوائقـه — أسواء العدوّ إذا ما سؤته أثرا

وقال رجل من بنى سليم :

لعمرك إننـي وأبـا ربـاحٍ — على حال التّكاثر شر منذحين
فأبغضه ويبغضنـى وأيضـاً — يراني دونـه وأراه دونـي
فلو أنّا على حجـرٍذبـحـنـا — جرى الدّميان بالخبر اليقـين

وقال المتلمّس :

أحارث أنا لو تشاط دماؤنـا — تزايلن حتى لا يمسّ دمٌ دما

وقال آخر :

إذا كنت مما لا ترى نافعاً — صديق ولا بالعدوّ تضـرّ
فسيان إن متّ أو إن حييت — فلا ذا يسوء ولا ذا يسـرّ

لأبي عيينة المهلب ، أو علي بن جبلة :

ولـمـا رأيتـك لا فـاجـراً — قوياً ولا أنـت بـالـزاهـد
وليس عدوّك بـالـمـتـقـي — وليس صديقك بـالـحـامـد
دخلت بك السّوق سوق الرقيق — وناديت هل فيك مـن زائد ?
فما جـائنـي رجـلٌ واحـدٌ — يزيد عـلـى درهـم واحـد
سوى رجل حان منه الشـقـا — ء وحلت به دعـوة الـوالـد
محـاط بـه مـعـه درهـمٌ — ردئ فأقبـل كـالـراصـد
فبعتك مـنـه بـلا شـاهـدٍ — مخافة ردّك بـالـشـاهـد
وأبت إلى منزلي غـانـمـاً — وحلّ البلاء على الـنـاقـد

وقال آخر :

سأصبر من صديقي إن — على كلّ الأذى إلاّ الهـوانـا

جفاني

قال العطوي :

إذا ما الحرّ فاز بحسن حـالٍ	أجاز صديقه من سوء حال
إذا أثرى رأى حقّا عـلـيه	له الإفضال من قبل السؤال
لعمرك ما رأيت فتى كريماً	يحب المال إلا لـلـنـوال
أبا حسن ثكلت الحزم فيمـا	أحاول من مقالي أو فعالى
لقد كذبت ظنوني فيك أن لم	أتب من حسن ظنّي بالرجال

وقال آخر :

إذا ما المرء كان له صديقٌ	فبرّ صديقه فرضٌ علـيه
فإن عنه الصّديق أقام يومـاً	فوجه البرّ أن يسعى إلـيه
وإن كان الصديق قليل مالٍ	يضيق بذرعه ما فـي يديه
فمن أسنى فعال المـرء ألاّ	يضنّ على الصديق بما لديه

وقال آخر :

ما ضاقت النفس على شهوةٍ	ألذّ من ودّ صـديق أمـين
من فاتـه ودّ أخ صـالـح	فذلك المغبون حق اليقـين

عبد الله طاهر ،ويروى لعلى بن الجهم ،وهي له لا غيره ،حدثنا عبد الوارث ،حدثنا قاسم بن أصبغ ،حدثنا أبو عيسى الأعمى الخباز ببغداد ،قال :أخبرني يحيى بن المعلم ،قال :مررت بعليّ بن الجهم ،وقد أذّن لصلاة الظهر ،وقد دخل المسجد يريد أن يركع ،فسلمت عليه وقلت له :لا يمكنني أن أقيم حتى تصلى لأني مبادر ،قال :فيم ذا ؟فقلت :أبيع قميصي هذا وأكافئ به صديقا له قبلى يدٌ. قال :فلم أمش إلاّ قليلا حتى ردني ،فقال لي :اكتب وأنشدني :

أميل مع الصديق على ابن أميّ	وأحمل للصّديق على الشقـيق
وإن ألفيتني ملكـاً مـطـاعـاً	فإنّك واجدي عبد الـصـديق
أفرّق بين معروفـي ومـنّـي	وأجمع بين مالي والحـقـوق

قالوا :أحذر من وترته وإن أحسنت إليه ،ومن أوحشته فلا تثق به.

قال الشاعر :

إذا وترت امرءا فاحذر عـداوتـه	من يزرع الشّوك لا يحصد به عبنا
إن العدوّ وإن أبدي بـشـاشـتـه	إذا رأى منك يوماً فرصةً وثـبـا

وقد تقدم في باب التودد إلى الناس أبياتٌ تصلح في هذا الباب ،فلم أروجهاً لتكرارها.

بابٌ جامعٌ متخيّرٌ في الإخوان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المرء على دين خليله ،فلينظر امرؤٌ من يخالل " .

قال الأوزاعيّ : الصاحب للصاحب كالرقعة للثوب ،إن لم تكن مثله شانته.

قال الشاعر :

وما صاحب الإنسان إلا كرقعةٍ | على ثوبه فليتخذه مشـاكـلا

وقال صلى الله عليه وسلم : " لا خير في صحبة من لا يرى لك كالذي يرى لنفسه " .
وفي الخبر المرفوع أيضا " شيئان لا يزدادان إلاّ قلة :درهمٌ حلال ،وأخٌ في الله تسكن إليه " وقد روى مرفوعاً : " المرء كثيرٌ بأخيه " .
قال عليّ بن أبي طالب ،رضي الله عنه :لا خير في صحبة من تجتمع فيه هذه الخلال :من إذا حدّثك كذبك ، وإذا ائتمنته خانك ،وإذا ائتمنك اتهمك ،وإذا أنمت عليه كفرك ،وإذا أنعم عليك منّ عليك .
وعن ابن عباس أنه قال :أحبب في الله ،وأبغض في الله ،وعاد في الله ،فإنه لا تنال موالاة الله إلا بذلك ،ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان ولو كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك.
قال :ولقد صارت عامة مؤاخاه الناس على أمر الدنيا ،وذلك لا يجدي علىأهله ،ثم قرأ ابن عباس : " الأخلاّء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين " ،وقرأ : " لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادٌ الله ورسوله " ألآية.
قال المغيرة بن شعبة :التّازل للإخوان منزول.
قال االمنصور لإسحق بن مسلم العقيلي :ما بقي من لذّتك ؟ قال :أخٌ أشتهي معه طول السهر ،ودابةٌ أستهي معها طول السّفر.
قال جعفر بن محمد :حفظ الرجل أخاه بعد وفاته في تركته كرم.
كان يقال :أنصح الناس لك من خاف الله فيك.
قال موسى بن جعفر :من لك بأخيك كلّه ،لا تستقص عليه فتبقى بلا أخ.
كان يقال :الأخوّة قرابةٌ مستفاده.
كان يقال :ما شئٌ أسرع في فساد رجل وصلاحه من صاحبه.
ذكر الرياشي ،عن الأصمعى ،قال :ما رأيت شعراً أشبه بالسنة من قول عديّ بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قـريـنـه | فكلّ قرين بالمـقـارن مـقـتـدى
وصاحب أولى التّقوى تنل من تقاهـم | ولا تصحب الأردى فتردى مع الرّدى

وقال أبو العتاهية :

من ذا الذي يخفي عليك | إذا نظرت إلى قرينه

قال الخوارزمي :

لا تصحب الكسلان في حاجاتـه | كم صالحٍ بفساد آخـر يفـسـد
عدوي البليد إلى الجليد | والجمر يوضع في الرماد

سـريعةٌ | فيخمد

كان سفيان بن عيينة يتمثل :

لكلّ امرئٍ شكـلٌ يقـرّ بـعـينـه | وقرة عين الفسل أن يصحب الفسلا

وقال صالح بن جناح :

وصاحب إذا صاحبت حراً مبرّزا | يزين ويزرى بالفتى قـرنـاؤه

وقال سهل الوراق :

تخيّر قريناً لا يعيب فـإنّـه | يقاس لعمري بالقرين قرينه
وشرّ خدين قاطعٌ لخـدينـه | إذا حاد يوماً عن هواه خدينه

وقال آخر :

إن النّديم وإن الكأس صيّرنـي | كما تراني سليب العقل والدين

قالوا : من أراد أن يدوم له ودّ أخيه ،فلا يمازحه ، ولا يعده موعداً فيخلفه.

أوصى رجلٌ ابنه فقال : يابنىّ! اصحب من إذا غبت عنه خلفك ، وإن حضرت كنفك ، وإن لقي صديقك استزاده لك ، وإن لقي عدوّك كفّه عنك.

وقال بعضهم : لا تؤاخ شاعراً ، فإنه يمدحك بثمن ، ويهجوك مجاناً.

لابن أخي زرّ بن حبيش :

وما استخبأت في رجل خبيئاً | كدين الصّدق أو حسب عتيق

كان من كلام خالد بن صفوان : اصحب من إن صحبته زانك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك فاقة مانك ، وإن رأى حسنة عدها ، وإن رأسيئة كتمها وسترها ، لا تخاف بوائقه ، ولاتختلف طرائقه.

قال أبو العتاهية :

لك الخير إنّي ناصحٌ لك فاسـمـع | طمعت من الإنسان في غير مطمع
طمعت من الإنسان في صفـو ودّه | ألا ليس يصفو ذو طبـائع أربـع
خذ العفو من كلّ امرىءٍ سمت ودّه | وإن ضاق عما سمته فـتـوسـع

ولأبي العتاهية أيضاً :

ياربّ خدن كنت آمـن غـيبـه | أصبحت تنطف في يديه جراحي
سلحـتـه لـيردّ بـأس عـدوّه | فعدا علىّ فبزّني بـسـلاحـي

وقال العاقولي :

من يكرم الناس يكرموه | ومن يهنهم يجد هوانا
ومن يقل عثرة يقلهـا | ومن يعن لم يزل معانا
كان أخا صاحباً زمانـا | فمال عن وصلنا وخانا
تاه علينا ،وصدّ عـنّـا | فما نـراه ولا يرانـا

وقيل لخالد بن صفوان :أيّ إخوانك أحب إليك ؟قال :الذّي يغفر زللي ،ويقبل عللي ،ويسدّ خللي.
قال المأمون :الإخوان على ثلاث طبقات :فإخوان كالغذاء لا يستغنى عنهم أبدا ،وهم إخوان الصّفاء ، وإخوان كالدواء يحتاج إليهم في بعض الأوقات ،وهم الفقهاء ،وإخوان كالدّاء لا يحتاج إليهم أبدا ، وهم أهل الملق والنفاق لا خير فيهم.
قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : اصحب من ينسى معروفه عندك ،ويذكر حقوقك عليه.
كان ابن عيينه ماشياً بمكة مع بعض إخوانه ، فنظر فإذا أحداث يتبعونه ،فقال له : انظر من صار جلاّسى اليوم بعد ثمانين سنة... لقد كنت ابن عشرين سنة وما كنت أجالس أبناء العشرين ،وإنما كنت أجالس الشيوخ والكهول ، ألم تسمع إلى قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ؟
قلت : لا. قال : قال عبيد الله :

ألا أبلغا عني عراك بن مالك فإن أنتما لم تفعلا فأبا بكـر

ويروى : ولا تدعا أن تثنيا بأبي بكر

فكيف تلومان ابن سـبـعـين حـجةً على ما أتي وهو ابن عشرين أو عشر

وقال آخر :

ابن لي فكن مثلي ، أو ابتغ صاحباً كمثلك إني مبتغ صاحباً مثـلـي
ولا يلبث الإخوان أن يتـفـرقـوا إذا لم يؤلف روح شكل إلى شكل

قيل لبعض المدنين :أي الهى أغلب ? قال : هوى متشاكلين.
ولعبد الصمد بن المعذل :

الناس أشكال فكل امرئ يعرفه الناس بمنتـابـه
لا تسألن المرء عن حاله ما أشبه المرء بأصحابه

وقال أبو الأسود الدؤلي :

لكل امرىءٍ شكل من الناس مثلـه وكل امرىء يهوى إلى من يشاكله
ومالك بدٌ من نـزيل فـلا تـكـن نزيلاً لمن يسعى به من ينـازلـه
وإن أنت نازلت الكـريم فـلاقـه بما أنت من أهل المروءة قائلـه
وإن أنت نازلت اللئيم فكن فـتـىً تزايله في فعلـه وتـحـامـلـه
إذا لم تداخل عزَّ من كان ذا وعزمٍ وحزم لم تجد من

حجـاً تداخـلـه
وما الناس إلا بالأصول فـإنـمـا يثبت أعلى كل بـيتٍ أسـفـلـه

وقال جرير :

وإني لأستحي أخي أن أرى له على من الحق الذي لا يرى ليا

وفي هذا الشعر يقول جرير :

ألا تخافا نـبـوتـي فـي مـلـمة وخاف المنايا أن تفوتـكـمـا بـيا
تعرضت فاستمررت من دون حاجتي فحالك إني مسـتـمـرٌ لـحـالـيا
وإني مغرور أعلـل بـالـمـنـى ليالي أرجـو أن مـالـك مـالـيا
فأنت أخي ما لم تكـن لـي حـاجةٌ فإن عرصت أيقنـت ألا أخـا لـيا

وهذا البيت من شعر جرير هذا قد أدخله عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر فيأبياته التي يقول فيها ، فلا أدرى من تقدم صاحبه إليه :

رأيت فضلاً كان شيئاً ملـفـفـاً فكشفه التمحيص حتى بـدا لـيا
فأنت أخي ما لم تكن لي حـاجةٌ فإن عرضت أيقنت ألا أخا لـيا
فلا زاد ما بيني وبينك بـعـدمـا بلوتك في الحاجات إلا تـنـائيا
ولست براء عيب ذي الود كلـه ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيبٍ كلـيلةٌ ولكن عين السخط تبدي الساـويا
كلانا غنى عـن أخـيه حـياتـه ونحن إذا متنا أشـد تـغـانـيا

وقد أدخل بعضهم في هذه الأبيات بيتين ، وهما :

ولست بهياب لمن لايهـابـنـي ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا
متى تدن مني تدن منك مودتـي وإن تنأ عني تلفني عنـك نـائيا

وقال روح أبو همام :

فعين السخط تظهر كـل عـيبٍ وعين أخو الرضا عن ذاك تعمى

وقال معن بن أوس :

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقل
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني يمينك فانظر أي كفٍ تبدِّل

كتب ابن عمار إلى برجوان كتاباً فيه قول الشاعر :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتني يمينك فانظر أي كف تبدل

فدعا برجوان شاعراً كان قد استخصه يعرف بابن أعين ، وقال له :أجب عن هذا البيت ، فقال :

وما زلت أهدى النصح حتى اطّرحته وأقبلت عن سبل الهداية تعدل
فهبك يميني استخبثت فقطعتها لتسلم لي نفسي أم الهلك أجمل

وهذا المعنى مأخوذ من قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

ألم تر أن المرء تدوى يمينه فيقطعها عمداً ليسلم سائره
فكيف تراه بعد يمناه فاعلاً بما ليس منه حين تدوى سرائره

أنشدني أبو القاسم عبد الوارث بن سفيان ، قال : أنشدنا أبو محمد قاسم ابن أصبغ ، قال : أنشدنا أبو بكر بن أبي خيثمة لأبي الشيص محمد بن عبد الله ابن رزين:

صاحبٌ كان لي أشفق من والدٍ وكنت له على ولدٍ
كنا كساق تسعى بها قدمٌ أو كذراع نيطت إلى عضد
وكان لي مؤنساً وكنت له ليست بنا حاجةٌ إلى أحد
حتى إذا حلت الحوادث من ساحتي وحل الزمان من

عـــــقـــــــدي

احول عني وكان ينظر منعيني ويرمي
بساعدي ويدي حتى إذا استرفدت يدي
يدهكنت كمسترفدٍ يد الأسد

وقال آخر :

واني لأستحي أخي أن أبره قريباً وأن أجفوه وهو بعيد

وقال آخر :

قلت للفرقدين إذ طال ليـلـي وهما في السماء مقترنـان
ابقيا كيف شئتما عن قـلـيل سوف تطوى السما وتفترقان

قيل لأعرابي : لم قطعت أخاك من أبيك ؟ فقال : إني لأقطع الفاسد من جسدي الذي هو أقرب إلي من أبي وأمي وأعز فقدا.

وقال آخر :

لا تهني بعد أن أكرمتني فشديدٌ عادةٌ منتزعتـه

وقال آخر :

وكل أخ مفارقه أخـوه لعمر أبيك إلا الفرقدان

وقال آخر :

لن يلبث القرناء أن يتفرقوا ليلٌ يكر عليهم ونـهـار

وقال محمد بن أبي حازم الباهلي :

لم يكن من شكلي ففارقته والناس أشكـالٌ وألاف

وقال ابن الرومي : " وبعض السجايا ينتمين إلى بعض " قال حبيب :

ولن تنظم العقد الكعـاب لـزينةٍ كما ينظم الشّمل الشتيت الشمائل

وقال المساحقي :

تزهّدني في ودّك ابن مسـافـع مودتك الأرذل دون ذوي الفضل
وأن شرار الناس سادوا خيالاهم زمانك إن الرّذل للزمن الـرّذل

قال أكثم بن صيفي : أحقّ من يشر كك في شر كاؤك في المكاره.
أخذه دعبل فقال ، ويروي لحبيب :

وإن أولى الـبـرايا أن تـواسـيه عند السّرور لمن واساك في الحزن
إنّ الكرام إذا ما أسهـلـوا ذكـروا من كان يألفهم في المنزل الخشـن

وقال آخر :

إذا ماخليلي أسا مـرّةً وقد كان من قبلها مجملا
شكرت المقدّم من فعلـه ولم يفسد الآخـر الأوّلا

وقال امرؤ القيس بن عانس الكندي :

إني بحبلك واصلٌ حبلـي	وبريش نبلك رائشٌ نبلـي
وشمائلي ما قد علمت وما	نبحت كلا بك طارقاً مثلي

قال عبيد :

لا ألقينّك بعد الموت تنـدبـنـي	وفي حياتي ما زوّدتنـي زادي
الخير أبقي وإن طال الزمان به	والشّرّ أخبث ما أوعيت من زاد

قال آخر :

وإذا تكون عظيمةٌ أدعي لـهـا	وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

وقال آخر :

إذا كنت تأتي المرء تعرف حـقّـه	ويحمل منك الحقّ فالتّرك أجـمـل
وفي البعد منجاة وفي الصرم راحةٌ	وفي الأرض عمن لا يواتيك مرحل

وقال آخر :

له حقٌ وليس علـيه حـقٌ	ومهما قال فالحسن الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقاً	عليه لأهلها وهو الرسـول

قال آخر :

وددتك لما كان ودّك خالـصـاً	وأعرضت لما صار نهباً مقسّماً
ولن يلبث الحوض الجديد بنـاؤه	على كره الورّاد أن يتهـدّمـا

وقال إبراهيم بن العباس الصولى :

نعم الزمان زمانـي	والشّان في إخواني
ممن رماني لـمّـا	رأى الزمان رماني
لو قيل لي خذ أماناً	من أعظم الحدثـان
لما أخـذت أمـانـاً	إلا مـن الإخـوان

وقال أيضاً :

وكنت أخي بإخاء الزمـان	فلما نبا صرت حرباً عوانا
وكنت أذمّ إليك الـزمـان	فأصبحت فيك أذم الزمانا
وكنت أعدك للـنـائبـات	فها أنا أطلب منك الأمانا

وقال آخر وهو كثيّر عزّة:

خير إخوانك المشالاك في المرّ	وأين الشريك في المـرّ أينـا

الذي إن حضرت زانك في الحيّ وإن غبت كـان أذنـاً وعـيـنـا
أنت في معشر إذا غبت عنهـم بدّلوا كل مـا يزينـك شـيـنـا
وإذا ما حضرت قالوا جميعـاً : أنت من أكرم العباد عـلـيـنـا

وقال آخر :

لحا الله وصلا إن تغيبت ساعة فأنت وأقصى الناس فيه سواء
وخلاّ إذا لم تـأتـه بـهـديةٍ بدت لك منه غفلةٌ وجـفـاء

وقال المثقب العبدي :

تواعدني مواعـد كـاذبـات تمرّ بها رياح الصيف دوني
فإما أن تكون أخـي بـحـقّ فيعرف منك غثّي من سميني
وإلا فاطّرحني واتـخـذنـي عدوّا أتقـيك وتـتـقـيـنـي
فإني لو تعاندني شـمـالـي عنادك ما وصلت بها يمينـي
إذا لقطعتها ولقلـت بـيـنـي كذلك أجتوى من يجتـويـنـي

وقال آخر :

أفّا وتفّا لـمـن مـودّتـه إن زلت عنه سويعةً زالت
إن مالت الريح هكذا وكذا مال مع الريح حيثما مالت

وقال صالح بن عبد القدّوس :

قل الذي لست أدري من تـلـوّنـه أناصحٌ أم علـى غـشّ يداجـيـنـي
إني لأكثر مما سميتنـي عـجـبـاً يد تشجّ وأخرى منـك تـأسـونـي
تغتابني عند أقـوامٍ وتـمـدحـنـي في آخرين ،وكلّ عـنـك يأتـيـنـي
هذان أمران شتّى البون بينـهـمـا فاكفف لسانك عن ذمي وتـزيينـي
لو كنت أعلم منك الـودّ هـان إذاً عليّ بعض الذي أصبحت تولـيـنـي
لا أسأل الناس عما في ضمـائرهـم ما في ضميري لهم من ذاك يكفيني
أرضي عن المرء ما أصفى مودّتـه وليس شئ من البغضاء يرضـيـنـي

والله لو كرهت كفّى مصاحبتي	لقلت إذ كرهت قربي لها بيني
ثم انثنيت على الأخرى فقلت لها :	إن تسنديني وإلا مثلها كمني
لا أبتغي ودّ من يبغي مقاطعتي	ولا ألين لمن لا يبتغي ليني
إنّي كذاك إذا أمر تعرّض لي	خشيت منه على دنياي أو ديني
خرجت منه وعرضني ما أدنّسه	ولم أقم غرضاً للنّذل يرميني
ربّ امرئ أجنبيّ عن ملاطفتي	محض المودّة في البلوى يواسيني
وملطفٍ بي مدارٍ ذي مكاشرة	مغض على وغرٍ في الصدر مكنون
ليس الصّديق الذي تخشى بوادره	ولا العدو على حال بمأمون

وقال آخر :

لسانك معسولٌ ونفسك شحّةٌ	ودون الثريا من صديقك مالكا

وقال آخر :

بنو عبسٍ أشدّ الناس بغضاً	لنا وأشدهم بغضا إلينا
فلا تقبلَ شهادتنا عليهم	ولا تقبل شهادتهم علينا

قال لقمان لابنه :ثلاثةٌ لا يعرفون إلاّ في ثلاثة مواطن :لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ،ولا الشجاع إلاّ عند الحرب ،ولا الأخ إلا عند الحاجة.

قال بعض الحكماء :الإخوان بمنزلة النار ،قليلها متاع ،وكثيرها بوار ،فلا تسرّنّ بكثرة الإخوان إذا لم يكونوا أخياراً.

قال أسماء بن خارجة :إذا قدمت المودة سمج الثناء.

قال أبو العتاهية :

انت ما استغنيت عن صاحبك	الدهر أخوه
فإذا أحتجت إليه	ساعةً مجك فوه
لو رأى الناس نبياً	سائلاً ما رحموه

وقال سويد منجوف :

فأبلغ مصعبا عني رسولا	وهل تجد النصيح بكل واد
تعلّم أن أكثر من تناجي	وإن ضحكوا إليك هم الأعادي

وقال آخر :

لعمرك ما ودّ اللّسان	إذا لم يكن أصل المودّة في

بـنـافـع	القلب

كان يقال :تناس مساوئ الإخوان ،يدم لك ودّهم.

وقال آخر :

يا غـارسـاً الـكـروم	بجهله وسط السـبّـاخ
ومحضناً بيض القـطـا	تحت الحد الرجا الفراخ
إن الـذين تـودّهـــم	هم ناصبو شبك الفخاخ
ذهب الزّمان بـأهـلـه	فانظر لنفسك من تؤاخ

وقال عبدة بن الطّيب :

إن الذين تـرونـهـم إخـوانـكـم	يشفش صداع رءوسهم أن تصرعوا
فضلت عداوتهم على أحـلامـهـم	وأبت ضباب صدورهم ما تـنـزع
لا تأمنوا قومـاً يشـبّ صـبـيهـم	بين الوابل بـالـعـداوة يرضـع

قال لقمان لابنه :يا بني!إياك وصاحب السوء ،فإنه كالسيف المسلول ،يعجبك منظره ،ويقبح أثره.

قال المثقّب العبدي :

وصاحب السّـوء كـالـدّاء الـعـياء إذا	ما ارفض في الجوف يجري هاهنا وهنا
ينبي ويخبر عن عـورات صـاحـبـه	وما رأى عنده مـن صـالـحٍ دفـنـا
كمهـر سـوءٍ إذا رفـعّـت سـيرتـه	رام الجماح وان أخفـضـتـه حـرنـا
إن يحي ذاك فكـن مـنـه بـمـعـزلةٍ	أو مات ذاك فلا تقـرب لـه جـنـنـا

ولقعنب بن أم صاحب ،وهو قعنب بن حمزه ،أحد بني عبد الله بن غطفان ، يهجو بني ضبة حيّ من غطفان :

صمّ إذا سمعوا خيراً ذكـرت بـه	وإن ذكرت بسوء عندهـم أذنـوا
فطانة فطنوها لو تـكـون لـهـم	مروءةٌ أو تقًى لله ما فـطـنـوا
إن يسمعوا سيئاً طاروا به فـرحـاً	منّي ،وما سمعوا من صالحٍ دفنوا
جهلا علينا وجبناً عـن عـدوهـم	لبئست الخلتان الجهل والـجـبـن
فلن يراجـع ودّى ودهـم أبـنـا	وكنت من بغضهم مثل الذي

زكنوا
روى عن معاذ بن جبل ، وقد رفعه بعضهم ، قال : إذا أحببت أخاً في اللّه فلا تماره ولا تساره عنه أحداً ، فربما صادفت له عدوّا فأخبرك بما ليس فيه ، فحال بينك وبينه.
قال أبو الأسود الدؤلى :

وصله ما استقام الوصل منه ولا تسمع به قـيلاً وقـالا

قال محمود الوراق :

لست ممن يماذق الصاحب ال ود إذا أظهر الجفاء الصريحا
أنا أنهاه ما استطعت فإن لـجّ أعرت الفؤاد يأسا مـريحـا
غير أني على القطيعة لا أظ هر هجراً ولا أقول قبيحـا

باب العتاب
قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه : أعقل الناس أعذرهم لهم.
قال الأحنف : العتاب مفتاح التّقالى ، والعتاب قرين الحقد.
وعن الأصمعيّ قال : قال أعرابي : عاتب من ترجو رجوعه.
قال بعض الحكماء : العتاب علامة الوفاء ، وسلاح الأكفاء ، وحاصد الجفاء.
قال العتابي : ظاهر العتاب خير من مكنون الحق ، وضربة الناصح خير من محبة الشّاني.
قال بعض الحكماء : من كثر حقده قلّ عتابه.
قال محمد بن داود : من لم يعاتب على الزلة ، فليس بحافظٍ للخلّه.
قال أسماء بن خارجة الإكثار من العتاب ، داعية إلى الملاّل.
قيل لبعض الأعراب : من الأديب العاقل ؟ قال : الفطن المتغافل.
قال بعض الأدباء : من أحب أن يسلم له صديقه ، فليقبل عذره ، وليقل عتابه ، فإن العتاب يجرّ الملال.
قال غيره : العتاب مفتاح القطيعة.
قال عمرو بن بحر العتاب رائد الإنصاف وشفيع المودة ، ويد للمحافظة.
أنشدنا الرّياشي ،وهي لهشام الرقاشي : ?أبلغ أبا مسمع عني مغلغلةً=وفي العتاب حياةٌ بين أقوام

قدّمت فبلي رجالا لم يكن لـهـم في الحق أن يلجوا الأبواب قدّامي
لو عدّ قبرٌ كـنـت أمـرمـهـم قبراً وأبعدهم من منـزل الـذّام

وقال عبيد الله بن طاهر : ?أعاتب من يحلو بقلبي عتابه=وأترك من لا أشتهينلا أعاتبه وقال آخر : ?وليس عتاب المرء للمرء نافعاً=إذا لم يكن للمرء لبّ يعاتبه وقال آخر : ?أعلتب من أحببت في كلّ زلّةٍ=ليحتمى الأمر الذي معه العتب

فإني أرى التأديب عند وجوبـه بمنزلة الغيث الذي قبله الجدب

وقال على بن الجهم : ?أعاتب ذا المودّة من صديق=إذا ما رابني منه اجتناب

إذا ذهب العتاب فليس ودٌّ ويبقى الودّ ما بقي العتاب

وقال آخر :

لولا محبتكم لما عاتبتـكـم ولكنّم عندي كبعض الناس

وقال نصر بن أحمد : ?وتعاتب الإخوان فيما بينهم=بعثٌ على الإجلال والإكرام

لولا اعـتـرافـي تأتي وتترك ما أتاك ملاميوهذا

بـاعـتـرافـك فـي الــذي يشبه قول البحتري :
?أبا حسن ما كان عتبيك دونهم=لواحدةٍ إلاّ لأنك تفهم وقال نصر بن أحمد :

?إن كان لفظي كريها فاصطبر فعلى=كره العلاج يصحّ الله أبدانا

لولا العوارض ما طاب العتاب لنا لولا قصارتنا للثـوب مـا زانـا
إني أعاتب إخواني وهم ثقـتـي طوراً وقد تصقل الأسياف أحيانا
هي الذنوب إذا ما كشفت درست من القلوب وإلا صرن أضغانـا

وقال ابن وكيع : ?عتابي أخي في كل ذنب أتى به=مخوفٌ على حال الأخوة في الودّ

ولست أرى وجهاً لترك عـتـابـه على ما جني إذ كان خيراً من الحقد

وقال ابن بسّام : ?عاتب أخاك إذا هفا=واعطف بودّك واستعده

وإذا أتاك بـغـيبـه واشٍ فقل لم يعتمده
من ناقش الإخوان لم يبدِ العتاب ولم يعده

وقال محمد بن أبي حازم : ?خلّ عنك العتاب إن=خان ذو الودّ أو هفا

عين من لا يحب وص لك تبدي لك الجـفـا

وقال بشار العقلي : ?إذا كنت في كلّ الأمور معاتباً=صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحداً أو صل أخاك فـإنـه مقارف ذنب مرة ومـجـانـبـه
إذا أنت لم تسرب مراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربـه

وقال آخر : ?البس الناس ما استطعت على النّقص=وإلاّ لم تستقم لك خلّه

عش وحيداً إن كنت لا تقبل العذ ر وإن كنت لا تـجـاوز زلّة

وقال آخر :

خذ من صديقك ما صفا لك لا تكن جمّ المعايب
إن الكثير عـتـابـه ال إخوان ليس لهم بصاحب

وقال أحمد بن يوسف :

رأيتك لا تمـيل إلـى صـوابٍ ولا ترضى الصواب من الجواب
وتركك ما يريبك فـي كـثـيرٍ أحفّ عليك من طول العـتـاب

ولعبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر :

خليليّ لو كان الزمان مسـاعـدي وعاتبتماني لم يضق عنكما صدري

فأمّا إذا كان الزمـان مـعـانـدي فما لكما أن تؤذياني مع الـدهـر

وقال آخر :

إن الظّنين من الإخوان يبرمه طول العتاب وتغنيه المعاذير

وذو الصفاء إذا مسته معتـبةٌ كانت له عظةٌ منها وتذكير

وهذا قول مميّز منصف ، حكم فعدل وشرح فأوضح.

أنشد نفطويه :

وكم من ملين لم يصب بـمـلامةٍ ومتّبع بالذّنـب لـيس لـه ذنـب

وكم من محبّ صد من غير بغضة وان لم يكن في ودّ خلته عـتـب

وقال أبو العباس الناشئ :

وليست معاتبا خـلاّ لأبـي رأيت العتب يغري بالعقوق

ولو أني أوقف لي صديقـاً على ذنبٍ بقيت بلا صديق

وله :

إني ليهجرني الصديق تجنّباً فأريه أن لهجره أسبـابـا

وأخاف إن عاتبته اغريتـه فأرى له ترك العتاب عتابا

وقال آخر :

عتبت عليّ ولا ذنـب لـي بما الذنب فيه بلا شك لـك

وحاذرت لومي فبادرتـنـي إلى اللّوم من قبل أن أدّرك

فكنّا كما قيل فيما مـضـى خذ اللّص من قبل أن يأخذك

باب الثّقلاء والطفيليين

سئل جعفر بن محمد عن المؤمن ،هل يكون بغيضاً ?قال :لا يكون بغيضاً ،ولكن يكون ثقيلا.

قال سفيان بن عيينة :قلت لأيوب السّختياني :لم لم تكتب عن طاووس ?قال :أتيته فوجدته بين ثقلين ،عبد الكريم بن أبي الخارق ،وليث بن أبي سليم.

قال الحسن البصري ،في قوله عز وجل :"فإذا طعمتم فانتشروا"نقال :نزلت في الثقلاء.

وقال السّري :ذكر الله تعالى الثقلاء في القرآن ،في قوله :"فإذا طعمتم فانتشروا".

وقال أبو أسامة :كنا عند الأعمش ،فجاء زائدة بن قدامة ،فقال الأعمش حين رآه :

وما الفيل تحمله مـيتّـاً بأثقل من بعض جلاّسنا

كان أبو هريرة إذا استثقل رجلا ،قال اللّهم اغفر لنا وله ،وأرحنا منه.

رواه سهيل بن أبي صالح عن أبيه ،عن أبي هريرة.

كان حمّاد بن سلمة إذا رأى من يستثلقه ،قال : " ربنّا اكشف عناّ العذاب إنّا مؤمنون " .

وعن حمّاد بن سلمة أيضاً ،أنه قال :الصوم في البستان من الثقل.

كان يقال. مجالسة الثقيل حمّى الروح .

قيل لأبي عمرو الشيباني :لأيّ شئ يكون الثقيل أثقل على الإنسان من الحمل الثقيل ? فقال : لأن الثقيل يقعد على القلب ، والقلب لا يحتمل ما

يحتمل الرأس والبدن من الثقل.
كان فلاسفة الهند يقولون : النظر إلى الثقيل يورث موت الفجأة.
قال ثقيل لمريض : ما تشتهي ؟ قال : أشتهي ألا أراك.
مرض الأعمش فعاده أبو حنيفة ، فقال : يا أبا محمد!لولا أنه يثقل عليك ،لعدتك كل يوم.
فقال الأعمش : والله إنك على لّثقيل وأنت في بيتك ، فكيف إذا عدتني ؟
قال معمر : ما بقي من لذّات إلاّ ثلاثة : محادثة الإخوان ، وحكّ الجرب ،والوقعة في الثقلاء ، وهي أفضل الثلاث.
وقال عبد الرزّاق عن معمر ، قال : ما بقي من لذّات الدنيا إلاّ ثلاثة :محادثة الإخوان ، وأكل القديد ، وحكّ الجرب.وأزيدكم واحدة : الوقيعة في الثقلاء ، وأنشد :

ليتني كنت ساعةً ملك المو ت فأفني الثّقال حتى يبيدوا

قال : وسمعت معمرا يقول : رحم الله عبد الكريم أبا أمية ، إن كان لثقيلا غير ثقة.
قيل لأبي النضر : لم تكثر عن شعبة ؟ قال : كان يستثقلني ، وكنت أهلا لذالك.
قال أبو هفان :

مشتمل بالبغض لا تنشني إليه طوعاً مقلة الرّمق
يظل في مجلسنا قاعداً أثقل من واشٍ على عاشق

كان الأعمش إذا قام من مجلسه ثقيل يتمثلً :

إن غاب عنك ثقيل كلّ قبيلةٍ ممن يشوب حديثه بمراء
فهناك طاب لك الحديث وإنما طيب الحديث بخفة الجلساء

وقال آخر :

إني أجالس معشراً نوكى أخفّهم ثقيل
قوم إذا جالستم صدئت بقربهم العقول
لا يفقهون مقالتي ويدقّ عنهم ما أقول

وقال آخر :

إذا جلس الثقيل إليك يوماً أتتك عقوبة من كل باب
فهل لك يا ثقيل إلى خصالٍ تنال ببعضها كرم المآب
إلى مالي فتأخذه جميعاً أحلّ لديك من ماء السّحاب
وتنتف لحيتي وتدقّ أنفي وما في فيّ من ضرس وناب
على ألاّ أراك ولا تراني مقاطعةً إلى يوم الحساب

كان يقال :مجالسة الثقيل عذابٌ وبيل.
قال عبد الأعلى بن مسهر : كان نقش خاتم أبي : " أبرمت فقم " فكان إذا استثقل جليسه ناوله خاتمه ليقرأنقشه.
وهذا الخبر رواه أبو مسهر عبد الأعلى بن مسهر ، قال : قال لي هشام بن يحيى :كان نقش خاتم أبيك... فذكر الخبر.
سلم ثقيل على إبراهيم بن عبد الله القارئ صاحب هارون ، فقال له : يا هذا! قد واللّه بلغت منى

غاية الأذى ، أسلفنى سلام شهر وأرحنى منك.
قال معمر : كنت جالساً مع سماك بن الفضل في مجلس بصنعاء ، فدخل علينا صاحبٌ له ثقيل فلمّا جلس قال لي سماك : يا معمر! تعال حتى ندعو على كل ثقيل بصنعاء.
قال الشاعر :

أنت يا هذا ثـقـيل وثـقـيلٌ وثـقـيل
أنت في المنظر إنسا نٌ وفي الميزان فيل

وقال ابن أبي أمية :

شهدت الرقاشى في مجـلـس وكان إلى بغيضـاً مـقـيتـا
قال : اقترح بعض ما تشتهي فقلت : اقترحت عليك السكوتا

فقال أبو حازم : عود نفسك الصبر الجليس والسوء ، فإنه لا يكاد يخطئك.
قال الهيثم بن عدّى : كنت يوماً عند مسعر بن كدام ، فأتاه رقبة بن مصقلة العبدى ، فقال له معسر : مالك يا ابن مصقلة ? قال : صريع فالوذج. قال : وأين ? قال : عند من قضى أبوه في الجماعة ، وحكمّ في الفرقة.
دعانا الوليد بن الحارث بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، فأتينا بخوان كجوبة من الأرض ، وأتينا برقاق كأذان الفيلة ، وجرجبرٍ كآذان المعزي ، ثم أتينا بساكبة الماء كأن ظهرها ظهر طائرٍ قيراطيّ ، ثم أتينا بفالوذج عديد ، كأنّ الزئبق والجادى ينبعان من خلاله ، يرى نقش الدرهم من تحته ، فوضع على رأس حبّ فنحن على لذة من هذا وعلي يقين من ذلك. فقال له مسعر : أراك طفيفاً.
فقال : يا أبا محمد! كل من ترى طفيلي إلا أنهم يتكاتمون ، فو اللّه ما برحنا حتى طلع علينا الحارث من بعض أبواب المسجد يخطر بيديه ، فقال رقبة : انظروا إلى هذا وكيف يمشى ?! لو كان أبوه جدع أنف عمرو بن العاص مازاد على هذا
قال له مسعر : أجل ، قد مضى إلى لعنة اللّه وسقره.
وقال حبيب بن أوس :

يا من تبرمت الدّنيا بطـلـعـتـه كما تبرمت الأجفان بالـسـهـد
يمشى على الأرض مختالاً فأحسبه لبعض طلعته يمشى على كبـدى

وقال آخر :

لخرط قتادة ولحمـل فـيل وماء البحر يغرف في زبيل
وفك الماضغين وقلع ضرس لأهون من مجالسة الثقـيل

ولأبي الحسن علّى بن العبّاس الرّومى :

ولى أصدقاءٌ كثيرو السّـلام علىّ وما فـيهـم نـافـع
إذا أنا أدلجـت فـي حـاجة لها مطلبٌ نازحٌ شـاسـعٌ

فلى أبداً مـعـهـمٌ وقـفةٌ وتسليمةٌ وقتـهـا ضـائعٌ
وفي موقف المرء عن حاجة يتممها شـاغـلٌ قـاطـع
ترى كلّ غثٍّ كثير الفضول ومصحفه مصحفٌ جامـع
يقول الضمير إذا مـا بـدا : ألا قبّح الرجل الـطـالـع
يحدثـنـى مـن أحـاديثـه بمالا يلد بـه الـسـامـع
أحاديث هن ّمثال الضـريع فآكـلــه أدلً جـــائع
غدوت وفي الوقت لى فسحةٌ فضاق بي المنهل الواسـع
تقدمت فاعتاقـنـى أسـرة إلى أن تقدمنى الـتـابـع
وقالت بلقيانه حـاجـتـي : ألاهكذا النـكـد الـبـارع
أولئك لاحـيهّـم مـؤنـسٌ صديقاً ولا ميتهـم فـاجـع

دق طفيليٌّ دار قوم فيها طعامٌ ،فقيل :من هذا ?فقال :أنا الذي كفاكم مؤونة الرّسول.
لطفيليّ :

نحن قومٌ إذا دعينا أحببنـا ومتى ننس يدعنا التطفيل
فنقل :علّنا دعينا فغبـنـا أو أتانافلم يجدنا الرّسول

دخل طفيليٌّ دار قوم بغير إذن ،فاشتد عليه صاحب الدار في القول ،فأغلظ له الطفيلي في الجواب ،وقال :والله لئن قمت لأدخلنّك من حيث خرجت.
فقال له صاحب المنزل :أما أنا فأخرجك من حيث دخلت.وأخذ بيده فأخرجه.
قيل لبعض الطفيليين :كم اثنين في اثنين ?قالكأربعة أرغفة.
قال مطرّف بن مازن ،قاضي اليمن : قال لي الرشيد يوماً : من عبد الرزاق ابن همام الصنعاني ? فقلت : رجل من أهل الحديث ، سليم الحديث ثقة. فقال : إن صاحب خبرنا في اليمن كتب يذكر أنه كتب ثقلاء اليمن فكتبني فيهم. قال : ولم كتبك فيهم ? إنك لحسن الحديث خفيف المجلس ، فما أستثقل منك ? قلت : عظم قلنسوتي ، وطول عنقي بغلتي. فضحك هرون ، فما خرجت من عنده حتى أمر لي بكسوة وحملان.
ولطفيلي :

كل يومٍ أدور في عرصة الحي أشم القتـار شـم الـذبـاب
فإذا مـا رأيت نـار عـروسٍ أو ختاناً أو دعوةً لصـحـاب
لم أعرج دون التقحـم لا أرهً ب شتماً ووكـزة الـبـواب
مستخفا بمن دخلت عـلـيهـم غير مسـتـأذنٍ ولا هـياب
فتراني ألف بالرغم مـنـهـم كلَّ ما قدموا كلفِّ العـقـاب
ذاك أهـنـا مـن الـغـــر م وغيظ البقال والقـصـاب

كان يقال : ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم : الذاهب إلى مائدة لم يدع إليها ، والمتآمر على ربّ البيت... وقد ذكرنا الحكاية بتمامها في جامع النوادرمن هذا الكتاب.

باب الشماتة

قال الله عز وجل حاكيا عن موسى عليه السلام : " فلا تشمت بي الأعداء ،ولا تجعلني مع القوم الظالمين " .

وقيل لأيوب عليه السلام : أي شيء من بلائك كان أشد عليك ? شماتة الأعداء.
قال ابن الكلبي : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شمتت به نساء كندة وحضرموت ، وخضبن أيديهن ، وأظهرن السرور لموته ، وضربن بالدفوف ، فقال شاعر منهم :

أبلغ أبا بكـر إذا مـا جـئتـه أن البغايا رمـن شـرَّ مـرام
أظهرن من موت النبي شمـاتة وخضبن أيديهـن بـالـعـنـام
فاقطع هديت أكفهن بـصـارمٍ كالبرق أو مض في متون غمام

قال النبي عليه السلام :" لا تظهر الشماتة لأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك "
من منتقى الدعاء : اللهم اجعل رزقي رغدا ، ولا تشمت بي أحداً.
ومن دعائه صلى الله عليه وسلم : " اللهم إني أعوذ بك من درك الشقاء ، ومن جهد البلاء ، ومن شماتة الأعداء " .
قال عدي بن زيد العبادي :

أيها الشامت المعير بـالـده ر أأنت المرأ الـمـوفـور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام بل أنت جاهـلٌ مـغـرور
من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من ألاَّ يضام خفـير

وقال أبو ذؤيب :

وتجلدي للشـامـتـين أريهـم أني لريب الدهر لا أتضعضع

قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم : سمعت أشهب بن عبد العزيز يدعو على محمد ابن إدريس الشافعي بالموت ، أظنه قال في سجوده ، فذكرت ذلك للشافعي رحمه الله ، فتثمل :

تمنى رجال أن أموت وإن أمـت فتلك سبيلٌ لست فيهـا بـأوحـد
فقل للذي يبغى خلاف الذي مضى تهيأ لأخرى مثلها فـكـأن قـد

قال محمد : فمات الشافعي رحمه الله ، واشترى أشهب من تركته مملوكاً ، ثم مات أشهب بعده بنحو من شهر ، أو قال : خمسة عشر يوماً أو ثمانية عشريوماً ، واشتريت أنا ذلك المملوك من تركة أشهب ، والبيتان الذي تمثل بهماالشافعي لطرفة.
قال مهلهل :

كأن الشامتين بقبـر جـدي على ملك الخورنق والسدير
كأن رماحنا فيـنـا وفـيهـم إذا ما أشرعت أشطان بير

وقال العلاء بن قرظة ، خال الفرزدق :

إذا ما الدهر جرَّ على أناس حوادثه أناخ بـآخـرينـا
فقل للشامتين بنا أفـيقـواً سيلقى الشامتون كما لقينا

وقال نصيب :

أتصر منى عند الألى هم لنا العدا فتشمتهم بي أم تدوم على العهد

وقال عدىّ بن زيد ، وتمثل به معاوية عند موته :

فهل من خالدإما هلكنا وهل بالموت يا للناس عار

عبد الله بن أبي عيينة :

كل المصائب قد تمر على الفتى فتهون غير شماتة الحساد

وقال منصور الفقيه :

يا من يسر بموتي إذا أتاه البشير
إن البشير بموتي فلا تسر نذير
واسمع فما أنت ممن تخفى عليه الأمور
أليس من كان مثلي إلى مصيري يصير

وله :

أيها المظهر الشما تة إن مت قبله
عن قليلٍ يصير مث لي من كنت مثله

وله :

يا شامتين بمصرعي اليوم لي ولكم غد

وله :

يا شامتاً بي إن هلكت لكل حيٍ مدى ووقت
وللمنايا وإن تراخت في السير يا ذا الشمات بغت
وأنت في قبضة الليالي تخاف منها الذي أمنت
والكأس ملأى فعن قريبٍ تشرب منها كما شربت

وقال أيضاً :

ما بين يوم المهنيات وبين يوم المعزيات
وإن توهمته طويلا إلا كما بين ها وهات

ومما ينسب لابن المبارك وليست له وإنما هي للمبارك الطبري :

لولا شماتة أعداء ذوي حسدٍ أو اغتمام صديق كان يرجوني
لما طلبت من الدنيا مراتبها ولا بذلت لها عرضي ولا ديني

وقال آخر :

فمن يك عني سائلا لشماتةٍ بما نالني أو شامتاً غير سائل
فقد أبرزت مني الخطوب ابن حرةٍ صبوراً على ضراء تلك الزلازل
إذا سرّ لم يفرح وليس لنكبةٍ إذا نزلت بالخاشع المتضائل

لأعرابي وقد أغير على إبله :

الا والذي أنا عبد في عبادتـه لولا شماتة أعداء ذوي إحـن
ما سرني أن إبلي في مباركها وأن شيئاً قضاه الله لم يكـن

باب مؤاخاة من ليس على دينك

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المرء على دين خليله ، فلينظر امرؤ من يخالل " . وهذا معناه والله أعلم أن المرء يعتاد ما يراه من أفعال من صحبه ، والدين العادة ، فلهذا أمر ألا يصحب إلا من يرى منه ما يحلّ ويجمل ، فإن الخير عادة. وفي معنى هذا الحديث قول عديّ بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن مـقـتـدي

وقول أبي العتاهية :

من ذا الذي يخفى علـي ك إذا نظرت إلى خدينه

وهذا كثير جداً ، والمعنى في ذلك : ألا يخالط الإنسان من يحمله على غير ما يحمد من الأفعال والمذاهب ، وأما من يومن منه ذلك فلا حرج في صحبته.
قال ابن عباس : لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه مقاله.
قال الله عز وجل : " وإذا حييتم بتحيةٍ فحيوا بأحسن منها أو ردوها " وجاء في التفسير : أحسن منها لأهل الإسلام ، أو ردوها لأهل الذمة.
وقيل لسعيد بن جبير : المجوسي يوليني خيراً فأشكره ? قال : نعم. قيل : فإن سلم علي أفأرد عليه ? قال : نعم.
وأما ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال في أهل الذمة : " لا تبدءوهم بالسلام ،وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه " فقد قال بذلك طائفة من أهل العلم منهم مالك بن أنس رحمه الله. روى بشير بن عمر الزهراني ، عن مالك ، أنه كان يكره السلام على أهل الذمة كلهم. قال بشير : فقلت : أترى أن يبدءوا بالسلام ? قال : معاذ الله أما سمعت قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوَّي وعدوكم أولياء " .
وقال مالك : أكره مؤاكلة أهل الذمة ، لأن المؤاملة توجب المودة.
وقد روي عن جماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم ، أنهم كانوا يبدءون بالسلام كل من لقوه من مسلم أو ذمى. فالمعنى في ذلك ، والله أعلم ، أنه ليس بواجب أن يبدأ المسلم المار القاعد الذميَّ ، والراكب المسلم الذمى الماشي ، كما يجب ذلك بالسنة على من كان على دينه ، فإن فعل فلا حرج عليه. فكأنه قال صلى الله عليه وسلم : " ليس عليكم أن تبدءوهم بالسلام " بديل ما روى الوليد بن مسلم عن عروة بن رويم ، قال : رأيت أبا أمامة الباهلي يسلم على كل من لقي من مسلم وذميّ ، ويقول : هي تحيةٌ لأهل ملتنا ، وأمان لأهل ذمتنا ، واسم من أسماء الله نفشيه بيننا.ومحال أن يخالف أبو أمامة السنة ، لو صحت في ذلك. بل المعنى على تأويلنا والله أعلم ، وعلى هذا يصح تخريج هذه الأخبار ووجوهها.
ذكر ابن أبي شبيب ، عن إسماعيل بن عياش ، عن محمد بن زياد الألهاني ، وشرحبيل بن مسلم ، عن أبي أمامة ، أنه كان لا يمر بمسلمٍ ولا يهودي ولا بصراني إلا بدأه بالسلام.
وروي عن ابن مسعود وأبي الدراء ، وفضاله بن عبيد ، أنهم كانوا يبدءون أهل الذمة بالسلام.
وقال ابن مسعود : إن من التواضع أن تبدأ بالسلام كلَّ من لقيت.
وعن ابن عباس ، أنه كتب إلى رجل من أهل الكتاب : السلام عليك.
وسئل عبد الله بن وهب ، صاحب مالك ، عن غيبة النصراني ، فقال : أو ليس من الناس ? قالوا : بلى. قال : فإن الله عز وجل يقول : " وقولوا للناس حسناً " .
وقيل لمحمد بن كعب القرظي : إن عمر بن عبد العزيز سئل عن ابتداء أهل الذمة بالسلام فقال ترد عليهم ولا تبدؤهم. فقال محمد بن كعب : أما أنا فلا أرى بأساً أن تبدأهم بالسلام ، قيل له : لم ? فقال : لقوله عز وجل : " فاصفح عنهم وقل سلام " .
ومن حجة من ذهب إلى هذا قوله عز وجل : " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين " .
وذهب جماعة من العلماء إلى مثل ما ذهب إليه عمر بن عبد العزيز في ذلك.

وروى ابن المبارك عن شريك عن أبي إسحاق ، قال : كان يقال : من الحمق أن تؤاكل غير أهل دينك.

قال أبو الطمحان الأسدي :

كأن لم يكن بالقصر قصر مقاتل	وزورة ظلٌ ناعـمٌ وصـديق
وإني وإن كانوا نصارى أحبهـم	ويرتاح قلبي نحوهـم ويتـوق

ولبعضهم في مجوسي ساق عنه صداق امرأته ، وهو الأقيشر الأسدي :

شهدت عليك بطيب المشاش	وأنك حرٌ جـوادٌ خـضـم
وأنك سيِّد أهل الـجـحـيم	إذا ما ترديت فيمن ظـلـم
كفاني المجوسي مهر الرباب	فدى للمجوسي خالٌ وعـم

روى إسماعيل بن إسحاق ، قال : سمعت ابن أبي أويس ، يقول : سئل مالك ، أترى بأساً إذا أهدى اليهودي أو النصراني للمسلم أن يكافئه ، فقال : معاذ الله وما للمسلم أن يقبل هديته حتى يكافئه.

وقال آخر :

وجدنا في اليهود رجال صدقٍ	على ما كان من دينٍ يريب
خليلان اكتسبتهـمـا وإنـي	لخلة ماجدٍ أبـداً كـسـوب

للمريمي الشاعر ، وهو القاسم بن يحيى ، من ولد أبي مريم السلمى صاحب النبي عليه السلام ، يخاطب أبا يعقوب إسحاق بن نصر الكاتب العبادي عند إسلام الوليد ابن أخيه ، وكان إسحاق هذا كاتب أبي الجيش بن طولون صاحب مصر :

تعزَّ فإنَّ الحـرَّ لا بـدَّ يخـلـق	وكل امرئ للخير والشرِّ يخلق
وما فـرج الأيام إلا مـواهـبٌ	فمن بين محرومٍ وآخـر يرزق
وما الحزم إلا أن ينزه نفـسـه	فتىً كاد في بحرٍ من الهمِّ يغرق
إذا لم يكن في ردِّ ما فات حـيلة	فإن الفتى بالصبر أحرى وأخلق
أتاني غمٌ من سرورٍ سمـعـتـه	فلا أنا مأسورٌ ولا أنا مطـلـق
سررت بإسـلام الـولـيد ديانةً	وأقلقني علمي بأنك مـقـلـق
فقلبي به شطران جذلان واحـدٌ	وآخر محزونٌ من أجلك محرق

أنار لكم فينا وأشرق كـوكـبٌ	لنا مثله فيكـم ينـير ويشـرق
فكم راعنا من مسلمٍ متنـصـرٍ	فهذا بهذا والسعيد الـمـوفـق

لزيبا النصراني وكان يتشيع :

عديٌّ وتـيم لا أحـاول ذكـركـم	بسوءٍ ولكني محـبٌ لـهـاشـم
وما تعتريني في عليٍّ ورهـطـه	إذا ذكروا في الـلـه لـومة لائم
يقولون ما بال النصارى تحبـهـم	وأهل النهى من أعرب وأعاجـم
فقلت لهم : إني لأحسب حـبـهـم	سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

وله أيضاً :

على أمير المؤمنين خـلـيفةٌ	وما لسواه في الخلافة مطمع
فلو كنت أبغى ملة غير ملتي	لماكنت إلا مسلـمـا أشـيع

باب الولد والوالد

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : من أب يا رسول الله ? قال : " أمك قال : ثم من يا رسول الله ? قال : أمك : ثم من ? قال : أباك ثم أدناك " ومنهم من يرويه : أمك ثلاث مرات ، والأول أثبت.

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أفضل ? فقال : " الصلاة لوقتها وبر الوالدين " .

وقال صلى الله عليه وسلم : " البر والصلة وحسن الجوار ، عمارة الديار وزيادة في الأعمار " .

وقال الحسن : البر أن تطيعهما في كل ما أمراك به ، ما لم تكن معصية الله ،والعقوق هجرانهما ،وأن تحرمهما خيرك.

قال عروة في قوله تعالى : " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " . هو ألا يمنعهما من شيء أراده

قال يزيد بن أبي حبيب : كان العلماء يقولون : حق الأم أعظم من حق الأب ،ولكل حق.

رأى ابن عمر رجلا يطوف بالبيت حاملا أمه ، وهو يقول لها : أترينى جزيتك يا أمه ? فقال ابن عمر : ولا طلقة واحدة ، أو قال : ولا زفرة واحدة.

وروى في الخبر المرفوع : " ما بر أباه من سدّد النظر إليه " .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن يصل أباه بعد موته ، فليصل إخوان أبيه " .

وقال صلى الله عليه وسلم : " الود يتوارث ، والبغض يتوارث " .

وقال عليه السلام : " ثلاثٌ يطفئن نور العبد : أن يقطع ودّ أهل بيته ، ويبدّل سنّة صالحة ، ويرمي بصره في الحجرات " .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل الجنة عاقّ ، ولا منان ، ولا مدمن خمر ، ولا مدمن سحر ، ولا قتات " .

للربيع بن ضبع :

ألا أبلغ بنيِّ بنـي ربـيع	فأشرار البنين لكم فـداء
بأني قد كبرت ورقَّ جلدي	فلا تشغلكم عنيِّ النِّسـاء
إذا كان الشتاء فأدفئونـي	فإن الشيخ يهرمه الشتاء

وأما حين يذهب كل قُـرٍ فسربالٌ خفـيف أو رداء
إذا بلغ الفتى مائتين عامـاً فقد ذهب البشاشة والفتاء

وسئل ابن عباس ، عن رجل قتل امرأته وما توبته ؟ قال : إن كان له أبوان فليبرهما ماداما حيين ، فلعل الله أن يتجاوز عنه. وقد جاء عنه مثل ذلك في المرأة التي تعلمت السحر ثم جاءته تطلب التوبة.

قال مكحول : بر الوالدين كفارة للكبائر.

قال محمد بن المنكدر : بت أغمز رجل أمّي ، وبات عمي يصلي ليلته ، فما تسرني ليلته بليلتي.

قال الشاعر في ابنه :

يود الردى لي من سفاهة رأيه ولو متّ بانت للعدوّ مقاتلـه
إذا ما رآني مقبلاً غضّ طرفه كأن شعاع الشمس دوني يقابله

ومثله :

إذا أبصرتني أعرضت عنّي كأن الشمس من قبلي تدور

ولعبد الله بن بكر السهمي :

خالل خليل أخيك وارع إخاءه وعلم بأن أخا أخيك أخوكـا
وبنيك ثم بني بنيك فكن لهـم براً فإنّ بني بنيك بنـوكـا
والطف بجدك رحمةً وتعطفاً واعلم بأن أبا أبيك أبـوكـا

روي عن ابن عباس أنه قال : إنما ردَّ الله عقوبة سليمان بن داود عن الهدهد لبره كان بأمه.

رأى أبو هريرة رجلا يمشي خلف رجل ، فقال : من هذا ؟ فقال : أبي. قال : لا تدعه باسمه ولا تجلس قبله ، ولا تمش أمامه.مكتوب في كتب الله عز وجل : لا تقطع ما كان أبوك يصله فيطفأ نورك قال كعب : مكتوبٌ في التوراة ، اتق ربك ، وبرّ والديك ، وصل رحمك ، يمدّ لك في عمرك ، وييسِّر لك يسرك ، ويصرف عنك عسرك.

والآثار في بر الوالدين كثيرة جداً ، وقد نص الله في كتابه من خفض الجناح لهما ، والحضّ على برهما ما يكفي.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الولد الصالح من ريحان الجنة " .

ونظر يوماً إلى الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ، فقال : " إنكم لتجبنون وتبخلون ، وإنكم لمن ريحان الجنة " .

دخل عمرو بن العاص على معاوية ، وعنده بنت له ، فقال : ابعدها عنك ياأمير المؤمنين ، فوالله ما علمت إلا أنهن يلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ، ويورثن الضغائن. قال معاوية : لا تقل هذا ياعمر ، فو الله ما مرض المرضى ، ولا ندب الموتى ، ولا أعولّ على الأحزان مثلهن ، ولربّ ابن أخت قد نفع خاله.

قال محمد بن سليمان : البنون نعمٌ ، والبنات حسنات ، والله عز وجل يحاسب على النعم ، ويجازي على الحسنات.

قال منصور الفقيه :

لولا بناتـي وسـيّآتـي لذبت شوقاً إلى الملمات
لأنني في جـوار قـومٍ نغّصني قربهم حياتـي

وله أيضاً :

أحبّ البنات ،فحبّ البـنـات فرضٌ على كلّ نفسٍ كريمه
لأن شعيباً لأجل الـبـنـات أخدمه الله موسى كـلـيمـه

وقال آخر :

لقد زاد الحياة إلـيّ حـبّـاً بناتي إنّهن من الضعـاف
مخافة أن ين البؤس بعـدي وأن يشربن رنقاً بعد صاف

ولأبي محمد الحسن بن عبيدة الريحاني :

حبـذا مـن نـعـمـة الـلـ ه البنـات الـصـالـحـات
هن لـلـنـسـل ولـلأ نس وهـن الـشـجــرات
وبإحسانٍ إليهنّ تكون البركات
إنّما الأهلون أرضو ن لـنـا مـحـتـرثـات
فـعـلـينـا الـزرع فـيهـا وعـلـى الـلـه الـنّـبـات

كان لأبي حمزة الأعرابيّ زوجتان فولدت إحداهما ابنة ،فعزّ عليه ،واجتنبها وصار في بيت ضرتها إلى جنبها فأحست به يوماً في بيت صاحبتها ،فجعلت ترقّص ابنتها الطفلة وتقول :

ما لأبي حمزة لا يأتـينـا يظلّ في البيت الذي يلينا
غضبان ألاّ نلد البـنـينـا تا الله ما ذلك في أيدينـا
بل نحن كالأرض لزارعينا يلبث ما قد زرعوه فينـا
وإنما نأخذ ما أعطـينـا

فعرف أبو حمزة قبح ما فعل ، وراجع امراته.

قال منصور الفقيه :

لولا البنات والذنوب لم أكـن يروعني ذكر الحنوط والكفن

وقال آخر :

لولا أميمة لم أجزع مـن الـعـدم ولم أجب في الليالي حندس الظّلم
وزادني رغبةً في العيش معرفتي ذل اليتيمة يجفوها ذوو الـرّحـم
أحاذر الفقر أن يلمم بساحـتـهـا فيهتك الستر من لحمٍ على وضـم
أخشى إضاعة عمٍ أو جـفـاء أخٍ وكنت أحنو عليها من أذى الكلـم
ما أنس لا أنس منها إذ تودّعـنـي والدمع يجري على الخدّين ذا سجم
لا تبرحن فإن متـنـا فـإنّ لـنـا ربّاً تكفل بـالأرزاق والـقـسـم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقـاً والموت أكرم نزال على الحـرم

وقال آخر :

أحب بنـيّتـي ووددت أنّـي سترت بنّيتي في قعر لحـد
وما إن ذاك من بغض ولكن مخافة أن تذوق البؤس

بعدي

رأى ابن عباس رجلا ومعه ابنٌ له ، فقال : أما إنّه لو عاش فتنك ، ولو مات أحزنك.
قال محمد بن عليٌّ بن حسن لابنه جعفر : يابنيّ! إن الله رضيني لك وحذّرني منك ، ولم يرضك لي فأوصاك بي ، يا بنيّ! إن خير الأبناء من لم يدعه البر إلى الإفراط ،ولم يدعه التقصير إلى العقوق.
كان يقال : الولد ريحانتك سبعاً ، وخادمك سبعاً ، وهو بعد ذلك صديقك أو عدوّك أو شريكك.
سأل معاوية بن أبي سفيان الأحنف بن قيس عن الولد ،فقال : يا أميرالمؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول عند كل جليلة ، فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ، يمنحوك ودهم ، ويحبّوك جهدهم ، ولا تكن عليهم قفلا فيتمنّوا موتك ويكرهوا قربك ويملوا حياتك. فقال له معاوية : لله أنت !لقد دخلت عليّ وإني لمملوء غيظا على يزيد ولقد أصلحت من قلبي له ما كان فسد. فلما خرج الأحنف من عند معاوية بعث معاوية إلى يزيد بمائتي ألف درهم ، فبعث يزيد إلى الأحنف بنصفها.
قال عليّ بن أبي طالب :ينبغي لأحدكم أن يتخيّر لولده إذا ولد الاسم الحسن.
وفي الخبر المرفوع : من نعمة الله عز وجل على الرجل أن يشبهه ولده.
قال عمر بن الخطاب : عجّلوا بكني أولادكم لا تسرع إليهم الألقاب السّود.
قال أبو جعفر محمد بن علي : بادروا بالكني قبل الألقاب.
قال : وإنا لنكني أولادنا في الصغر مخافة اللقب أن يلحق بهم.
قال قتادة : رب جاريةً خير من غلام ، ورب غلام قد هلك أهله على يديه.
روى عن النبي صلى عليه وسلم ،أنه قال : " ما نحل والد ولده خيراً من أدب حسن " .
وروى عنه صلى الله عليه وسلم ،أنه قال : " من عال ثلاث بنات ، أو ثلاث أخوات أو ابنتين أو أختين كنّ له حجاباً من النار ، فإن صبر عليهن حتى يزوّجهن دخل الجنة.
كان يقال : من بلغت ابنته النكاح فلم يزوجها فزنت فعليه مثل إثمها ، وإثمها عليه

وكما لا يصبحّ الجسد بلا رأس لا تصلح المرأة بغير زوج.

كان عقيل بن علّفة غيوراً ،فحمل يوماً ابنةً له وأنشأ يقول :

إنّي وإن سيق إليّ المهر ألفٌ وعبدان وذودٌ عشر

أحبّ أصهاري إليّ القبر قال عبد العزيز بن مروان لسعيد بن العاص :كيف حبّك لبناتك ?قال :إني لأحبهن ،على أنهن يلدن الأعداء ويقربن البعداء ،وهن عددٌ ولسن بولد.
كتب عمر بن الخطاب إلى أهل الأمصار :علّموا أولادكم العوم والفروسيّة ،ورووهم ما سار ،من المثل ، وما حسن من الشعر.
كان يقال : من تمام ما يجب للأبناء على الآباء ، تعليم الكتابة والسباحة.
قال الحجّاج لمعلّم ولده :علّم ولدي السباحة قبل أن تعلمهم الكتابة ، فإنهم يجدون من يكتب عنهم ، ولا يجدون من يسبح عنهم.
قال الشاعر :

خير ما ورّث الرجال بنيهم — أدبٌ صالح وحسن الثناء
ذاك خيرٌ من الدنانير والأو — راق يوم شدةٍ أو رخاء

وهي أبيات كثيرة قد ذكرناها وذكرنا الاختلاف في قائلها في باب التعليم في الصغر ،من كتاب العلم.وفي ذلك الباب كثير من معاني هذا الباب ،والله الموفق للصواب.
قال أعرابي ،وهو حطّان بن المعلي :

أبكاني الدهر ويا ربّما — أضحكني الدّهر بما يرضي
أنزلني الدّهر على حكمه — من شاهق عالٍ إلى خفض
وابتزّني الدهر ثياب الغني — فليس لي ثوبٌ سوى عرضي
لولا بنيّات كزغب القطا — ينهضن من بعض إلى بعض
إن هبّت الريح على بعضهم — لم تطعم العين من الغمض
لكان لي مضطربٌ واسعٌ — في الأرض ذات الطول والعرض
وإنّما أولادنا بيننا — أكبادنا تمشى على الأرض

كان الزبير بن العوام يرقص ابنه عروة ويقول :

أبيض من آل أبي عتيق — مباركٌ من ولد الصّديق
ألذّه كما ألذّ ريقي

قالوا :من كان له صبّي فليستصب له.
كانت أعرابية ترقّص ابنها ،أو بعض الأعراب يرقص ابنه ويقول :

أحبّه حبّ شحيحٍ ماله — قد ذاق طعم الفقر ثم ناله
إذا أراد بذله بداله

قال محمد بن يحيى النديم :أول شعر قاله عليّ بن الجهم وهو غلام في المكتب ،وذلك أن أباه أمر المؤدّب أن يجلسه يوم الخميس عنده في المكتب حتى يحفظ حزبه ،فحبسه فكتب إلى أمه :

أمّي جعلت فداك من أمّ — أشكو إليك فظاظة الجهم
قد سرّح الصبيان كلّهم — وحسبت بالعدوان والظّلم

قال الزيادي :كنت رجلا مئناثاً ،فقيل لي :أكثر من الاستغفار وقت الجماع ،واستغفر الله عند الجماع ،ففعلت فولد لي بضعة عشر ولداً ذكراً.
قال الشاعر :

وما كل مئناث سيشقى ببنته — وما كلّ مذكار بنوه سرور

ومن هذا المعنى ذكرٌ في باب النساء.
قال أبو العلاء محمد بن أحمد بن جعفر الوكيعي :ما سمعت بكار بن قتيبة القلضي قط ينشد بيت شعر إلاّ مرة ،كنت عنده وأختصم إليه رجل وابنه ،فكان من كل واحد منهما إلى صاحبه ما لم يحمد بكار ،فالتفت إليهما وأنا أسمع.
فقال :

تعاطتيما ثوب العقوق كلا كما	أب غير بر وابنه غير واصل

كان لعبد الملك بن مروان بيت ملٍ كان قد حجزه من خالص غلاته وضياعه ،لا يدخله شئ من الغلول ،يعدّه للتزويج وشراء الجواري اللواتي يطلب أولادهن ،وكان يقول :إنّ الغلول يبقى في الولد.
قال أعرابي لأبيه وهو عمر بن ذّر الهمداني يعاتبه :يا أبت!إن عظيم حقك عليّ لا يذهب صغير حقيّ عليك ،والذي تمتّ به إليّ أمت بمثله إليك ،ولست أزعم أنا سواء ولكني أقول لا يحل الاعتداء.
قيل لأعرابي ،وكان له ابن عاقّ :كيف ابنك ?قال :عذابٌ أزغف عليّ به الدهر ،فليتني قد أودعته القبر ،فإنه بلاء لا يقاومه الصبر ،وفائدة لا يلزم عليها الشكر.
دخل إلى جعفر بن القاسم بن جعفر بن سليمان الهاشمي أعرابي ،فسأله جعفر عن بنيه فقال :

إنّ بنّي خيرهم كالكـلـب	أبرّهم أولعهم بـسـبّـي
لم يغن عنهم أدبي وضربي	فليتني كنت عقيم الصّلب

ولبعض العقلاء البررة الأدباء :

بنفسي أنت لا بأبي فإني	رأيت الجود بالآباء لؤما

كان يقال :من فوائد الدهر موت الابن العاقّ.
قال أمية بن أبي الصلت ،وهو قد عتب على ابنه :

غذوتك مولوداً وغلتك يافـعـا	تعلّ بما أسعى عليك وتنهـل
إذا ليلةٌ جاءتك بالشكو لم أكـن	بشكواك إلاّ ساهراً أتملـتـل
كأني أنا المطروق دونك بالذي	طرقت به دوني عيني تهمـل
تخاف الرّدى نفسي عليك وإنها	لتعلم أن الموت وقتٌ مؤجـل
فلما بلغت السنّ والغاية التـي	إليها مدى ما كنت قبل أؤمـل
جعلت جزائي غلظةً وفظاظةً	كأنك أنت المنعم المتفـضـل
فليتك إذ لم ترع حقّ أبـوّتـي	كما يفعل الجار المجاور تفعل

ورضى أبو الشغب العبسي عن أبنه فقال :

رأيت رباطا حين تـمّ شـبـابـه	وولىّ شبابي ليس في برّه عتـب
إذا كان أولاد الـرجـال حـزازةً	فأنت الحلال الحلو والبارد العذب
لنا جانبٌ منه دمـيثٌ	إذا رامه الأعداء ممتنعٌ

وجـانـب	صـعـب
يخبرني عمـا سـألـت بـهـيّنٍ	من القول لا جافي الكلام ولا لغب

وقال آخر :

فلو كنتم لكيّسة أكاست	وكيس الأمّ أكيس البنينا

باب الأقارب والموالى

قال رجلٌ لرسو ل اللّه صلى اللّه عليه وسلم. " يا رسول اللّه إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ. فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : " لا يزال معك من اللّه ظهيرٌ ما كنت على ذالك " .

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : " ما من ذنبٍ أجدر بأن تجّعل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم " .

ويروي عنه صلى اللّه عليه وسلم : " حقّ كبير الإخوة على صغيرهم كحقّ الوالد على ولده " .

وقال أبو الدرداء :مكتوب في التوراة : إن أحسد الناس لعالمٍ وأبغاهم عليه ، قرابته وجيرانه " .

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : " مولى القوم منهم " .

قال ابن عباس : قد تقطع الرحمّ ، وقد تكفر النعمى ، ولا شئ كتقارب القلوب. وفي رواية أخرى عنه ، تكفر النعمة ، والرحم تقطع ، واللّه يؤلف بين القلوب ، وإذا قارب بين القلوب لم يزحزها شئٌ أبداً ، ثم تلا : " لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ اللّه ألّف بينهم " .

كان يقال : لا تؤدى حقّ الرحم إلا بأن تصل من أدلى بها إذا قطعك ، وتعطيه إذا حرمك.

قال الشاعر :

وجدت قريب الودّ خيراً وإن نـأى	من الأبعد بعدّ الود القريب المناسب
ورب أخ لـم يدنـه مـنـك ولـدٌ	أبرٌ من ابن الأم عـن الـنـوائب
ورب بعيد حاضرٍ لـك نـفـعـه	وربّ قريبٍ شاهدٍ مـثـل غـائب

ولمنصور الفقيه :

مناسبـك الأدنـى أشـدّ عـداوةً	وكفراً لما أوليته من عـداتـكـا
يقول الذي بيني وبينك مـوجـبٌ	عليك لعمري أثرتي بحـيـاتـكـا
وما خير من يمسي ويصبح	على اللّه في تأخيره

ساخطا	لممـاتـكـا

وقال آخر :

أشدّ عداوةً وأفلّ نـفـعـاً	من الرجل البعيد الأقربونا

وقال آخر :

ولا خير في قربي لغيرك نفعها	ولا في صديق لا تزال تعاتبـه
يخونك ذو القربى مراراً وربمّـا	وفي لك عند الجهد من لا تناسبه

قالت الأعرابي :ابن عمك عدوك وعدو عدوك.

قال الفضل بن العباس اللهبي في بني امية :

مهلا بني عمنا عن نحت أثلتنـا	سيروا قليلاً كما كنتم تسيرونـا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكـم	وأن نكفّ الأذى عنكم وتؤذونـا
مهلا بني عمنا مهلاً مواليـنـا	لاتنشروا بيننا ما كان مدفـونـا
اللّه يعلـم أنّـا لا نـحـبـكـم	ولا نلومكـم ألا تـحـبـونـا
كل يداجى على البغضاء صاحبه	بنعمة اللّه نقليكم وتـقـلـونـا

قال مضرّس بن لقيط الفقعسى :

فقدت موالى الذين كـأنـهـم	دماميل في وجهى على تنخس

ولما قتل الحسين بن علىّ ، قالت بنت عقيل بن أبي طالب :

ماذا تقول إن قال الـنـبـي لـكـم	ماذا فعلتم وأنـتـم آخـر الأمـم
بعترتي وبأهلى عند منطـلـقـى	منهم أسارى وقتلى ضرجوا بـدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم	أن تخلفوني بسوءٍ في ذوي رحمى

لسويد الحارثي أو غيره :

بني عمنا لا تذكروا الشّعر بعـدمـا	دفنتم بصحراء الغميم الـقـوافـيا
فلسنا كما كنتم تصيبـون مـثـلـه	فيقبل عقلاً أو يحـكـم قـاضـيا
ولكن حكم السيف فيكم مـسـلـطٌ	فنرضى إذا ما السيف أصبح راضيا

فإن قلتم إنا ظـلـمـنـا فـإنـكـم ... بدائم ولكنا أسـأنـا الـتّـقـاضـيا

وقال الأضبط بن قريع :

فصل حبال البعيد إن وصل ال ... حبل وأوقص لبقريب إن قطعه

قال قيس بن زهير :

شفيت النفس من حمل بن بدرٍ ... وسيفي من حذيفة قد شفاني

قتلت إخوتي سادات قومـي ... وقد كانوا لنا حلى الزمـان

فإن أك قد شفيت بهم غليلـي ... فلم أقطع بهم إلا بـنـاتـي

قال ذو الإصبع العدواني :

ولى ابن عمّ على ما كان من خلقٍ ... مخالف لى أقلـيه ويقـلـنـي

أزرى بنا أننا شالت نعـامـتـنـا ... فخالني دونه بل خلـتـه دونـي

الله يعلمني واللـه يعـلـمـكـم ... والله يجزيكم عنـي ويجـزينـي

ماذا عليّ وإن كنتـم ذوي رحـمٍ ... ألا أحبكم إذ لـم تـحـبـؤنـي

قال الأعشى :

وإنّ القريب من يقرّب نفسه ... لعمر أبيك الخير لا من تنسّبا

وقال آخر :

وإنّي للبّاس على المقت والقلـى ... بني العمّ منهم كاشحٌ وحـسـود

أذبّ وأرمي بالحصى من ورائهم ... وأبدأ بالنعمـى لـهـم وأعـود

قال ابن العميد :

آخ الرجـال مـن الأبـا ... عد والأقارب لا تقارب

إن الأقارب كالـعـقـا ... رب أو أشدّ من العقارب

كان عبد الله بن العباس صديقاً لعمر بن عبد الرحمن بن عوف فليقه يوماً مغتاظاً.فقال له : مالك ؟ قال : لقيني فلان-لرجل من أهله-فشتمني وآذاني.
فقال له : هوّن عليك فما من ضارٍ على طريدةٍ بأسرع إليها من ابن عم

دنِّي إلىابن عمسرىّ ، فهوّن عليك.
من شعر طرفة ، ويروي في شعر عدي بن زيد :

وظلم ذوي القربى أشدّ مضـاضةً على المرء من وقع الحسام المهنّد

وقال أبو فراس الحمداني :

وهل أنا مسرور بقرب أقاربي إذا كان لي منهم قلوب الأباعد

قال العتابي : عشيرتك من أحسن عشرتك ، وابن عمك من عمك خيره ،وقرابتك من قرب منك نفعه ، وأحب الناس إليك أخفّهم ثقلا عليك.
وقال :

إني بلوت الناس في أحوالـهـم وخبرت ما وصفوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تقرب قاطـعـاً وإذا المودة أقرب الأنـسـاب

وقال آخر :

كم من أخ لك لم يلده أبوكا وأخٍ أبوه أبوك قد يجفوكا

وهذا مأخوذ والله أعلم من قول أكثم بن صيفيٍ : رب أخ لم تجمعه معك ولادة.
قال آخر :

قومي هم قتلوا أمـيم أخـيٍ فإذا رميت أصابني سهمـي
فلئن عفوت لأعفون جـلـلاً ولئن سطوت لأوهنن عظمي

وقال أبو الأسود الدؤلي :

إذا المرء ذو القربى وذو الود أجحفت به سنةٌ حلت مصيبـتـه حـقـدي

قال آخر :

سآخذ منكم آل حـزن لـحـوشـبٍ وإن كان مولائي وكنتمبنـي أبـي
فإن كنت لا أرمى وترمى عشيرتي نصب جائحات النبل كشجى ومنكبي

وقال آخر :

فلم أر عز المرء إلا عشـيرة ولم أر ذلاًّ مثل نأيٍ عن الأهل

وقال آخر :

أخاف كلاب الأبعدين ونبحها إذا لم تجاوبها كلاب الأقارب

وقال المقنع الكندي ، واسمه محمد بن عمير بن أبي شمر الكندي ، وكان من أجمل أهل زمانه وأحسنهم وجها ،وأتمهم قامة ، فكان إذا كشف وجهه يؤذى ،فكان يتقنع دهره ، فسمي لذلك : المقنع. وشعره هذا من أحسن ما قيل في معناه جزالة ونقاوة وسباطة وحلاوة :

يعاتني في الدين قـومـي وإنـمـا ديوني في أشياء تكسبهـم حـمـدا
أسد به ما قد أخـلـوا حقوق ثغورٍ ما أطاقوا لهـا

وضـيعـوا ... سـداّ

ولي جفنةٌ لا يغلق البـاب دونـهـا ... مكللةٌ لـحـمـاً مـدفـقـةٌ ثـردا

ولي فرسٌ نهدٌ عتيقٌ جـعـلـتـه ... حجاباً لبيتي ثم أحدمـتـه عـبـدا

وإن الذي بيني وبـين بـنـي أبـي ... وبين بني عمي لمخـتـلـفٌ جـداً

إذا أكلوا لحمي وفرت لحـومـهـم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجـداً

وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهـم ... وإن هم هووا غيَّيٍ هويت لهم رشداً

وليسوا إلى نصري سراعاً وإن هـم ... دعوني إلى نصرٍ أتـيتـهـم شـدا

وإن زجروا طيري بنحس يمر بـي ... زجرت لهم طيراً يمر بهم سـعـدا

ولا أحمل الحقد القـديم عـلـيهـم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

لهم جل مالي أن تتابع لـي غـنـى ... وإن قلت مالي لم أكلفـهـم رفـدا

وإني لعبد الضـيف مـادام نـازلا ... وما شيمةٌ لي غيرها تشبه العـبـدا

وقال طرفة :

وأعلم علماً ليس بالظن أنـه ... إذا ذل مولى المرء فهو ذليل

وقال عوف التميمي :

ولست لقومي بـعـيابةٍ ... وشر العشيرة من عابها

أعف وابذل مالي لهـا ... ولا أتعلم ألـقـابـهـا

وقال أبو الطمحان القيني :

إذا كان في صدر ابن عمك إحنةٌ ... فلا تستثرها سوف يبدو دفينهـا

قال آخر :

أخاك أخاك إن من لا أخا لـه ... كساع إلى الهيجا بغير سـلاح

وان ابن عم المرء فاعلم جناحه ... وهل ينهض البازي بغير جناح

قال الثقفي :

من كان ذا عضد يدركظلامته ... إن الذليل الذي ليست له عضد

تنبو يداه إذا ما قلَّ نـاصـره	ويأنف الضيم إن أثرى له عدد

وقال أشجع السلمى :

نسيبك من أمسى يناجيك طرفه	وليس لمن تحت التراب نسيب

وقال محمد بن أبي حازم الباهلي :

رب غريبٍ ناصح الجيب	وابن أبٍ متهم الـغـيب
ورب عيابٍ له منـظـرٌ	مشتمل الثوب على العيب

قال محمد بن أبان اللاحقي يخاطب أخاه إسماعيل :

تلوم على القطيعة من أتاها	وأنت سننتها للناس قبلـي

واللاحقي هو القائل :

إخفض الصوت إن نطقت بليلٍ	والتفت بالنهار قبل الـكـلام

وفي معنى قول اللاحقي في البيت الأول قول الهذلي :

فلا تفزعن من سيرة أنت سرتها	فأول راضٍ سنةً من يسيرهـا

باب المملوك والمالك

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يدخل الجنة سيء المملكة " .
كان يقال : التسلط على المملوك دناءة.
وقال بعض الحكماء : اذكر عند قدرتك وغضبك قدرة الله عليك ، وعند حكمك حكم الله فيك.
كان يقال : أنعم الناس عيشاً من حسن عيش غيره في عيشه.
كان يقال : اللإحسان إلى الخادم يشجي العدو ، ويذهب البؤس ، والكسوة تظهر الغنى.
قال عمر بن الخطاب : أكثروا شراء الرقيق ، فرب عبد يكون أكثر رزقاً من سيده.
اشترى عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي عبد بني الحسحاس واسمه سحيمٌ ، وكان حبشياً سمحاً شاعراً ، وكتب إلى عثمان بن عفان : إني قد اشتريت لك غلاماً حبشياً شاعراً فكتب إليه عثمان : لا حاجة لي به ، فإنما حظ أهل العبد الشاعر إذا شبع أن يشبِب بنسائهم ، وإذا جاع أن يهجوهم.
قال لقمان لابنه : يا بني إياك وخدمة العين. قال : وما خدمة العين ؟ قال : ألا يكون لك عبد لا يخدمك إلا حيث يراك.
باع أعرابي غلاماً له من قوم من أهل البصرة ، فجعلوه سقاءً على ظهر بعير لهم ،فلبث الأعرابي حيناً ثم لقيه فسأله عن حاله ? فقال : أنا في سفر لا ينقضي ، وغديرٍ لا ينزح ، وقوم لا يروون.
قال بعض الحكماء : أفضل المماليك الصغار ، لأنهم أحسن طاعة ، وأقل خلافاً ،وأسرع قبولا.
كان يقال : استخدم الصغير حتى يكبر ، والأعجمي حتى يفصح.
روى سفيان بن عيينة ، عن سليمان الأحول ، عن ابن معبد ، عن ابن عباس ،قال : من حلف على ملك يمينه أن يضربه فكفارته تركه ، ومع الكفارة حسنة.
قال أبو الفتح :

بطرتم فطرتم والعصا زجر من عصا	وتقويم عبد الهون بـالـهـون رادع

وقالآخر :

إذا لم يكن في منزل المرء حرةٌ	رأى خللاً فيما تـدير الـولائد

فلا يتخذ منهن حـرٌ قـعـيدةً فهن لعمر الله بئس القـعـائد

قال آخر :

العبد يزجر بالعصـا والحر تكفيه الملامة

وقال آخر :

العبد يقرع بالعصـا والحر تكفيه الإشارة

أخذه من قول مالك بن الريب :

العبد يقرع بالعصـا والحر يكفيه الوعيد

وقال بشار :

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحف مثل الردِّ

كان يقال الحر حرٌ وإن مسه الضر ، والعبد عبد ولو مشى على الدر أخذه الشاعر فقال :

وإن الحر في الحالات حرٌ وإن الذل يقرن بالعـبـيد

وقال يزيد المهلبي :

إن العبيد إذا أذللتهم صـلـحـوا على الهوان عن أكرمتهم فسدوا

قال المتنبي :

لا تشتري العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاسٌ مـنـاكـيد

وقال آخر :

إذا برم المولى بخدمة عبـده تجنى له ذنباً وإن لم يكن ذنب

باب الذكر والثناء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم " ? قالوا :بم ذا يا رسول الله ? قال : " بالثناء الحسن والثناء السيء ، أنتم شهداء الله في الأرض ، بعضكم على بعض " .

قال عبد الله بن مسعود : عنوانصحيفة الميت ثناء الناس عليه.

وروى ذلك عن ابن عمر أيضاً.

قال كعب الأحبار : إذا أحببتم أن تعملوا ما للعبد عند ربه فانظروا ما يتبعه من حسن ثناء.

قال مطرف بن الشخير : عنوان كرامة الله لعبده حسن الثناء عليه ، وعنوان هوانه سوء الثناء عليه.

قال بعض الحكماء : الناس أحاديث ، فإن استطعت أن تكون أحسنهم حديثاً فافعل.

ومن ها هنا والله أعلم أخذ ابن دريد قوله :

وإنما المرء حديثٌ بـعـده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

قال آخر :

أرى الناس أحدوثةً فكوني حديثاً حسن

قال آخر :

وكل جديد يا أميم إلى الـبـلـى وكل امرئٍ يوماً يصير إلى كان

وقد مضى قوله حاتم الطائي : أخاف مذمات الأحاديث من بعدي مات ابن لحبيب بن الملهب ، فقدم أخاه يزيد ليصلي عليه ، فقيل له : أتقدمه وأنت أسن منه ? قال : إن أخي قد شرفه الناس وشاع له

فيهم الصيت ، ورمته العرب بأبصارها ، فكرهت أن أضع منه ما رفع الله.
قال رجل من غنىّ :

فإذا بلغتم أهلكم فتحـدثـوا ومن الحديث مهالكٌ وخلود

قال آخر :

فأثنوا علينا لا أباً لأبـيكـم بإحساننا إن الثناء هو الخلد

قال الأسدي :

فإني أحب الخلد لو أستطـيعـه وكالخلد عندي أن أموت ولم ألم

كان أبو عمرو بن العلاء يتمثل :

وسيبقى الحديث بعدك فانظر خير أحدوثة تكون فكنهـا

قال داود بن جهور ، وتنسب إلى منصور ، وليست له وقد رويناها لداود ،والله أعلم :

إذا أعجبتك طبـاع امـرئٍ فكنه يكن منك ما يعجبـك
فليس على الجود المكرماتِ حجابٌ إذا جئته يحجـبـك

قال آخر :

ذكر الفتى عمره الباقي وحاجته ما قاته وفضول العيش أشغال

قال التهامي :

بينا يرى الإنسان فيها مخبراً حتى يرى خبراً من الأخبار

باب البكاء على ما مضى من الأزمان
والتلهف على صالح الإخوان، والحنين إلى الأوطان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر : " فكيف بك يا عبد الله إذا بقيت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وخفت أمانتهم " ? قيل لبعض الحكماء : بأي شيء يعرف وفاء الرجل دون تجربة واختبار ? قال : بحنينه إلى أوطانه ، وتلهفه على ما مضى من زمانه.
روى أبو العلاء زكريا بن يحيى بن خلاد ، عن الأصمعي ، قال : قال أعرابي : إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ودوام عهده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه ، وبكائه على ما مضى من أزمانه.
روى عروة عن عائشة : أنها تمثلت بقول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهـم وبقيت في خلفٍ كجلد الأجرب
يتـحـدثـون مـلالة وخـيانةً ويعاب قائلهم وإن لم يشغـب

ثم قالت : كيف لو أدرك لبيد زماننا هذا ? قال عروة : كيف لو أدركت عائشة زماننا هذا ?.
بلغ ابن عباس قول عائشة : رحم الله لبيداً ، لو أدرك زماننا هذا ? فقال ابن عباس : رحم الله لبيداً ورحم عائشة ، لقد أصبت باليمين سهما في خزائن عاد ، كأطول ما يكون من رماحكم هذه ، مريشٌ مفوق مكتوب عليه :

فهل لي إلى أجبال هند بذي اللوى لوى الرمل من قبل الممات معاد
بلاد بها كنّا ونحـن نـحـبـهـا إذ الناس ناسٌ والـبـلاد بـلاد

قال أبو العتاهية :

لله أزمنة عهدت رجـالـهـا في النائبات وإنهم لـكـرام
ماذا أقول لوافد الزمن الـذي هلك الأرامل فـيه والأيتـام
زمن هوت أعلامه وتقطعت فرقاً فليس لأهـلـه أعـلام
زمن مكاسب أهله مدخـولةٌ جداً فروع أصولـه الآثـام
زمن تحامى المكرمات سراته حتى كأن المكرمات حـرام

روينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دخلت عليه عجوز وهو في بيت عائشة ، فأكرمها وقربها ووصلها ، فقالت له عائشة : من هذه العجوز ؟ فقال : " كانت تأتينا وتزورنا أيام خديجة ، وحفظ العهد من الإيمان " .

وقال آخر :

ذهب الزمان برهط حسان الألى كانت مناقبهم حديث الـغـابـر
وبقيت في خلف تحلّ ضيوفهـم منهم بمنزلة الـلـئيم الـغـادر
سود الوجوه لئيمةٌ أحسـابـهـم فطس الأنوف من الطرز الآخر

وقال آخر :

مضى الذين إذا ما جئت أسألـهـم قالوا برحبٍ : على العينين والرّاس
وقد بقيت بـأوغـادٍ أكـابـرهـم ليسوا بناسٍ بلى أشباه نـسـنـاس

وقال عتيبة الأعور :

ذهب الذين أحبهـم وبقيت فيمن لا أحبه
إذ لا يزال كريم قو مٍ فيهم كلبٌ يسبّـه

وقال الحارث بن الوليد :

ذهب الذين إذا رأوني مقـبـلا هشوا وقالوا مرحباً بالمقـبـل
وبقيت في خلف كأنّ حديثـهـم ولغ الكلاب تهارشت في منهل

وقال الأحوص :

ذهب الذين أحبهم سلـفـا وبقيت كالمفقود في خلف
من كلّ مطويّ على حنق متصنعٍ يكفي ولا يكفـي

وقال بشار :

فسد الزمان وساد فيه الـمـقـرف وجرى مع الطّرف الحمار الموكف

كان سفيان الثوري يقول : ذهب الناس فلا مرتع ولا مفرع ولعبد اللّه بن المبارك الفقيه ، وتروى لغيره :

ذهب الرجال المتقدى بفعالهم — والمنكرون لكلّ أمرٍ منكر
وبقيت في خلف يزين بعضهم — بعضاً ليأخذ معورٌ من معور
ركبوا ثنيات الطريق فأصبحوا — متنكبين عن الطريق الأكبر
ما أقرب الأشياء حين يسوقها — قدرٌ وأبعدها إذا لم يقدر
العلم زين للرجال مروءةٌ — والعلم أنفع من كنوز الجوهر
أأخي إن من الرجال بهيمةً — في صورة الرجل السميع المبصر
فطن لكلّ مصيبة في ماله — وإذا يصاب بدينه لم يشعر

ولأبي حفص عمرو بن عليّ بن بحر الفلاس ، وكان أحد أئمة أهل الحديث الحفاظ الجلية :

ألا ذهب التّكرم والوفاء — وباد رجاله وبقى الغثاء
وأسلمني الزمان إلى رجالٍ — كأمثال الذئاب لهم عواء
صديق كلما استغنيت عنهم — وأعداء إذا نزل البلاء

وقال منصور الفقيه :

يا زماناً أورث الأح — رار دلاّ ومهانه
لست عندي بزمانٍ — إنما أنت زمانه
كيف نرجو منك خيراً — والعلا فيك مهانه
أجنوناً ما نراه — منك يبدو أم مجانه

وقال آخر :

كنا نعيّر من يأتي بفاحشةٍ — والناس يرعون حقّ الدين والحسب
فالناس قد تركوا التعيير كلهم — لما استوى النّاس في الفحشاء والكذب

وقال آخر :

ذهب الوفاء ذهاب أمس الذّاهب — فالناس بين مجاملٍ وموارب

وقال آخر :

ذهب التكرم والوفاء من الورى — وتقّرضا إلاّ من الأشمار

وفشت خيانات الثقات وغيرهم	حتى اتّهمنا رؤية الأبـصـار

ولعبد الله بن عبد العزيز بن ثعلبة اليعقوبي الشّذني :

مضى دهر السّماح فلا سماح	ولا يرجى لدي أحـدٍ فـلاح
رأيت الناس قد مسخوا كلابـا	فليس لديهـم إلاّ الـنّـبـاح
وأضحى الظّرف عندهم قبيحا	ولا والله إنّهـم الـقـبـاح
سلام أهل إبليس عـلـيكـم	فإن البين أوشكلـه الـرّواح
نروح فنستريح اليوم منـكـم	ومن أمثالكم قـد يسـتـراح
إذا ما الحرّ هان بأرض قـوم	فليس عليه في هرب جنـاح

وقال آخر : ?مضى الجود والإحسان واجتثّ أصله=وأخمد نيران النّدى والمكارم

وصرت إلى ضرب من الناس آخر	يرون العلا والمجد جمع الدّراهم
كأنهم كانوا جمـيعـاً تـعـاقـدوا	على اللؤم والإمساك في صلب آدم

كان بلال لما قدم المدينة ينشد تشوقا إلى المكة ، ويرفع عقيرته : ?ألا ليت شعرى هل أبيتّن ليلةً=بوادٍ وحولى إذخر وجليل

وهل أردن يوماً مياه مجـنّةٍ	وهل يبدون لى شامةٌ وطفيل

ولا بن ميادة واسمه الرّمّاح : ?ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلةً=بحرة ليلى حيث ربيّننى أهلى

بلادٌ بها نيطت على تـمـائمـي	وقطعن عني حين أدركني عقلي

وقال آخر : ?أحبّ بلاد اللّه ما بين منعجٍ=إلى وسلمى أن يصوب سحابها

بلادٌ بها عقّ الشباب تمائمـي	وأول أرض مسّ جلدي ترابها

وقال آخر : ?أحنّ إلى دهرٍ مضى بغضارةٍ=إذا العيش رطبٌ والزمان مواتي

وأبكى زماناً صالحاً قد فقـدتـه	يقطع قلبي ذكـره حـسـرات
تمطّى علينا الدّهر في متن قوسه	ففرقنا منه بـنـبـل شـتـات

وقال متمم بن نويرة :

??وكنا كندماني جذيمة حقبةً=من الدّهر حتى قبل لن يتصدعا

فلما تفرّقنا كأني ومـالـكـا	لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وقال آخر :

خمـسـون عـامـاً تـولـت مـن	عسـرٌ ويسرٌ عـلـى

تصرّفها | الحالين أشهده
لم أبك من زمن صعب لشدته | إلا بكيت عليه حين أفقده
وما جزعت على ميتٍ فجعت به | إلاّ ظللت لستر القبر أحسده
وما ذممت زمانا في تقلّبه | إلاّ وفي زمني قد صرت أحمده

ولأبي عبد الرحمن العطوى ، واسمه محمد بن عطية :

سألت عن سبب الإقتار والعدم | وعن زوال النّدى في العرب والعجم
نودى : هوت أنجم الإفضال واشتملت | أم التواصل في الدنيا على عقم
أنعمى إليك مواساة الصديق وما | قد كان يرعى من الأخلاق والذمم
أنعمى إليك خلال الفضل قاطبةً | لم يبق منهنّ إلا دارس العلم
أين الوفاء الذي قد كان يعرفه | قومٌ لقومٍ وأين الحفظ للحرم
أين الجميل الذي قد كان ملتبسا | أهل الوغاء وأهل الفضل والكرم
أيسر أنت صديق الناس كلّهم | ثم ابل سرهم في حالة العدم
فإن وجدت صديقا عند نائبةٍ | فلست من طرقات الخبير في أمم
لما أناخ علىّ الدهر كلكله | وخانني كلّ ذي ودٍّ وذي رحم
ناديت ما فعل الأحرار كلهم | أهل الندى والهدى والبعد في الهمم
قالوا : حدا بهم ريب الزّمان فسل | أحداثه عنهم تخبرك عن رمم

روينا عن عبد اللّه بن مصعب الزبيري أنه قال : خرجنا إلى الغزو زمن مروان بن محمد حتى إذا كنّا ببعض الطّريق أصابنا مطرٌ وابل ، فملنا إلى قصر رفع لنا فصرنا إلى فنائه ، إذ خرجت وليدة فقالت : بأبي وأمي! من أين أنتم فقلنا : من مكة. فتنفست الصّعداء ، وأنشأت تقول :

من كان ذا سكن بالشام | فإن في غيره أمسى لى

يألـفـه السّكن
وإنّ ذا القصر حيّ مابه وطنى لكن بمكة أمسى الأهل والوطن
من ذا يسائل عنّا أين منزلـنـا فالأقحوانة منّا منـزلٌ قـمـن
إذ نلبس العيش صفواً ما يكدره ضغن الوشاة ولا ينبوبنا الزّمن

قال : فمضينا في غزونا حتى إذا قضينا شأننا وقفلنا راجعين ، أخذنا المساء عند ذلك القصر ، فأضافنا صاحبه وأحسن ضيافتنا ، فقلت له : ثمّ حاجة. فقال : وما هي ؟ قلت : وليدة صفتها كذا ، إما أن تبيع وإما أن تهب ، فقال : ما شاء اللّه كان ، واللّه لو كانت حية ما مضيت إلاّ بها ، ولكنها ماتت منذ أيام تلهفاً على مفارقة من نشأت معه.

روينا من وجوه أن أبا خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج فقيه مكة رضى اللّه عنه ، خرج إلى اليمن إلى معن بن زائدة في دين ركبه ، قال : فلما نزلت عليه رحبّ بي وسهّل ، وقال : ما أقدمك هذه المدرة ؟ فقلت : دينٌ ركبني لم تف به جائزة أمير المؤمنين ، فضاق ذرعي فلم أر له سواك ، فخرجت إليك. فقال : قدمت خير مقدم ، يقضي دينك وتنصرف محبوراً إلى وطنك. قال : فأقمت عنده شهوراً في أحسن مثوى وأكرم ضيافة ، فإني لخارج من عنده يوماً إذ رأيت الناس يتأهبون إلى الحج ، فأدركتني وحشة ، ولم أملك العبرة ، وحنّت نفسي إلى الوطن ، فرجعت إليه وقد اغرورقت عيناي بالدموع ، فقال لي : مالك ؟ قلت : رأيت الناس في أهبة الحج والخروج إلى مكة فذكرت أبياتاً لعمر بن أبي ربيعة حملتني على ما ترى قال : وأى أبيات عمر هي ؟ فقلت : قوله :

هيهات من أمة الوهّاب منزلـنـا إذا نزلنا بسيف البحر مـن عـدن
واحتّل أهلك أجيادا فـلـيس لـنـا إلا التذكر أو خظٌ مـن الـحـزن
بل ما نسيت غداة الخفيف موقفهـا وموقفي ، وكلانا ثمّ ذو شـجـن
وقولها للـثـريّا وهـي بـاكـية والدمع منها على الخدين ذو سنن
باللّه قولى له في غير مـعـتـبةٍ ماذا أردت بطول المكث في اليمن
إن كنت حاولت دنيا أو رضيت بها فما أخذت بترك الحجّ من ثـمـن

فقال : أتعزم على الرحيل والرجوع إلى وطنك ? قلت : نعم. قال : صحبتك السلامة ، ورزقت العافية. وخرجت من عنده فما وصلت إلى موضعي ، حتى سبقني خمسة عشر بغلا عليها عصب اليمن ، ودراهم ، وضروب من الخير ، فقضيت ديني وتأثّلت منه كنزاً مما بيدي اليوم.

باب مدح مغالبة الهوى وذم اتباعه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حبّك الشئ يعمي ويصمّ " .
قال وهب بن ممبةّ : العقل والهوى يصطرعان ، فإيّهما غلب مالٌ بصاحبه.
قال ابن دريد :

وآفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجـا

قال عمر بن عبد العزيز : أفضل الجهاد جهاد الهوى.
قال بعض الحكماء : من نظر بعين الهوى خاف ، ومن حكم بالهوى جار قال سفيان الثوري : أشجع الناس أشدهم من الهوى امتناعاً.
وقال : من المحقّرات تنتج الموبقات.
ويقولون : إن هشام بن عبد الملك لم يقل بيت شعرٍ قطّ إلاّ هذا :

إذا أنت لم تعصي الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه علـيك مـقـال

" قلت : لو قال : إلى كلّ ما فيه عليك مقال " كان أبلغ وأحسن.
قال بعض الحكماء : إنما يحتاج اللبيب ذو الرأى والتّجربة إلى المشاورة ليتجرّد له رأيه من هواه.
قال بعضهم : اعص النساء وهواك ، واصنع ما شئت.
قلت : لو قال اعص الهوى لا كتفي.
قيل للمهلّب : بم ظفرت ؟ قال : بطاعة الحزم وعصيان الهوى.
قالوا : ما ذكر الله تعالى الهوى في شيئ من القرآن إلاذمه.
قيل لشريح : أحمد الله لما سلمك من الفتن.قال : كيف أصنع بقلبي وهواي ؟ قال : الهوى غالب ، والقلوب مغلوبة.
قال امتدح بترك الهوى من الحكماء ، قال الزبير بن عبد المطلب :

وأجتنب البوائق حيث كانت وأترك ما هويت لما خشيت

أخبرنا عبد الوارث ، حدثنا قاسم ، حدثنا نصر بن محمّد الأسديّ الكوفيّ ، حدثنا إبراهيم بن عثمان المصّيصي ، حدثنا مخلّد بن حسين ، حدثنا هشاّم ابن حسان ، عن محمد بن سيرين قال : بيتا عمر بن الخطاب يجوس ذاتة ليلة إذ سمع امرأة وهي تقول :

هل من سبيلٍ إلى خمرٍ فأشربها أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

فلما أصبح قال : عليّ بنصر. فجيء به ، فإذا هو أجمل الناس ، فقال : إنها المدينة فلا تساكنيِّ فيها. فخرج إلى البصرة فنزل على ابن عمٍّ له ، هو أمير البصرة ، فبينما هو جالس مع ابن عمه وامرأته ، إذ كتب في الأرض : إني لأحبك حبّاً لو كان فوقك لأظلك ، ولو كان تحتك لأقلك. فقرأته وكتبت تحته : وأنا. وكان الأمير لا يقرأ ، فعلم أنه جواب كلام ، فأكفأ عليه إناءً وقام وبعث إلى من يقرأه ، فبلغ ذلك نصراً ، فلم يجئ إليه ، ومرض حتى سلّ وصار شبه الفرخ ، فأخبر الأمير بذلك ، فقال : اذهبي إليه ، فأبت ، فقال : عزمت عليك إلاّ ذهبت إليه وأسندته إلى صدرك وأطعمته.
قال : فلما أتت الباب قيل له : هذه فلانة. فكأنه انتعش شيئاً ، فصعدت إليه وأسندته إلى صدرها وأطعمته ، فأفاق ، فخرج من البصرة واستحيا من ابن عمه فلم يلقه بعدها.
قال إبراهيم بن عثمان : الأمير مجاشع بن مسعود السلمى ، وامرأته الخضراء.
قال إبراهيم بن عثمان : وأخبرني محمد بن كثير ، أن نصر بن حجاج كتب إلى عمر رضي الله عنه :

لعمري لئن سيرتني وحرمتنـي وما جئت ذنباً إن ذا لـحـرام

ومالي ذنبٌ غير ظنّ ظننـتـه وفي بعض تصديق الظنون أثام

أأن غنّت الذلفاء يوماً بـمـنـيةٍ وبعض أماني النسـاء غـرام

ظننت بي الأمر الذي لو لمل كان لي في الصالحين

أتيتـه	مقام
ويمنعني مما تمنت حفيظـتـي	وآباء صدقٍ صالحـون كـرام
ويمنعها مما تمنت صـلاتـهـا	وبيتٌ لها في قومهـا وصـيام
فهاتان حالانا فهل أنت راجعـي	فقد جبَّ منّي غاربٌ وسـنـام

قال بعض الحكماء : الهوى عدو العقل ، فإذا عرض لك أمران ولم يحضرك من تشاوره فاجتنب أقربهما إلى هواك.

ومما ينسب إلى الشافعي ، وأظنه لسهل الوراق :

إذا حار ذهنك في مـعـنـيين	وأعياك حيث الهوى والصواب
فدع ما هويت فـإن الـهـوى	يقود النفوس إلى مـا يعـاب

قال غيره : اغتنم من الخير ما عجلت ، ومن الهوى ما سوفت.

كان يقال : إذا غلب عليك عقلك فهو لك ، وإن غلب عليك هواك فهو لعدوك.

قال عمر لمعاوية : من أصبر الناس ? قال : من كان رأيه راداً لهواه.

قال أعرابي : ما أشد جولة الرأي عند الهوى ، وأشد فطام النفس عند الصبر.

قال نفطويه :

إن الـمـرائي لا تـــريد	ك خدوش وجهك في صداها
وكذلك نـفـسـك لا تـريد	ك عيوب نفسك في هواهـا

وعن نفطويه ، قال : تضيّف صديقٌ لي من أهل الأدب إلى إمرأة من أهل البصرة ، فتعرض لها ، فقالت : أيها الرجل مالك حظ في غيرة الرجال على الحرم ، فيكون ذلك زاجراً لك عن التعرض لحرم غيرك ، إن لم يكن لك ناه من دين ? أما علمت أن الأمور إلى أواخرها تؤول إلى أوائلها ، وإن من عوّد نفسه الرفث والخنا كان كمن اتخذ المزابل مجلساً ، وقلما مجن رجل إلا هلك.

قال الشاعر :

الحب زورٌ والهوى باطل	والقلب ما أجريته يجري
وترك ما تهوى يسيرٌ إذا	أعملت فيه سعة الصدر

وقال منصور النمري :

وإن امرءاً أودى الغرام بلبـه	لعريان من ثوب الفلاح سليب

قال آخر :

عين المحب كـلـيلةٌ	عن عيب كلِّ فتىً يود

قال عمر بن أبي ربيعة :

حسنٌ في كلِّ عينٍ من تود

وقال روح أبو همّام :

وعين السخط تبصر كـلَّ	وعين أخي الرضا عن ذاك

عـيبٍ تعمى

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

فعين الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عين السخط تبدي المساويا

قال أبو العتاهية :

والمرء يعمى عمن يحب فإن أقصر عن بعض ما به أبصر

باب معنى عشق النساء والهوى فيهن

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما رأيت من ناقصات عقل ودين ، أسلب لعقول ذوي الألباب منكن " .

سئل بعض الحكماء عن العشق ، فقال : شغل قلبٍ فارغ.

وجد في صحيفةٍ لبعض أهل الهند : العشق ارتياحٌ جعل في الروح ، وهو معنى تنتجه النجوم بمطارح شعاعها ، وتتولد الطوالع بوصلة أشكالها ، وتقبله النفوس بلطيف خواطرها ، وهو بعد جلاء للقلوب ، وصقيل للأذهان ما لم يفرط ، فإن أفرط عاد سقما قاتلا ، ومرضا منهكا ، لا تنفد فيه الآراء ، ولا تنجع فيه الحيل ، العلاج منه زيادة فيه.

حضر عند المأمون يوماً يحيى بن أكثم ، وثمامة بن أشرس ، فقال المأمون ليحيى : خبرني عن حد العشق فقال : يا أمير المؤمنين سوانح تسنح للعاشق يؤثرها ويهيم بها تسمى عشقا. فقال ثمامة : اسكت يا يحيى ، فإنما عليك أن تجيب في مسألة من الفقه ، وهذه صناعتنا. فقال المأمون : أجب يا ثمامة. فقال : يا أمير المؤمنين إذا تقادحت جواهر النفوس المتقاطعة بوصل المشاكلة أثقبت لمحنورٍ ساطع تستضيء به بواطن العقل فتهتز لإشراقه طبائع الحياة ، ويتصور من ذلك اللمح نور حاضر بالنفس متصل بجوهرها فيسمى عشقا.

وصف أعرابي عاشقا ، فقال : كان يستر عيناً قد درت مآقيها ، ويحنو على كبد قد أعيت مداويها.

ذكر رجلٌ أيام شبابه وامرأة كان يهواها ، فقال : ذلك هوى شربته النفس أيام شبابها ، فاستخفت بالعاذلات وعتابها.

وصف بعض الحكماء الهوى الذي هو عشقٌ للنساء ، فقال : بطن فرقَّ ، وظهر فكثف ، وامتنع وصفه عن اللسان فهو بين السحر والجنون ، لطيف المسلك والكمون.

وقال بعض الأدباء : الهوى جليسٌ ممتع ، وأليف مؤنس وصاحب مملّك ، مسالكه لطيفة ، ومذاهبه متضادة وأحكامه سائرة ، ملك الأبدان وأرواحها ، والقلوب وخواطرها ، والعيون ونواظرها ، والعقول وآراءها ، وأعطى عنان طاعتها ، وقاد نصرفها ،توارى الأبصار مدخله ، وغمض في القلوب مسلكه.

قال عباس بن الأحنف ،فيما أنشده إسحاق الموصلي له.

فلو كان لي قلبان عشت بـواحـدٍ وخلّيت قلباً فـي هـواك يعـذّب

ولكنّمـا أحـيا بـقـلـبٍ مـروّع فلا العيش يصفو لي الموت يقرب

تعلمت ألوان الرّضا خوف سخطها وعلّمها حبّي لها كيف تغـضـب

ولي ألف وجهٍ قد عرفت مكـانـه ولكن بلا قلبٍ إلـى أين أذهـب

وللصّمّة القشيري :

لعمري لئن كنتم على النّأى والغني بكم مثل مابي إنّكـم لـصـديق

إذا زفرات الحبّ صعّدن في الحشى ... رددن ولم يفتح لهن طريق

للعباس بن الأحنف :

أرى الطّريق قريباً حين أسلكه ... إلى الحبيب بعيداً حين أنصرف

أنشدنا أبو القاسم محمد بن نصر الكاتب رحمه الله لنفسه في معنى بيت عباس هذا :

أمر نشيطاً إذا زرتكم ... وأرجع كسلان لا أنشط

وسير المطية ما كدني ... ولكن هوى لكم مفرط

وقال العباس بن الأحنف :

يقرب الشوق داراً وهي نازحةٌ ... من عالج الشوق لم يستبعد الدارا

وله :

مت على من غبت عنه أسفاً ... لست منهم بمصيبٍ خلفا

لن ترى قرة عين أبداً ... أو ترى نحوهم منصرفا

قلت لما شفَّني وجدي بهم ... حسبي الله لما بي وكفى

بين الدمع لمن يبصرني ... ما تضمني إذا ما ذرفا

ولمحمد اليزيدي :

أتيتك عائداً بك من ... ك لما ضاقت الحيل

وصيرني هواك وبي ... لحيني يضرب المثل

فإن سلمت لكم نفسي ... فما لاقيته جلل

وإن قتل الهوى رجلاً ... فإني ذلك الرجل

كتب المهدي إلى الخيزران وهو بمكة :

نحن في أفضل السرور ولكن ... ليس إلا بكم يتم السرور

عيب ما نحن فيه يا أهل ودي ... أنكم غبتم ونحن حضور

فأجدوا المسير ، بل إن قدرتم ... أن تطيروا مع الرياح فطيروا

فأجابته :

قد أتانا الذي وصفت من الشو ... ق فكدنا وما فعلنا نطير

ليت أنّ الرياح كن يؤدي ... ن إليكم ما قد يجنّ الضمير

لم أزل صبّةً فإن كنت بعدى ... في سرورٍ فدام ذاك السرور

قال بعض الأدباء : ما أشد جولة الرأي عند الهوى وفطام النفس عند الصبّا ، لقد تصدعت كبدي للمحبّين لو العاذلين قرطة في آذانهم ونيران متأججة في أبدانهم لهم دموع غزيزةٌ على المغائي ، كغروب السّواني وأنشد :

سقى الله أطلالاً لليلي وشقّقت ... عليهنّ من غرّ الغمام جيوب
فما تقشعرّ الأرض إن نزلت بها ... ولكنها تزهي بها وتطيب

وقال آخر :

وقال أناسٌ : لا يضريك نأيها ... يلي كلّ ما شفّ النفوس يضيرها
أليس يضير العين أن تكثر البكاء ... ويمنع منها نومها وسرورها

وقال آخر :

فلو أن شرق الشّمس بيني وبينها ... وأهلي وراء الشمس حيث تغيب
لحاولت قطع الأرض بيني وبينه ... وقال الهوى لي إنه لقريب

وقال الصمّة بن عبد الله القشيري :

إذا ما أتتنا الريح نحو أرضكم ... أتينا برياكم فطاب هبوبها
أتينا بريح المسك خالط عنبراً ... وريح الخزامي باكرتها جنوبها

وقال آخر :

ضاف قلبي الهوى فأكثر سهوى ... وجوى الحب مفظع كلّ حلو
لو علا بعض ما علاني ثبيراً ... ظلّ ضعفاً ثبير من ذاك يهوى
من يكن من هوى الغواني خلواً ... يا ثقاتي فإنني غير خلو

قال العبّاس بن الأحنف :

جرى السّيل فاستبكاني السيل إذ جرى ... وفاضت له من مقلتيّ غروب
وما ذاك إلاّ أن تيقنت أنّني ... أمرّ بوادٍ أنت منه قريب
يكون أجاجا قبلكم فإذا انتهى ... إليكم تلقّى طيبكم فيطيب
أيا ساكني شرقيّ دجلة كلكم ... إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

قال بعضهم : لو لم يكن في العشق إلاّ أنه يشجع قلب الجبان ، ويسخي كف البخيل ، ويصفّي ذهن الغبي ، ويبعث حزم العاقل ، ويخضع له عزّ الملوك ، وتصرع له صولة الشجاع ، وينقاد له كلّ ممتنع ، لكفي به شرفا.
قال الأصمي :سمعت أعرابيّا يقول : إذا ترعت هتوف الضحى على الغصون ، أرسلت الشئون مياها إلى العيون ،فمن ذاد عينيه عن البكا أورث قلبه حزنا.
عشق أبو القمقام بن بحر السقا امرأة موسرة ، فأطمعته في نفسها ، فبعث يستهديها طعاماً ، حتى فعل ذلك غير مرة ، فلما أكثر عليها ، بعثت إليه :رأيت العشق يكون في القلب ويفيض إلى الكبد ، ثم يستبطن الأحشاء ، وحبّك لا أراه تجاوز المعدة.
قال أعرابيّ من فزارة : عشقت امرأة من طّي ، فكانت تظهر لي مودّة ، فو الله ما جرى بيني وبينها شئ من ريبة ، غير أني رأيت بياض كفها ليلة ، فوضعت كّفي على كفها ، فقالت : مه! لا تفسد ما صلح ، فأرفضضت عرقا من قولها ، فما عدت لمثل ذلك.
قال بعضهم : الرجل يكتم بغض المرأة أربعين يوماً ، ولا يمكنه أن يكتم حبها يوماً واحدا ، والمرأة تكتم حب الرجل أربعين يوماً ، ولا يمكنها أن تكتم بغضه يوما واحداً.
قال يوسف بن هرون :

دقّت معاني الحبّ عن أذهانهم فتأوّلوها أقبـح الـتـأويل

وقال كثيرّ :

إذا ما رادت خلّةً أن تستميلنا أبينا وقلنا الحاجـبـية أوّل

وقال حبيب :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتـمـكّـنـا

لعليّ بن الجهم :

يا سائلي ما الهوى اسمع إلى صفتي الحّب أعظم من وصفي ومقداري
ماء المدامع نار الشـوق تـحـدره فهل سمعت بماءٍ فاض مـن نـار

وقال أبو العتاهية :

أذاهب الهوى جسمي ولحمي وقوّتي فلم يبق إلاّ الروح والجسد النضـو
رأيت الهوى حجر الغضا غير أنّـه على كلّ حال عند صاحبه حـلـو

وقال آخر :

أسرّ الذي بي والدموع تبـوح وجسمي سقيم والفؤاد

قـريح

وبين ضلوعي لوعة لم أزل بها أذوب اشتياقاً والفؤاد صحـيح

وقال الصّمّة القشيري :

أما وجلال الله لو تذكـرينـنـي كذكريك ما كفكفت للعين مدمعا

فقالت : بلى والله ذكراً لو انّـه يصبّ على صمّ الصفا لتصدّعا

وأكثرهم ينسون إليه في هذا الشعر قوله :

حننت إلى ريّا ونفسك بـاعـدت مزارك من ليلي وشعبا كما معا

فما حسن أن تأتي الأمر طائعـاً وتجزع أن داعي الصّبابة أسما

بكت عيني اليسرى فلمّا زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

وأذكر أيّام الحمى ثـم أنـثـي على كبدي من خشيةٍ أن تصدّعا

فليست عشيّات الحمى برواجـعٍ إليك ولكن خلّ عينيك تدمـعـا

ومهم من ينسبها إلى قيس بن ذريح ، وللمجنون أيضا تنسب ، والأكثر أنّها للصّمّة.

\/باب في وصف النساء بالحسن والرقة وما يحمد من نعوتهن، ووصف منطقهن قال أنس بن مالك: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره في حجة الوداع، ومعه نساؤه، وكان له حادٍ يحدو بهن يقال له أنْجَشةَ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أنجشة رفقاً! رويداً بالقوارير". يعني أنهن ضعاف يسرع إليهن الكسر، ولا يقبلن الجبر.

ذكر أعرابي امرأة، فقال: كاد الغزال يكونها لولا ماتم فيها ونقص منه.

وصف أعرابي النساء، فقال: ظعائن في سوالفهن طول، غير قبيحات العطول، إذا مشين أسبلن الذيول، وإذا ركبن أثقلن الحمول.

كتب الحجاج بن يوسف إلى محمد أخيه، وهو أمير على اليمن: أن اخطب على ابني امرأة حسناء من بعيد، مليحة من قريب شريفة في قومها، ذليلة في نفسها، أمة لبعلها. فكتب إليه: قد أصبتها لك، وهي خولة بين مسمع، على عظم ثدييها. فكتب إليه: إن المرأة لا يحسن صدرها حتى يعظم ثدياها.

قال المهلب: عليكم من بنات خراسان بمن عظمت هامتها، وطالت قامتها.

قال محمد بن حسين: عليكم بذوات الأعجاز فإنهن أنجب.

كان يقال: إذا طال ساعد المرأة وعنقها وساقها لم يشك أنها تنجب.

قيل لأعرابي: أي النساء أفضل؟ قال: الطويلة السالفة، الرقيقة الرادفة، العزيزة في قومها، الذليلة في نفسها، التي في حجرها غلام، وفي بطنها غلام، ولها في الغلمان غلام.

وصف علي بن أبي طالب رضى الله عنه امرأةً، فقال: تدفئ الضجيع، وتروى الرضيع. يعني بعظم ثدييها.

قال ابن شبرمة: سمعت محمد بن سيرين يقول: ما رأيت على رجل لباساً أزين من فصاحة، ولا رأيت لباساً على امرأة أزين من شحم.

كان يقال: لو قيل للشحم أين تذهب؟ لقال: أقوم العوج.

وقال مصعب بن الزبير: المرأة فرش فاستوثروا.

كان يقال: من تزوج امرأة فليستجد شعرها، فإن الشعر أحد الوجهين.

كان يقال: النساء لعب فتخيروا.

من الأمثال السائرة: لن تعدم الحسناء ذاماً.

وقالوا: عقل المرأة في جمالها، وجمال الرجل في عقله.

وصف رجل امرأة فقال: كأن عينيها السقم لمن رآها، وكلامها البرء لمن ناجاها.

قال أشهب بن عبد العزيز. سئل مالك بن أنس: أيسلم الرجل على المرأة؟ فقال: أما المتجالّة فلا بأس، وأما التي كلامها أشهى من الرطب فلا.

وقال سحنون: سمعت أشهب يقول: المكيات أخنث النساء، والمدنيات أغنج النساء.

وشبه الأخطل كلام امرأة بعقد انقطع فتحدر لؤلؤه، فقال:

قد يكون بها سلمى تُحَـدّثـنـي ... تَسَاقُطَ الْحَلْيِ حاجاتي وأَسْرَارِي

وقال القطامي:

فهن يَنْبِذْنَ من قولٍ يَصِـبْـن بـه ... مواقعَ الماء من ذي الغُلَّةِ الصّادِي

وقال الراعي:

لهنَّ حديثٌ فاترٌ يترُك الـفَـتَـى ... خفوقَ الْحَشَا مُسْتَهلَكَ اللُّبِّ طامِعاَ

وقال أعرابي:

وحديثها كالقَطْرِ يسمعُـهُ ... راعى سِنينَ تتابَعَتْ جَدْبَا

فأصاخ يرجو أن يكون حَياً ... ويقولُ من فرحٍ هيا ربـاَّ

وفي رواية أخرى:

فأصاخ مُسْتَمِعاً لِدَرَّتِها

وقال جِرَانُ العَوْد:

حَديثٌ لو أنّ اللّحمَ يصلى بحـرِّه ... غَرِيضاً أتى أصحابَه وهو مُنْضَجُ

وقال بشار:

كأنّ حديثَها سكَرُ الَّشراب

ولبشّار أيضاً:

وحديثٍ كأنه قـطـعُ الـرّو ضِ وفيه الحمراءُ والصفراءُ

وله:

وكأنّ تحـتَ لِـسَـانِـهـا هارِوتَ ينفثُ فيه سِحـراَ
وكأنّ رجْـعَ حـديثـهـا قِطَعُ الِّرياض كسينَ زَهْرا

وله:

ولها مَبْسِمٌ كغُـرِّ الأقَـاحـي وحديثُ كالوَشْيِ وشْيِ الْبُرُودِ

وقال علي بن العباس الرومي:

وحديثُها السِّحْرُ الحـلالُ لـو أنّـه لم يَجْنِ قتلَ الْمُسْلِمِ الَمـتـحـرِّزِ
وإن طال لمُ يمْلَلْ وإن هي أوْجَزتْ ودّ المحدِّث أنهـا لـم تُـوجِـزِ
شَرَكُ العقول ونُهْزَةٌ ما مِثْـلُـهـا للمطمئن وعُقلة المـسـتـوفـز

وقال امرؤ القيس:

وهي هيفاءُ لطيفٌ خصْرُها ضخمةُ الثِّدْي وَلمّا ينكسرْ

وقال المرار بن سعد الجبلي:

صَلْتَةُ الخَدّ طويلٌ جيدُهـا ضخمةُ الثِّدْيِ ولمّا يَنْكَسِرْ

وقال غيره:

موسومةُ بالحسن ذات حواسدٍ إنّ الحسان مَظَنةٌ للحُـسَّـدِ
وترى مَآقِيَها تقلِّبُ مُـقْـلَـةً سوداءَ ترغبُ عن سَوَاد إحد

وقال آخر:

إن النّساءَ رياحينٌ خلقنَ لَنا وكلنا يَشتهى شمَّ الرَّيَاحِينِ

وقال آخر:

ونحن بَنْو الدُّنْيَا وهنّ بَنَاتُها وعيشُ بنى الدُّنيا لقاءُ بَناتِها

وقال حسان بن ثابت:

لو يدبُّ الحَوْلِيُّ من وَلَدِ الّذ)م(رِّ عليها لأدمَأَتْها الكُـلُـومُ

الحولي من ولد الذر لا يعرف من المسن، وإنما أراد الصغير من ولد الذر، كما قال الآخر:

يُلَقَّطُ حَوْلِيُّ الحصا من منـازِلٍ من الحيِّ أمست بالجَبِيبَيْنِ بَلْقَعَا

وحولي الحصا صغارها، فشبهه بالحولي من ذوات الأربع.

وقال حميد بن ثور:

منعمةٌ لو يًصْبح الـذَّرُّ سـارياً على جلدها بَضَّت مَدَارِجُهُ دَمَا

وقال عمر بن أبي ربيعة:

لو دَبّ ذَرٌّ فوق ضَاحِي جِلْدِها لأبَان مِنْ آثارهـن حُـدُورَا

وقال آخر:

من القاصَرات الطَّرْفِ لو دب مُحْوِلٌ من الذَّرِ فوق الإتْبِ منـهـا لأثّـرا

وقال الحسنُ بن هانئ:

وكأن مَنْثُور رُمَّانٍ بوجنـتـهـا لو دبَّ فيها خيالُ الذَّرِ لا نجرها

وقال النظام:

رقَ فلو دبَّ بـه نـمـلةٌ لخضبّتُـه بـدمٍ جـاَرِى

أُضمرُ أن أضمرَ حبِّي له فيشتكى إضمارَ إضماري

وبلغ قول النظام هذا أبا الهذيل، فقال: لقد رقّ هذا الموصوف حتى لا يناكُ إلا بزب الوهم.

وأخذ ابن الرومي قول النظام، فقال:

رقّ فـلـو دبّ بـــه ذرةٌ منعَّلةٌ أَرْجُلها بـالـحـريرِ

لأثّرت فـيه كـمـا أثّـرت مَدَامَةٌ في العارض المستدير

قال بعض حكماء أهل الأدب، كمال حسن المرأة أن تكون أربعة أشياء منها شديدة البياض، وأربعة أشياءٍ شديدة السواد، وأربعة أشياء شديدة الحمرة، وأربعة أشياء مدورة، وأربعة واسعة، وأربعة ضيقة، وأربعة رقيقة، وأربعة عظيمة، وأربعة صغاراً، وأربعة طيبة الريح. فأما الأربعة الشديدة البياض. فبياض اللون، وبياض العين، وبياض الأسنان، وبياض الظفر.

وأما الأربعة الشديدة السواد، فشعر الرأس، والحاجبين، والحدقة والأهداب.

وأما الشديدة الحمرة: فاللسان، والشفتان، والوجنتان، واللثة.

وأما المدورة: فالرأس، والعين، والساعد، والعرقوبان.

وأما الواسعة: فالجبهة، والعين، والصدر، والوركان.

وأما الضيقة: فالمنخران، والأذنان، والسرة، والفرج.

وأما الصغار: فالأذنان، والفم، واليدان، والرجلان.

وأما الرقاق: فالحاجب، والأنف، والشفتان، والخصر.

وأما الطيبة الريح: فالأنف، والفم، والأبط، والفرج.

وأما العظيمة: الهامة، والمنكبان، والأضلاع، والعجز.

أنشد ابن أبي طاهر لشريك الجعدي:

ولو كنتُ بَعْدَ الشَّيْبِ طالبَ صَبـوَةٍ لأَصْبَى فؤَادِي نِسْوَة بِـحُـلاَحِـلِ

عفيفـاتُ أسْـوَارٍ بَـعِـيدَاتُ ريبةٍ كثيراتُ إخْلافٍ قـلـيلاتُ نـائلِ

تعلَّمْنَ والإِسْلاَم فيهن والـتـقـى شَوَاكِلَ من علمِ الـذّين بـبَـابـلِ

مِراضُ العُيون في احْمِرار مَحَاجِرٍ طوالُ المتونِ راجحاتُ الأسَافِـلِ

هضيماتُ ما بين الَّترائب والحشَـا لِطَافُ البُطونِ ظامِئاتُ الخلاخِـلِ
تعوضن يوم الغيدِ من جَدَل المَهَـا عيوناً وأعناقَ الظباءِ العَـواطـلِ
كأن ذُرَا الأنْقَاءِ من رَمْلِ عَـالِـجٍ خَبَتْ وَالْتَقَتْ منهنّ تحت المفاصلِ

ولدعبل بن علي الخزاعي:

له منظر وَطْفٌ ومنـسـدل وحـفُ ومبتسم يحيى إذا قـتـل الـطّـرفُ
وللظّبى عـينَـاه ولـلـدَّرِّ ثـغـرُه وَللقُضُبِ الأعْلى وللكُثُـب الـرِّدْفُ
ظلمتُكَ لما قلتُ أشْبَهَكِ الـخِـشْـفُ أو القمرُ المعدود من شهره النصف
ولكنك الَّنورُ المـركـبُ جـوهـراً من الحُسْن لم يبلغ له الوهُم وَالوصفُ

أنشدني أبو عمر يوسف بن هَرون لنفسه:

بحتُ بُحبِّي ولو غَـرَامِـي ويكونُ في صخرةٍ لَباحـاَ
ضيَّعْتمُ الرُّشْدَ من مُـحـبٍّ ليسَ يَرَى في الَهوى جُنَاحاَ
لم يستطع حَمْلَ ما يُلاقـى فشقَّ أثْوابَـهُ وَصَـاحـاَ
مُحيِّرَ المقلَتْـين قـل لِـي هل شَرِبَتْ مُقْلَتَاكَ رَاحـاَ
نَفْسـي فـدى لَـم وخـدٍّ قد جَمَعَا اللَّيْل والصبَّاَحـاَ
وَعَقْرَبٍ سُلِّطَتْ عَـلَـيْنـا تَملأُ أكبـادَنـا جِـراحـاَ
قد طارَ من شوقِهِ فـؤادي فصارَ شَوْقِي له جَنَـاحـاَ

أنشدني أبو القاسم محمد بن نصير الكاتب لنفسه:

لَثَاتُـك ياقـوتٌ وَثَـغْـرُك لُـؤْلـؤ وريقُك شهدٌ والـنَّـسـيِمُ عَـبـيِرُ
ومن وَرَقِ الْوَرْدِ الجنيِّ مُـقَـبَّـلٌ تَرَشُّفُهُ عند الـمـمـاتِ نـشُـورُ
وخدُّكَ وردُ الرَّوضِ والصّدغ عَقْربٌ وطرْفكَ سحرٌ والمجـسُّ حـريرُ
وحاجبُك المَقْرُون نونان صُـفِّـفَـا وقد لاح سَوْسَانٌ علـيه نـضـيرُ
وشعرُكَ ليلٌ فاحُم اللـونِ حـالـكٌ ووجهْكَ بدرٌ تـحـت ذاكَ مُـنِـيرُ
وأنفُك مـن دُرًّ مـذَابٍ مـركّـبٌ وجيدُك جيدُ الظّبْيِ وهـو

غـريرُ

وصدرُك عاجٌ أبيضُ اللون مشـرِقٌ ... ورُمّانُ كافورٍ عـلـيه صَـغِـيرُ

ومن فضةٍ بيضاءَ كَفّاك صِـيغَـتَـا ... ولكنْ بمحِّمر الـعَـقِـيق تـشـيرُ

وقدُّك غصنٌ حين هبَّت به الصبَّاَ ... وردْفكَ دعصٌ للرمـال وثـيرُ

وتخطو على أنبوبتين حًكاَهمـا ... من النخل جُمَّارٌ يجذّ؟ُ قشـير

وتحتهما مشطان رَخْصاَنِ دَلّهـا ... عُقُولَ ذوى الألْبَابِ حين تـدورُ

ودَلُّكَ سحرٌ يَخْلِسُ العقل فاتـنٌ ... ولفظُك دُرٌّ إن نطقت نـشـيرُ

فمالك في الدُّنيا من الناس مُشبْهٌ ... ولاَلَكَ في حوُر الجنان نظـيرُ

وهذا الشعر من أحسن ما قاله متقدم أو متأخر في عموم وصف المرأة وأجمعه وأطبعه إن شاء الله تعالى، على أن هذا الوصف معدوم.

باب النظر إلى الوجه الحسن

قال الله عز وجل "قُلْ للمُؤْمِنين يَغُضُّوا من أبْصاَرِهم"،"وقلْ للمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ من أبصاَرِهِنّ".

ومنع رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضل بن العباس وهو رديفه، عام حجة الوداع، من النظر إلى الخثعمية، وصرف وجهه عنها.

ومنع بعض أصحابه الدخول عليه من أجل صفية زوجته، وقال لهم: إنها صفية.

ومنه امرأتين من نسائه من النظر إلى ابن أم مكتوم، فقالتا: أليس أعمى؟ فقال: أفعمياوان أنتما؟.

قال عقيل بن علفة: لأن ينظر إلى ابنتي مائة رجل خير من أن تنظر هي إلى رجل واحد.

نظر أبو حازم بن دينار إلى امرأة حسناء ترمى الجمار أو تطوف بالبيت، وقد شغلت الناس بالنظر إليها لبراعة حسنها، فقال لها: أمة الله! خمري وجهك، فقد فتنت الناس، فهذا موضع رغبةٍ ورهبة.

فقالت له: إحرامي في وجهي أصلحك الله يا أبا حازم، وأنا من اللواتي قال فيهن العرجي:

من اللاّءِ لم يَحْجُجْنَ يبغين حِسْبةً ... ولكنْ ليقْتُلْن التَّقّى المُغَـفّـلاَ

فقال أبو حازم لأصحابه: تعالوا ندع الله ألا يعذب هذه الصورة الحسنة بالنار، فقيل له: أفتنتك يا أبا حازم، فقال: لا، ولكن الحسن مرحوم.

هكذا روينا هذا الخبر عن أبي حازم من وجوه بألفاظ مختلفة ومعنى متقارب.

وذكر المدائني عن عبد الله بن عمر العمري، قال: خرجت حاجاً فرأيت امرأة جميلة تتكلم بكلامٍ أرفثت فيه، فأدنيت ناقتي منها، وقلت: يا أمة الله! ألست حاجة؟ أما تخافين الله؟ فسفرت عن وجه يبهر الشمس حسنا، ثم قالت: تأمل يا عمري، فإني ممن عناه العرجي بقوله:

أماطت كِساَءَ الخزّ عن حُرِّ وجهها ... وأدْنَتْ على الخدين بُرداْاً مُهَلهْـلاَ

من اللاّءِ لم يَحْجُجْنَ يبغين حِسـبَةً ... ولكنْ ليقتُلْنَ البريءَ المـغَـفّـلاَ

وترمى بعينيها القلوبَ ولحظِـهـا   إذا ما رَمَتْ لم تُخْطِ منهن مَقْتَـلاَ

قال: فقلت: فأنا أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار، قال: وبلغ ذلك سعيد بن المسيب؛ فقال: أما والله لو كان من أهل العراق، لقال: اغربي قبحك الله، ولكنه ظرف عباد أهل الحجاز.

قال عبد الله بن طاهر:

وجه يدلُّ الناظـرين   عليه في اللّيلِ البَهِيمْ
فكأنه روحُ الـحَـيا   ةِ يَهْبُّ مِسْكيّ النسيمْ
في خدِّه ورد الجَمَـا   لِ يُعَلُّ من ماءِ النعيمْ
سقْمُ الصّحيح المُستَقِلِّ   وصحة الرَجُلِ السَّقيم

نظر رجلان إلى جارية حسناء في بعض طرق مكة فمالا إليها فاستسقياها ماءً، لسقتهما فجعلا يشربانه ولا يسيغانه فعرفت ما بهما فجعلت تقول:

هما استسقيا ماءً على غير ظمأة   ليستمتعا باللحظ ممن سقاهمـا

فعجبا من ذلك ودفعا الإناء إليها فمرت وهي تقول:

وكنتَ متى أرسلتَ طَرْفَك رائداً   لقلبك يوماً أتعبَتْكَ المنـاظـرُ
رأيتَ الذي لا كلّه أنـت قـادرٌ   عليه ولا عَنْ بعضهِ أنت صابر

وقال آخر:

خليليَّ للبغضاء عينٌ مُـبـيِنَةٌ   وللحبِّ آياتٌ تُرَى ومعارفُ
ألا إنّما العينانِ للقـلـبِ رَائدٌ   فما تألفُ العينانِ فالقلبُ يألفُ
يحبُّ ويُدْنِى من يقلُّ خلافُـهُ   وليس بمحبوبٍ حبيبٌ مخالفُ

قال آخر:

ومَالَكَ منها غير أنَـك رائدٌ   بعينيْك عينيها فهلْ ذاكَ نافِعُ

دخل الشعبي على عبد الملك بن مروان، فقال له: يا شعبي! بلغني أنه اختصم إليك رجلٌ وامرأته، فقضيتَ للمرأة على زوجها، فقال فيك شعراً، فأخبرني بقصتيهما وأنشدني الشعر إن كنت سمعته. فقال: يا أمير المؤمنين! لا تسألني عن ذلك. فقال: عزمت عليك لتخبرني. قال: نعم، اختصمت إلى امرأة وبعلها، فقضيت للمرأة إذ توجه لها القضاء، فقام الرجل وهو يقول:

فُتِن الشّعْبيُّ لّـمـا   رَفَعَ الطَّرْفَ إليها
بفتاةٍ حين قـامـتْ   رفَعَتْ مَأكَمَتَيْهـا
ومشت مشياً رُوَيْداً   ثم هزّت مِنْكبَيْهـا
فتـنـتـهُ بـقـوامٍ   وبخطَّىْ حاجبيهـا

وبنانٍ كالـمَـدَارِي	واسْودادِ مُقْلتَـيْهـا
قال لِلجِلْوَازِ قَـرّب	هَاوأحْضِر شاهديْها
فقضى جوراً علينا	ثم لم يَقْضِ عَلَيها
كيف لو أبْصر منها	نحرَها أو سَاعِدَيها
لصَباَ حتـى تَـرَاهُ	ساجداً بـينَ يَدَيْهـا
بنتُ عيسى بن حَرادٍ	ظُلِمَ الخَصْمُ لَدَيْهـا

قال عبد الملك: فما صنعت يا شعبي؟ قال: أوجعتُ ظهرةَ حين جوّرني في شعره.
هذا ما رواه سفيانُ بن عيينة، عن سالم بن أبي حفصة، عن الشعبي، وهو أصح إسنادٍ لهذا الخبر.
وذكر الهيثم بن عدي، قال: خاصمت أم جعفر بين عيسى بن حراد زوجها إلى الشعبي، فلما قامت بين يديه، قيل لها: ما صنعت؟ قالت: سألني البينة، ومن سأل البينة فقد فلج، ثم قضى لها، فقال هذيل الأشجعي:

فنن الشّعبىّ لـمـا	رفع الطرفَ إليها

وذكر الأبيات. وفي رواية الهيثم بن عدي: أن الشعر لهذيل الأشجعي فيها، فبلغ ذلك الشعبي، فقال: أبعده الله، ما قضينا إلا بحق. قال الهيثم: فحدثني ابن أبي ليلى، قال: خرجنا مع الشعبي من المسجد، وقد قام من مجلس القضاء، فمررنا بجارية تغسل في إجانة فلما رأت الشعبي قالت:

فُتن الشّعبيّ لما

فقال الشعبي:

رفع الطّرفَ إليها

خاصم الوليد بن صريع، مولى عمرو بن حريث، أخته أم كلثوم ابنة صريع إلى عبد الملك بن عمير، قاضي الكوفة، وكان يقال له: القبطي، لفرس كان له فقضى لها على أخيها، فقال هذيل الأشجعي:

لقد عـثـرَ الـقـبـطـيُّ أو زَلَّ زلةً	وما كان منه لا العـثـارُ ولا الـزّلـلْ
أتـاه ولـيدٌ بـالـشُّـهـودِ يقـودُهُـمْ	على ما ادّعَى من صامتِ المالِ والخَوَلْ
يقـودُ إلـيه كـلْـثُـمـاً وكـلاُمـهـا	شفاءٌ من الدَّاءِ المخامـرِ والـخَـبَـلْ
فأدْلـى ولـيدٌ عـنـد ذاك بـحـجةٍ	وكـان ولـيدٌ ذا مِـراءٍ وذا جَـــدَلْ
وكـان لـهـا دَلٌّ وعـينٌ كـحـيلةٌ	فأدْلَتْ بحُسنِ الدَّلِّ منها وبـالـكَـحَـلْ
فأفْتنَت القبطيَّ حتّـى قـضـى لـهـا	بغيرِ قضاءِ اللهِ في مُحْكَـمِ الـطُّـوَلْ
فلو أنّ من في القصرِ يعلـمُ عـلْـمَـه	لما اسْتَعملَ القِبِطيَّ يوماً على عَـمَـلْ
له حين يقضي للـنـسـاء تَـخَـاوُصٌ	وكان ومات فيه التخَاوص والـحَـوَلْ
إذا ذاتُ دَلٍّ كـلـمـتـهُ	فهمَّ بأنْ يقضى تَنَـحْـنَـح أو

بـحـــاجةٍ سَـعَـلْ
وبـرّقَ عـينـيه ولاكَ لـسـانَـــهُ ويَرَى كل شيءٍ ما خلا شخصَها خَلَـلْ

فبلغ ذلك عبد الملك بن عمير، فقال: ما لهذيل أخزاه الله? والله لربما جاءتني النحنحة أو السعلة وأنا في المتوضأ فأردها مخافة ما قال.

لعبد الله بن سليمان النحوي المكفوف:

تقولُ من للعمى بالحُسْن قلـتُ لَـهـا كَفَى عَن الله في تحقيقهِ الـخـبـرُ
القلـبُ يُدرك مـالا عـينَ تـدركُـهُ والحُسْنُ ما استحسنتْه النفس لا البَصرُ
وما العيونُ التي تعمى إذا نـظـرَتْ بل القلوبُ التي يَعْمىَ بها النـظـرُ

وقال أيضاً ينقُضه:

ما إن يُمتِّع بالمعشوقِ عاشِقَـهُ سمعٌ إذا لم يمتّعْهُ به البَصـرُ
وكل قلبٍ له حـبٌّ يقـلـبـه وأعذب الحبِّ ما أحباكه النظرُ
ولو تكافي الهوي مرأى ومستعماً لما تبَاينَت الأصواتُ والصـورُ

أنشد إسحق بن إبراهيم لعمر بن أبي ربيعة في محمد بن عروة بن الزبير، وكان جميلاً:

إني امرؤٌ مُولَعٌ بالحسن أتبعُه لاحظَّ لي فيه إلاّ لذةُ النظرِ

وقال محمود الوراق:

من أطلق الطَّرْفَ اجتنى شَهْوَةً وحارس الشَّهوةِ غضُّ البَصَرْ
والطّرْفُ للقلبِ لـسـانٌ فـإنْ أرادَ نطقاً فليكـرَّ الـنَّـظَـرْ
يُفْهَمُ بالعينِ عن العينِ ما في الْ قلبِ من مكنونِ خـيرٍ وشَـرْ
يَطْوِي لسانُ المرءِ أَخـبـارَه والطرفُ لا يملكُ طيَّ الخَبرْ

وقال آخر:

لا تـكـثـرنَّ تـأمُّــلاً وامْلِكْ عَلَيْك عنانَ طَرْفِكْ
فَـلـرُبَّـمـا أرسـلـتَـه فَرَمَاكَ في ميدانِ حَتْفِـكْ

وقال أعرابي:

نظرتُ إليها نظرةً ما وإِنْ كنت محتاجاً بها ألفُ

يَسـرُّنـي دِرْهَمِ

قال شيخ من بني نمير: نظرت إلى مولدةٍ باليمامة، فقالت: ملأت عينيك وملك غيرك.
وقال ذو الرمة:

على وجهِ مَيٍّ مِسْحةٌ من مَلاَحَةٍ وتحتَ الثِّيابِ العارُ لو كان بادياَ
ألم ترَ أنّ الماءَ يخبُثُ طعـمـهُ ولو كان لونُ الماءِ أَبيضَ صافياَ

وقال بعض الأعراب:

جزى الله البراقعَ من ثيابِ عن الفتيانِ شراً ما بَقِينـاَ
يوارينَ الملاَحَ فلا أرَاها ويوهِمْنَ القِبَاحَ فيزْدَهِيناَ

وقال آخر:

لقد أعجبَتْها نفسُها فتملّحـت بأيِّ جمالٍ ليتَ شِعْرِى تَمَلَّحُ

وقال إسماعيل القراطيسي:

وقد أتانِي خـبـرٌ راعـنـي مِنْ قولِها في السِّرِّ واضَيْعَتَاهْ
أمثلُ هذا يبتغى وصـلـنَـا أما يرى ذا وجهَهَ في المرَاةْ

وقال عباس بن الأحنف:

هَمّتْ بإتيانِنا حـتّـى إذا نـظـرتْ إلى المِرَاةِ نهاها وجهُها الحَـسَـنُ
ما كان هذا جزائِي من مَحاسِنِـهَـا أغَرتْ بِي الشَّوْق حتى شفَّني الشَّجَنُ

كان يقال: أربعة تزيد في البصر: النظر إلى الوجه الحسن، وإلى الخضرة وإلى الماء الجاري، والنظر في المصحف.
دخل الشعبي سوق الرقيق، فقيل له: هل من حاجة؟ فقال: حاجتي صورة حسنة، يتنعم فيها طرفي، ويلتذ بها قلبي، وتعينني على عبادة ربي.
أدام إبراهيم النظام النظر إلى جاريةٍ حسناء، فقال مولاها: أراك تديم النظر إليها، فقال: مالي لا أتأمل منها ما أحل الله، وفيه دليل على حكمة صنعة الله، ومعه اشتياق إلى ما وعد الله.
قال الحسن البصري: ينبغي للوجه الحسن ألا يشين وجهه بقبيح فعله وينبغي لقبيح الوجه ألا يجمع بين قبيحين.
قال الشاعر:

إنّ حُسْنَ الوجهِ يحتـا جُ إلى حُسْنِ فِعَـال
حاجةَ الصَّادِي من الما ءِ إلى العَذْبِ الزَّلاَلْ

باب جامع ذكر النساء وتزويج الأكفاء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"الدُّنيا كلها متاع، وخير متاع الدُّنيا المرأةُ الصالحة".
ويروى أن داود عليه السلام قال لابنه سليمان: يا بني! إن المرأة الصالحة كمثل التاج على رأس الملك، والمرأة السوء كمثل الحمل الثقيل على ظهر الشيخ الكبير.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المرأة كالضلع العوجاء؛ إن رفقت بها استمتعت منها" أخذه الشاعر فقال:

هي الضِّلَعُ العوجاءُ لستَ تُقِيمُها ألاَ إنّ تقويمَ الضلوعِ انكسارُها

قيل لبعض الأعراب: من تركت عند نسائك؟ فقال: حافظين: الجوع والعري، عرين فلا يظهرن، وجعن فلا يأشرن.
مما أوصى به محمد بن عبد الله بن حسين ابنيه، فقال: واعلما أن لن تسقط امرأة واظبت على ثلاث خلال: الماء والسواك والكحل فعليكما بهن.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم وخضراء الدمن. قالوا: وما خضراء الدمن؟ فقال: المرأة الحسناء في المنبت السوء". شبهها بنبات أخضر نضر نبت على دمنة، وهي الأبعار والأبوال تبلبل بعضها على بعض.
قال معاذ بن جبل: أخوف ما أخاف عليكم النساء، إذا تسورن الذهب، ولبسن عصب اليمن، ورباط الشام، فأتعبن الغنىّ وكلفن الفقير مالا يجد.
قال سمرة بن جندب: سمعت عمر بن الخطاب يقول: النساء ثلاث والرجال ثلاثة: امرأة عاقلة مسلمة عفيفة هينة لينة ودود ولود، تعين أهلها على الدهر، ولا تعين الدهر على أهلها، وقليلا ما تجدها. وأخرى وعاء للولد لا تزيد على ذلك، وأخرى غلٌ قملٌ يجعله الله في عنق من يشاء، ثم إذا شاء أن ينزعه نزعه.
وذكر الرجال بما قد ذكرته في باب ثلاثة.
قال منصور الفقيه:

أفضلُ ما نال الفَتَى بعد الهُدَى وَالْعَافِيَهْ
قرينةٌ مُـسْـلِمةٌ عفيفةٌ مـوَاتَـيهْ

ذكر ثعلب عن ابن الأعرابي، قال: قالوا: النساء خلقن من ضعف، فداووا ضعفهن بالسكوت، وعوراتهن بالبيوت.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تُنكح المرأة لمالها وحسبها وجمالها ودينها، فعليك بذوات الدين تربت يداك".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالأبكار؛ فإنهن أطيب أفواهاً، وأرتق أرحاماً، وإياكم والعجائز".
وروي عنه عليه السلام أنه قال: "أعظم النساء بركةً أحسنهنّ وجوها، وأرخصهن مهوراً".
وروي عنه عليه السلام أنه قال: "ترفقوا ولا تطلقوا، وانكحوا الأكفاء واختاروا لنطفكم، فإن العرق دساس".
كان يقال: إياكم ومناكحة الحمقاء، فإن صبحتها أذى ومناكحتها أذى".
قال أبو الأسود لبنيه: يا بني! قد أحسنت إليكم صغاراً وكباراً، وقبل أن تولدوا، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: التمست لكم من النساء الموضع الذي لا تعابون به.
وشوور بعض الحكماء في تزويجٍ، فقال للمشاور: يا ابن أخي! إياك أن تزوج لأهل دناءةٍ أصابوا من الدنيا، فإنك تشركهم في دناءتهم، ويستأثرون عليك بدنياهم. قال: فقمت عنه وقد اكتفيت بما قال لي.
كان يقال: لا تسترضعوا الحمقاء؛ فإن اللبن ينزع بالشبه إليها.
قال عمر بن الخطاب: لا تسكنوا نساءكم الغرف، ولا تعلموهن الكتابة، واستعينوا عليهن بالعرى.
قال عمر بن الخطاب رحمه الله: استعيذوا بالله من شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر.
وقال أيضاً: عليكم بالسراري؛ فإنا رأيناهن يأخذنَ بعز العرب وملك العجم.
قال علي بن أبي طالب: خيرُ نسائكم الطيبة الرائحة، الطيبة الطعام، التي إن أنفقت أنفقت قصدا، وإن أمسكت أمسكت قصدا، فتلك من عمال الله، وعامل الله لا يخيب.
قال علي بن أبي طالب: من أراد البقاء - ولا بقاء - فليخفف الرداء، وليباكر الغداء، وليقل مجامعة النساء. قيل له: وما خفة الرداء؟ قال: الدين. ثم قال: المرء بجدّه والسيف بحدّه، والثناء بعد البلاء.
قال عمرو بن العاص: الناكح مغترس، فلينظر امرؤ حيث يقع غرسه.

قال المغيرة بن شعبة: صاحب المرأة الواحدة امرأة مثلها، إن بانت بان معها، وإن حاضت حاض معها، وإن مرضت مرض معها، وصاحب المرأتين على جمرتين، وصاحب الثلاث على رستاق، وصاحب الأربعة كل ليلةٍ عروس، أخذه الشاعر فقال:

وصاحبُ ضرتَّينِ على الليالـي — كما قد قيل بين الْجَـمْـرَتَـيْنِ
رضَا هذِى يُهيَجّ سُخْط هَـذِى — فما يَعْرَى من إحدَى السَّخْطَتين

دخل أعرابي على الحجاج فسمعه يقول: لا تكمل النعمة على المرء حتى ينكح أربع نسوة يجتمعن عنده، فانصرف الأعرابي فباع متاع بيته، وتزوج أربع نسوة، فلم توافقه منهن واحدة، خرجت واحدة حمقاء رعناء، والثانية متبرجة، والثالثة فارك أو قال فروك، والرابعة مذكرة، فدخل على الحجاج فقال: أصلح الله الأمير، سمعت منك كلاماً أردت أن تتم لي به قرة عين؛ فبعت جميع ما أملك، حتى تزوجت أربع نسوةٍ، فلم توافقني منهن واحدة، وقد قلت فيهن شعراً، فاسمع مني، قال: قُل. فقال:

تزوجتُ أبغي قُرّةَ العينِ أربَـعـا — فياليتَ أنّـى لـم أكـن أتـزوَّجُ
وياليتنى أَعْمَى أصـمٌّ ولـم أكُـنْ — تزوجتُ بل ياليت أنى مُـخَـدَّجُ
فواحدةٌ ما تعرفُ الـلـه ربَّـهـا — ولا ما التُّقَى تدري وَلا ما التَّحرُّجُ
وثانيةٌ ما إن تـقـرَّ بـبـيتـهـا — مذكّرة مشـهـورة تـتـبـرَّجُ
وثالثة حمقاءُ رَعْـنَـا سـخـيفةٌ — فكل الذي تأتي من الأمر أعـوجُ
ورابـعةٌ مـفـروكةٌ ذاتُ شِـرَّةٍ — فليستْ بها نفسي مَدَى الدهر تُبْهَجُ
فهنَّ طـلاقٌ كـلُّـهُـن بـوائنُ — ثلاثاً ثلاثاً فاشْهَدُوا لا تلجلـجـوا

فضحك الحجاج حتى كاد يسقط من سريره، ثم قال له: كم مهورهنّ؟ قال: أربعة آلاف درهم. فأمر له بثمانية آلاف درهم.

قال أكثم بن صيفي لبنيه: يا بني لا ينكبنكم جمال النساء عن صراحة النسب، فإن المناكح الكريمة مدرجة للشرف.

روى أسامة بن زيد، عن نافع، عن ابن عمر: أن عبد الله بن رواحة وقع على جارية له، فاتهمته امرأته، فقال: ما فعلت. فقالت: فاقرأ القرآن إذاً. فقال:

وفينا رسولُ اللهِ يتـلـوُ كـتـابَـهُ — كما انشقّ مشهورٌ من الصبح سَاطِعُ
أتانا الهُدى بعد العَمى فقـلـوبُـنَـا — به موقنـات أن مـا قـال واقـعُ
يبيتُ يجافى جنبـه عـن — إذا استثقلَتْ بالهَاجعينَ

فِـرَاشـه المضـاجـعُ

فقالت: أولى لك. وفي رواية أخرى في هذه القصة أنها لما قالت له: فاقرأ إذاً شيئاً من القرآن، قال:

سمعتُ بأنّ وعدَ اللـه حـقٌّ وأن النَّار مثوى الكاَفِرينـا
وأن العرشَ فوقَ الماءِحقٌّ وفوقَ العرشِ ربُّ العالَمِينا

قالت: ما شاء الله! كذبتِ عيني، وأنت الصادق. أو نحو هذا.
قال المغيرة بن شعبة: إذا كان الرجل مذكراً والمرأة مذكرة تصادما العيش، وإذا كان الرجل مؤنثا والمرأة مؤنثة ماتا هزلاً، وإذا كان الرجل مؤنثاً والمرأة مذكرة كان الرجل هو المرأة، والمرأة هي الرجل، وإذا كان الرجل مذكراً والمرأة مؤنثة طاب عيشهما.
قال الحسن: إياكم وسمنة البنات، فإن كنتم لابد فاعلين، فاحفظوهن.
قال إياس بن معاوية: من يمن المرأة الولد، ومن بركتها مياسرتها في المهر.
كان يقال: لا تزوج كريمتك إلا من عاقل، فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها أنصفها.
قال غيره: لا تزوج وليتك إلا من ذي دين، فإن أحبها أحسن إليها، وإن أبغضها لم يظلمها.
روى أبو العباس عن الأصمعي قال: قال أعرابي لامرأته: صفيني بما تعلمي مني ولا تكتمي. فقالت: أما والله إن كنت لخفيفاً على ظهر الفرس، ثقيلاً على العدو، ضحوكاً مقبلا، كسوباً مدبراً، لا تشبع ليلة تضاف، ولا تنام ليلة تخاف.
وعن الأصمعي أيضاً، قال: هلك رجل من العرب، فقيل لامرأته: صفي بعلك، فقالت: والله إن كان - فيما علمت- لضحوكاً إذ ولج، كسوباً إذا خرج، آكلا ما وجد، غير سائل ما فقد.
قال الأصمعي، قال الحسن: كان أهل الجاهلية إذا خطب الرجل المرأة تقول: ما حسبه، وما حسبها؟ فلما جاء الإسلام، قالوا: ما دينه، وما دينها؟ وأنتم اليوم تقولون: ما ماله، وما مالها؟.
قال الشاعر:

لا يأمننَّ على النسـاءِ أخٌ أَخَـا ما في الرجالِ على النساءِ أَمينُ
إن الأمينَ وإنْ تحفّـظَ جَـهْـدَهُ لابدّ أنّ بنـظـرةٍ سـيخـونُ

قيل لبعضهم: ما تقول في الباه؟ قال: عندي ما يقطع حجتها، ولا يقضي حاجتها.
قيل لمدني: ما عندك من هذا الأمر؟ قال: إن منعت غضبت، وإن تركتُ عجزت.
قيل لآخر: ما عندك للنساء؟ قال: أطيل الظمأ، ثم أرد فلا أشرب.
مرت بعيسى بن موسى جاريةٌ، فقام إليها فصرعها، فلما رامها عجز عنها فقال:

القلبُ يطمعُ والأسبابُ عاجـزةٌ والنفسُ تهلكُ بين العجزِ والطمع

كان يقال: لعن كل فاجر عند الجماع!!.
قالوا: لذة المرأة على قدر شهوتها، وغيرتها على قدر محبتها.
تزوج رجل - وهو روح بن زنباع -أم جعفر بنت النعمان بن بشير، زوجها له عبد الملك بن مروان، وقال: إنها جارية حسناء، فاصبر على بذاء لسانها، فصحبها ثم أبغضها. فمن قوله فيها:

ريحُ الكرائِم معروفٌ لَهَا أَرَجٌ وريحُها ريحُ كلبٍ مسَّهُ مطرُ

وقد هجته هي أيضاً، فمن قولها فيه:

بكى الخَزُّ من رَوْحٍ وأنكرَ جلْـدَهُ وعجَّتْ عجيباً من جُذامَ المطارِفُ

قال بعض الأعراب:

من منزلي قد أخْرجتنِي زوجَتِي تهرُّ في وجْهِي هَرِيَر الكلـبةِ

زُوِّجتُها فقيرةً منْ حِـرْفَـتِـي قلتُ لها لمّا أراقَتْ جَـرَّتِـي
أمّ هلالٍ أبْشري بالحسـرةِ وأبْشري منّي بوقع الضرّةِ

خطب النوار بنت أعين بن ضبعة المجاشعية رجل من قيس، فجعلت العقد عليها إلى الفرزدق، وكان أبوها قتلته الخوارج أيام الحكمين، وكان علي رضى الله عنه بعثه إلى البصرة، فقال لها الفرزدق: أشهدي لي أنك جعلت أمرك إلى فإني أخاف من هو أقرب إليك مني من أوليائك. فأشهدت له. فأنكحها الفرزدق من نفسه، وأشهدهم، فلم ترض النوار، فتنازعا. فخرجا إلى عبد الله بن الزبير، وكان العراق والحجاز يومئذ إليه. فتشفعت النوار يومئذ بخولة بنت منظور بن زبان الفزاري، وتشفع الفرزدق بابنها حمزة بن عبد الله بن الزبير، فأنجحت خولة وشفّعها زوجها ابن الزبير وقال الفرزدق: لا تقربها حتى تصير إلى البصرة فتحكم معها إلى عاملي بها، فقال الفرزدق:

أمّا بِنوه فلم يقبلْ شفاعَتَـهـمُ وشّفعوا بنتَ منظورِ بنِ زَبَّانَا
ليس الشفيعُ الذي يأتِيكَ مُئْتَزِراً مثلَ الشفيعِ الذي يأتيك عُرْيَانَا

خطب العريان بن الهذيل البرجمي امرأةً، فكان أصم وكانت عوراء، فقالت: تسأل عنا ونسأل عنك، فقال:

فإن تسألِي عنّا وَعَنْكِ فإنَّنا كِلانَا به داءٌ أصمَّ وأعْورَا

فقالت: أمّا إذ عرفت الداء فاجلس، فبعثت إلى وليها فزوجها إياه.

قال الأصمعي:قيل لأعرابي: من لم يتزوج امرأتين لم يذق لذة العيش، فتزوج امرأتين ثم ندم، فقال:

تزوجتُ اثنتين لفرطِ جَهْـلـي بما يَشْقَى به زوجُ اثـنـتـين
فقلتُ أصِيرُ بينهمـا خـروفـاً أنَّعم بين أكـرمِ نـعـجـتـينِ
فصرتُ كنعجةٍ تُمْسِى وتُضْحِى تَرَدَّدُ بـين أخـبـثِ ذئبـتـينِ
رضى هَذِى يهيّجُ سُخطْ هـذى فما أعْرَى من إحدى السّخْطتينِ
وألْقَى في المعيشة كـلَّ بُـوسٍ كذاك المرءُ بين الضّـرَّتـينِ
لَهذِى ليلةُ ولـتـلـك أُخـرْى عِتابٌ دائمٌ فـي الـلـيلـتـينِ

وقال الغزال:

إن الفتاةَ وإن بَدَا لك حبـهُّـا فبقلبها داءٌ عـلـيكَ دفـينُ
وإذا ادّعين هوى الكبير فإنّما هو للكبير خديعةٌ وقُـرُونُ
وإذا رأيتَ الشيخَ يهوىَ كاعباً فَعَلَيْه من دركِ القُرُون دُيُونُ

وقال الغزال أيضاً:

أنا شيخٌ وقلتُ في الشيخ مَا يَعْ لمُـه كـلُّ أبْـلـهٍ وذَهِـينِ
كلُّ شيخ تراه يكثر من كـس ب الجوارِي فخذه لي بالقرونِ

قال الأحنف بن قيس: إذا أردتم الحظوة عند النساء فأفحشوا في النكاح، وأحسنوا الأخلاق.
قيل لأعرابي: ما تقول في نساء طيى؟ قال: إذا شئت. قيل: فما تقول في نساء ضبة؟ قال: نك ودحرج.
روى عن النبي عليه السلام أنه قال: "النساء حبائل الشيطان".
قال معاوية: ما رأيت منهوماً في النساء إلا رأيت ذلك في ضعف منته.
قال عبد الملك: من أراد النجابة فبنات فارس، ومن أراد النكاح فبنات البربر، ومن أراد الخدمة فالروميات.
قال سعيد بن المسيب: ما عرفنا أولادنا حتى عرفنا بنات فارس.
قال أبو هلال الراسبي: جاء رجل إلى أهله بجزر، فقال: يا هذه! اطبخيه أو اشويه وكليه، فإن المطبوخ جيد للبطن، والمشوي جيد للظهر، والنّئ جيد للجماع، قالت: ليس عندنا نار فكله.
غاضب رجلٌ امرأته ثم ترضاها، فلجت فكابرها حتى جامعها، فقالت: أخزاك الله، كلما وقع بيني وبينك شيء جئتني بشفيع لا يمكنني رده.
قال الشاعر أيمن بن خريم:

لقيتُ من الغانياتِ العُجَـابَـا لو أدركَ منى العَذَارى الشَّبابَا
ولكنّ جِمَاعُ العذاري الحِسَانِ عذابٌ شديدٌ إذا المرءُ شابـاَ
يُرَضْنَ بكلِّ عَـصَـا رائضٍ ويُصْبحْنَ كلَّ غداةٍ صِعَـابـاَ
عَلاَمَ يكَحِّلْن حور الـعُـيونِ ويُحْدثْنَ بعد خَضابٍ خِضَابـاَ
ويبرُقْنَ إلاّ لما تَـعْـلَـمُـون فلا تحْرِمُوا الغانياتِ الضّراباَ
فلو كِلْتَ بالمُدِّ للـغـانـياتِ وظاهَرْتَ بعد الثيابِ الثيابـاَ
ولم تُنِلْهُـنّ مـن ذاك قُـرْبـاَ كأنَّك حَدَّثْـتَـهُـنّ الـكـذَابَـا
إذا لم يُخَالَطْـنَ كـلَّ الـخِـلاَ طِ أصْبَحْنَ مُخْرَ نْطِماتٍ غِضاباَ
يميتُ العتابَ خِلاَطْ الـنـسـاءِ ويُحْيى اجتنابُ الخلاطِ السِّبَابـاَ

قضى سلمان بن ربيعة على رجل بأن يأتي امرأته في كل أربع ليلة، فرضى ذلك عمر، وجعله قاضياً بالكوفة، وخبره مشهور قد ذكرناه في مواضع.
وروى يعقوب بن طلحة، وإسحق بن محمد السني أن عمر بن الخطاب شكت إليه امرأة أن زوجها لا يأتيها إلا في كل طهر مرة، فقال لها: ليس لك غير ذلك ولا كرامة.
روى عن أبي هريرة، وبعضهم يرويه مرفوعاً: أنه قال: فضلت المرأة على

الرجل بتسعةٍ وتسعين جزءاً من اللذة، أو قال من الشهوة، ولكن الله ألقى عليهن الحياء.
قال المأمون: النساء شر كلهن، وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن.
قال غيره: الصبر عنهن أهون من الصبر عليهن.
قال معاوية: هن يغلبن الكرام، ويغلبهن اللئام.
كان يقال: النكاح فرح شهر، وغم دهر، ووزن مهر، ودق ظهر.
ودخل معاوية بن أبي سفيان على ميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد، ومعه خديج الخصى فاستترت منه، فقال لها معاوية: إن هذا بمنزلة المرأة، فعلام تستترين منه. فقالت: كأنك ترى المثلى به أحلت له مني ما حرم الله.
كان محمد بن حسين يقول: اللهم ارزقني امرأة تسرني إذا نظرت، وتطيعني إذا أمرت، وتحفظني إذا غبت.
قالت أسماء بنت أبي بكر: النكاح رق النساء، فلتنظر المرأة عند من تضع رقها.
ضرب عبد الملك بن مروان بعثاً إلى اليمن، فأقاموا سنين، جنى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق، قال: والله لأعسن الليلة مدينة دمشق، ولأسمعن ما يقول الناس في البعث الذي غربت فيه رجالهم، وغرمت فيه أموالهم.
فبينما هو في بعض أزقتها إذا هو بصوت امرأة قائمة تصلي، فتسمع إليها، فلما انصرفت إلى مضجعها قالت: اللهم يا غليظ الحجب، ويا منزل الكتب، ويا معطي الرغب، ويا مؤدي الغرب. أسألك أن ترد غائبي، فتكشف به همي، وتصفي به لذتي، وتقر به عيني، وأسألك أن تحكم بيني وبين عبد الملك بن مروان الذي فعل بي هذا، فقد صير الرجل نازحاً عن وطنه، والمرأة مقلقةً على فراشها، ثم أنشأت تقول:

تطاول هذا اللّيلُ فالـعـينُ تـدمَـعُ	وأرّقني حُزْنِي وقلـبِـيَ مُـوجَـعُ
فبتّ أقاسي الليلَ أرعَى نـجـومَـهُ	وباتَ فـؤادي هـامـداً يتـفـزّعُ
إذا غابَ منها كوكبٌ في مـغـيِبـهِ	لمحتُ بعيني آخراً حـين يطـلـعُ
إذا ما تذكرتُ الذي كـان بـينَـنَـا	وجدتُ فؤادي للهَـوَى يتـقـطّـعُ
وكلُّ حـبـيبٍ ذاكـرٌ لـحـبـيبِـهِ	يرَجِّى لِقـاهُ كـلّ يومٍ ويطـمـعُ
فذا العرشِ فُرج ما ترى من صَبابتي	فأنت الذي ترعى أموري وتسمـعُ
دعوتُك في السّراءِ وَالضُّـرِّ	على غُلة بين الشراشـيف

دعـوةً تـلْـذَعُ

فقال عبد الملك لحاجبه: تعرف لمن هذا المنزل؟ قال: نعم، هذا منزل زيد بن سنان. قال: فما المرأة منه؟ قال: زوجته. فلما أصبح سأل كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالوا: ستة أشهر. فأمر ألا يمكث العسكر أكثر من ثلاثة أشهر.

قال سليمان بن داود صلى الله عليهما: يا بني! لا تكثر الغيرة على أهلك من غير ريبة، فترمى بالشر من أجلك وإن كانت بريئة.

قال طفيل الغنوي:

إنّ النساءَ كأشجارٍ نَبَتْـنَ مـعـاً	منها المُرَارُ وبعضُ المرِّمأكولُ
إن النساءَ متى يُنْهَيْنَ عن خُلُـقٍ	فإنّه واجبٌ لابـدَّ مـفـعـولُ

وجد صبي منبوذ في بعض مساجد أصفهان، ومعه صرة فيها مائة دينار، ورقعة مكتوب فيها: هذا جزاء من لا يزوج ابنته.

كان رجل من أهل الشام مع الحجاج بن يوسف يحضر طعامه، فكتب إلى أهله يخبرهم بما هو فيه من الخصب، وأنه قد سمن، فكتبت إليه امرأته:

أتُهدى ليَ القرطاسَ والخبزُ حاجتي	وأنتَ على بابِ الأمـيرِ بـطـينُ
إذا غبتَ لم تذكُر صديقاً وإن تُقِـمْ	فأنت على ما في يديك ضـنـينُ
فأنت ككلبِ السُّوءِ جـوَّعَ أهـلَـه	فيهزلُ أهلُ البيت وهو سـمـينُ

لأبي عيينة المهلبي في رجل من قومه، تزوج امرأة قد تزوجت قبلة مائة زوج فماتوا عنها:

رأيتَ أثاثها فرغـبـت فـيه	وكم نصبتْ لغيرك بالأثـاث
إلى دارِ المنُون فرحّلَـتْـهـم	بأجنحةٍ تطيرُ بهـم حِـثـاثِ
فصيّر أمرَها بـيديّ كَـمـيْا	أبتُّ حبالها لك بـالـثـلاثِ
وإلاّ فالسلامُ علـيك مِـنّـى	سآخذُ من غدٍ لك في المراثي

قال إسحاق الموصلي، أنشدني ابن كناسة لنفسه:

لقد كان فيها للأمانِة موضعٌ	وللسِّرِّ كتمانٌ وللعينِ منظرُ

فقلت: ما بقى؟ فقال: أين الموافقة.

قال ابن المقفع: وطءُ العجوز وأكل القديد يهرم.

قال الشاعر:

لا تَنكِحَنّ عجوزاً إن دَعَوْكَ لها	ولو حَبَوْكَ على تزويجها الذَّهَبَا
وإنْ أَتَوْك فقالوا: إنّها نَصَـفُ	فإنّ أَطيبَ نصفيها الَّذي ذَهَبَـاَ

كتب رجل إلى صديق له نكح عجوزاً:

أمسكتَ نفسَكَ حتى إذا أتيتَ على الخمسِ والأرْبَعِينَا
تزوجتَها شارفاً فَخْمَةً فَلاَ بالرِّفَاءِ ولا بالبنينَا
فلا ذاتُ مالٍ تزوجْتَها ولا ولدٍ تَرْتجي أن يكوناَ
بِهَا أبداً فالتمسْ غيرها لعلَّك تُعْطَى بَغثٍ سميناَ

قال دعبل، ويقال: إنها لأبي دلف:

تعجَّبَتْ إذ رأتْ شيبي فقلتُ لها لا تعجبي، من يطل عمرٌ بهِ يُشِبِ
شيبُ الرجالِ لهم زينٌ وَمكْرُمةٌ وشيبُكُنّ لكنَّ الويلُ فاكتئبي
فينا لكنَّ وإن شيبٌ بدا أربٌ وليس فيكنّ بعد الشيب من أَرَبِ

ولبعض الأعراب:

عجوز تُرَجّى أن تكونَ صبيةً وقد شابَ منها الرأسُ واحدودب الظهر
تَدُسُّ إلى العطار ميرةَ أهلِهَا وَهَلْ يصلح العطارُ ما أفسد الدهر؟

وقال امرؤ القيس:

أراهُنّ لا يُحْبِبْنَ من قلَّ مالُه ولا مَنْ بدا في عارضَيْهِ مشيبُ

وقال آخر:

كَفَاكَ بالشيب ذنباً عند غانيةٍ وبالشَّبَابِ شفيعاً أيُّها الرَّجُلُ

وقال الأعشى:

وأرى الغوانِي لا يُواصلن امْرَءا فقد الشبابَ وقد يَصِلْنَ الامْرَدَا

وقال علقمة بن عبدة:

فإن تسألُوني بالنساءِ فإنّني بصيرٌ بأدواء النساءِ طبيبُ
إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلَّ مالُه فليس له في وُدِّهِنّ نصيبُ
يُردْنَ ثراءَ المالِ حيثُ علمنَهُ وشرخُ الشبابِ عندَهُنّ عجيبُ

قال منصور الفقيه:

إذا ما استحَرَّ ولم يتَّسِعْ ولم يكُ رَطْباً ولا يابساً
وحلَّ وأمكَنَ من نفسِهِ فنبِّه له جَارَكَ النّاعِساَ

وقال منصور النمري:

ما واجه الشيبَ من عين إلاّ لها نبوةٌ عنه ومرتَدعُ

وإن وَمِقَتْ

وقال حبيب:

أحْلى الرجالِ من النساءِ مواقعاً ... من كان أشبههم بهنّ خُـدودَا

وقال آخر:

أرى شيب الرجال من الغوانِي ... بموقع شيبهنّ من الـرّجَـالِ

شاورَ رجلٌ رجلا في النكاح، فقال له: إيّاك والجمالَ الفائق، فإن الشاعر قال:

ولن تصادِفَ مرعًى مُونقاً أبداً ... إلاّ وجدتَ به آثارَ مـأكُـولِ

قال آخر:

لا تأمنَنْ أُنْثى حبَتَك بودّهـا ... إن النساءَ ودادُهُنّ مُقَـسَّـمُ

اليومَ عندك دَلُّهَا وحديثُـهـا ... وغداً لغيِرك كفَهُّا والمعصمُ

وقال ابن هبيرة:

يا راعى الذَّودِ لا تَرْحل لِمكْرُمَةٍ ... إنّ القلاصَ إذا ما غَابَ رَاعيها

لم يَثْنِها أَحدٌ دون الفحـولِ فـلا ... تهملْ قلوصَكَ إمّا كنت تَحميِها

ولا تَلمُهَا على وِرْدٍ وقد ظَمِئَتْ ... لو شئتَ أَرْوَيْتها إذْ كنتَ سَاقيِها

احُظرْ مشاربَها، واحففْ جوانبِها ... وارْمُمْ مذاهِبَها، تسلم قَوَاصِيها

خليّتَها لفحولٍ غير فـاخـرةٍ ... في كلَ برِيَّةٍ قفْرٍ فَيَافِـيهـا

حتى إذا أَخْدَجَت في كل منزلةٍ ... بكيتَ، أبْكى إلهي عينَ مُبْكيِها

باب الأمثال السائرة في النساء

لا تحمد الحرة عام هدائها، ولا الأمة عام شرائها.

من ينكح الحسناء يعط مهراً.

من يمدح العروس إلا أهلها?.

لكل فتاة خاطب، ولكل أمر طالب.

كل ذات دل تختال.

كاد العروس أن يكون أميراً.

وليس لمخضوب البنان يمين.

لا تسد الثغور بالمحصنات.

قال الشاعر:

كُتِبَ القتلُ والقتالُ عـلـينـا ... وعلى المُحْصَنَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

وهذا الشعر لعبد الرحمن بن حسان، وذلك أنه كانت عند المختار بن أبي عبيد امرأتان، إحداهما أم ثابت بنت سمرة بن جندب، والأخرى عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاري، فعرضهما مصعب على

البراءة من المختار، فأما بنت سمرة فتبرأت منه فخلاها، وأما الأنصارية فامتنعت فقتلها، فقال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت في ذلك:

إنّ من أعجبِ العَجائبِ عِندِي	قتلُ بيضاءَ حرةٍ عُطـبـولِ
قُتِلَتْ باطلاً على غير جُـرْمِ	إن للهِ دَرَّهَا مـن قـتـيلِ
كُتبَ القتلُ والقتالُ عـلـينـاً	وعلى الغانياتِ جَرُّ الـذُّيولِ

النساء بالنساء أشبه من الماء بالماء، ومن الغراب بالغراب، ومن الذئاب بالذئاب. كل غانية هند.
نعم لهوُ المرأة المغزل.
البياض نصف الحسن، والعجيزة أحد الوجهين.
لا عطر بعد عروس. أخذه الشاعر فقال:

من كان يبكى لِمَا بِـي	من طولِ وَجْدٍ رَسيسِ
فالآنَ قبـلَ وفـاتِـي	لا عِطْرَ بعد عَرُوسِ

العوان لا تعلم الخمرة.
لما زوج أسماء بن خارجة ابنته، دخل عليها ليلة بنائها، فقال: يا بنية، إن كان النساء أحق بتأديبك، ولا بدّ من تأديبك، كوني لزوجك أمةً يكن لك عبداً، ولا تقربي منه جداً فيملك أو تمليه، ولا تباعدي عنه فتثقلي عليه، وكوني له كما قلت لأمك:

خُذِي العَفْوَ منّى تستديمي مـودّتـي	ولا تنطقي في سوْرَتِي حينَ أغضبُ
ولا تَنْقُرِيني نَـقْـرَةَ الـدُّفِّ مَـرَّةً	فإنّك لا تدرِين كـيفَ الْـمُـغَـيّبُ
فإنّي رأيتُ الحبّ في القلـب والأذى	إذا اجتمعا لم يَلْبث الحـبُّ يذهـبُ

بابُ اللّباس

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الحريرُ حلالٌ لباسةُ لإناث أمتي، حرامٌ على ذكورها".
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّما يلبس الحريرُ من لا خلاق له في الآخرة".
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لبس ثوبَ شهرةٍ وعزةٍ في الدنيا أكسبه الله ثوب مذلة يوم القيامة".
سئل عمر بن الخطاب عن لبس الحرير للنساء، فقال: هن لعبكم؛ فزينوهن بما شئتم.
وروى مرفوعاً أيضاً: "من ليس منظوراً، وركب مشهوراً، لم يزل الله عنه معرضاً، وإن كان عليه كريماً".
قال عبد الله بن عمر: من لبس ثوب شهرة أعرض الله عنه وإن كان ولياً.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه، لا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين، ما أسفل من ذلك في النار، لا ينظر الله عزّ وجل إلى من جرّ ثوبه خُيَلَاَء".
ولما ذكر الإزار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت أم سلمة: إذاً ينكشف عنها. قال: "فذراعٌ لا تزيد عليه".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كم من كاسيةٍ في الدنيا، عاريةٍ يوم القيامة".
وقال صلى الله عليه وسلم: "كاسياتٌ عاريات، مائلاتٌ مميلاتٌ، لا يدخلن الجنة ولا يجدنَ ريحها" وريحها يوجد من مسيرة خمس مائة عام.
كان يقال: كل من الطعام ما اشتهيت، وألبس من الثياب ما اشتهى الناس.
نظمه الشاعر، فقال:

إن العيونَ رَمَتْك مُذ فَاجَأتَـهَـا	وعليك من شَهْرِ اللِّباسِ لبـاسُ

أمّا الطعامُ فكلْ لنفسك ما اشتهتْ — واجعل لباسَك ما اشتهاه النـاسُ

ويروى:

أمّا الطعام فكل لنفسك ما اشتهتْ — والبس لباساً يَشْتهـيه الـنـاسُ

وقال هلال بن العلاء الرقي:

أجِدِ الّثيابَ إذا اكتسيتَ فإنّهـا — زينُ الرجالِ بها تُهاب وتُكْرَمُ

ودع التَّواضُعَ في اللّباس تحرّياً — فاللهُ يعلم ما تجنُّ وتـكـتـمُ

فَدَنِيّ ثوبِـك لا يزيدُك زُلْـفَةً — عند الإله وأنت عبدٌ مُـجْـرِمُ

وبهاءُ ثوبِك لا يضرُّك بعد أنّ — تخشى الإله، وتَتّقى ما يَحْرُمُ

كان بكر بن عبد الله المزني، يقول: البسوا ثياب الملوك، وأميتوا قلوبكم بالخشية.

وقال الحسن: إن قوماً جعلوا خشوعهم في لباسهم، وكبرهم في صدورهم، وشهروا أنفسهم بلباس هذا الصوف، حتى إن أحدهم بما يلبس من الصوف أعظم كبراً من صاحب المطرف بمطرفه.

قال الوليد بن مزيد: كان الناس عندنا يلبسون الأردية، وكان الأوزاعي يلبسها، فترك الناس لبسها ولبسوا السيجان، فرأيت الأوزاعي قد ترك لبس الأردية ولبس الساج، فقلت له: يا أبا عمرو! كنت تلبس الأردية فتركتها ولبست الساج، فما الذي دعاك إلى ذلك، فقال: يا ابن أخي! رأيت الناس يلبسون الأردية فلبستها معهم، وتركوها فتركتها معم، ولبسوا السيجان فلبست معهم، ولو عادوا إلى الأردية لعدت معهم.

قال سفيان بن حسين: قلت لإياس بن معاوية: ما المروءة؟ قال: أما في بلدك فالتقوى، وأما حيث لا تعرف فاللباس.

روى بقية عن الأوزاعي، قال: بلغني أن لباس الصوف في السفر سنة، وفي الحضر بدعة.

كان النبي صلى الله عليه وسلم، يحب من الألوان الخضرة ويكره الحمرة، ويقول: "هي زينة السلطان".

قال مالك بن الأشتر لعلي بن أبي طالب: تمام جمال المرأة في خفها، وتمام جمال الرجل في عمامته.

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسامة بن زيد في بعض السرايا فعممه بيده وسدل طرف عمامته.

قيل لأعرابي: إنك لتديم لبس العمامة؟ قال: إن عضواً فيه السمع والبصر

لحقيق أن يوقى من الحر والقر.
روى عن النبي عليه السلام، أنه قال: "الشعر الحسن كسوة الله، فأكرموه".
وقال عليه السلام لأبي قتادة: "رجل جمتك وأحسن إليها وأكرمها".
قال أبو هريرة: إذا كان في الرجل ثلاث فهو الكامل، إذا فخر في المجلس وأحسن جوابات الكتب، وأحسن كور العمامة.
روى الرياشي وأبو حاتم عن الأصمعي، قال: ألا أدلك على لباس إن لبسته كان سريا، وإن رفعته كان بهيا، وإن ذخرته كان طرياً؟ قال: نعم. قال: عليك بالتقوى. قال: ألا أدلك على خليلٍ إن صحبته صانك، وإن احتجت إليه مانك، وإن تجرت به أربحك، وإن ترحلت به حملك؟ قال: نعم. قال: عليك بالأدب. ثم قال: ألا أدلك على بستانٍ تكون منه في أكمل روضة، وميت يخبرك عن المتقدمين، ويذكرك إذا نسيت، ويؤنسك إذا استوحشت، ويكف عنك إذا سئمت؟ قال: نعم. قال: عليك بالكتاب.
قالت ابنة العوام أخت الزبير لزوجها حكيم بن حزام - وكان كثير المال -: مالك لا تلبس لباس الناس اليوم؟ قال: وما تنكرين من لباسي، وإزاري قطري، وردائي مغافري، وقميصي سابري، وعمامتي خرقانية.
نظر بعض الأمراء إلى رجلٍ في أطماره فازدراه، فقال له: أصلحك الله، لا تنظر إلى هيئتي، ولكن انظر إلى همتي، فأنا - والله - كما قال عبد الله بن زياد:

فإنْ أَكُ قَصْداً في الرجالِ فإنّني إذا حلَّ امرؤٌ ساحتي لجسـيمُ

وكما قال الآخر:

لا تنظرنّ إلى الثيابِ فـإنّـنـي خَلِقُ الثِّيَاب، من المُروءةِ كاَسِي

أنشد ثعلب:

وإنما الشّعر عقلٌ أنت تَعْرِضـه على المجالس إنْ كَيْساً وإن حُمُقا
وإنّ أشعرَ بـيتٍ أنـت قـائُلـهُ بيتٌ يقالُ إذا أنشَدتَـه صَـدَقـا
البس جديدَك إنّي لابسٌ خَلَـقـي ولا جديدَ لمن لا يلبسُ الخَلَـقـا

قال عبد الله بن المبارك: مخامر الرجال في اللحى والأكمام، ومخامر النساء تحت القمص.
وأنشد غير واحد للشافعي رحمه الله تعالى:

علّى ثيابٌ لو تباعُ جمـيعُـهـا بفَلْسٍ لكان الفَلْسُ منهنّ أكثّـرا
وفيهنّ نفسٌ لو يقاسُ نقوسُ الورى كانت أجلَّ

ببعضها وأكبراَ

وأخذ هذا المعنى ابن أبي الفضل البصري الشاعر يخاطب المتنبي، فقال:

لئن كان ثوبي فوقَ قيمته الفَلْسُ فلي فيه نفسٌ دون قيمتها الإِنسُ
فثوبُك بدر تحت أنـواره دُجًـي وثوبَي ليلٌ تحتَ أطمارِه شمسُ

وسبق إلى هذا المعنى ابن هرمه، فقال:

قد يدركُ الشرفُ الفَتَى ورِدَاؤُهُ خَلَقٌ وجَيبُ قميصِهِ مرقـوعُ

كان القاسم بن محمد يلبس الخز، وسالم بن عبد الله يلبس الصوف، وكانا يتجالسان في المجلس ويتحدثان الدهر، لا ينكر واحد منهما لباس صاحبه.
نظر ابن المبارك ببغداد إلى رجل عليه ثياب صوف لا تخالطها غيرها، فقال من هذا؟ فقيل له: هذا أبو العتاهية الشاعر، فكتب إليه ابن المبارك:

أيُّها القارئ الذي لبس الصُّو ف وأضحى يُعَدُّ في العُبّادِ
الْزَمِ الثَّغْرَ والتعـبُّدَ فـيه ليس بغدادُ موضعَ الزُّهَّادِ
إن بغدادَ للملـوكِ مـحـلٌّ ومناخ للقارئ الـصَّـيَّادِ

وقال محمود الوراق:

تصَوَّف فازْدَهَي بالصُّوف جَهْلاً وبعضُ النّاسِ يَلْبَسهُ مَجـاَنَـه
يُريكَ مَهَـانَةً ويُجِـنّ كِـبْـراً وليس الكبر من شكل المَهَانَـه
تصنّع كـيْ يُقـال لـه أمـين وما معنَى التَّصَنُّع للأَمَـانْـه
ولـم يردِ الإلَـه بـه ولـكـنْ أرادَ به الطريقَ إلى الخيَانَـهْ

وقال آخر:

وثياب المرء جِلْوا زٌ له بَـيْنَ يديَهْ

وقال آخر:

لا يعجبنّك من بَصُون ثـيابَـهُ حَذَرَ الْغُبَارِ وَعِرْضُهُ مَبْذولُ
ولربّما افتقرَ الفتى فـرأيَتـهُ دنسَ الثيابِ وعِرْضُهُ مَغسُولُ

أنشدني إبراهيم بن محمد، قال: أنشدني أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي لنفسه في أبي مسلم ابن فهد الهذلي الإشبيلي، وذكر حكاية عرضت له معه:

أبا مُسْلم إنّ الـفَـتَـى بـجَـنَـانِـهِ ومِقْوَلِهِ لا بالمـراكـبِ والـلُّـبْـسِ
وليسَ ثيَابُ المرءِ تُـغْـنِـى قُـلاَمةً إذا كان مقصوراً على قِصَرِ النَّفْـسِ
وليس يُفيدُ العلمَ والحلـمَ أبا مُسْلمٍ طولُ القُعود على

والُّـتـقـى	الكُرْسِـي
ولا تُبْتني الـعـلـيا بـكـأسٍ وقـينةٍ	وصهباءَ لم تَنْغَرْ بها القِدْرُ كالـوَرْسِ
أعيَّرْتَني أن لـم أفـرِّه مَـطِـيَّـتي	وأنّ ثيابِي غيرُ بـيضٍ ولا مُـلْـسِ
فربَّ ثيابٍ رثّة حـشـوُها فـتـىً	أجدُّ مُمِرٌّ غيرُ فَـسْـلٍ ولا نِـكْـسِ
وآخرُ بَـرَّاقُ الـثـيابِ وعِـرْضُـهُ	من العَارِ والتَّدْنِيسِ رجِسٌ عَلَى رِجْسِ
فإمَّا تَهوُلَنْـكَ الـبـغـالُ فـإنّـهـا	منوّعةٌ عنـد الـيّهُـوديِّ والـقَـسِّ

قال رجل للحسن بن أبي الحسن: يا أبا سعيد! إنا قد وسع الله علينا أفنناك من كسوة وعطر ما لو شئنا اكتفينا بدونه، فما نقول؟ قال: أيها الرجل! إن الله قد أدب أهل الإيمان فأحسن أدبهم، قال تعالى: "لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ من سَعَتِهِ، ومَنْ قُدِرَ عليه رِزْقُهُ فلينفِقْ مما آتاهُ اللهُ"، وإن الله ما عذب قوماً أعطاهم الدنيا فشكروه، وما عذر قوماً زوى عنهم الدنيا فعصوه.

روى عن لقمان الحكيم، أنه قال: التقنع بالليل ريبة، وبالنهار مذلة. وقد روى هذا عن نبيّنا صلى الله عليه وسلم.

قال رجل لإبراهيم النخعي: ما ألبس من الثياب؟ فقال: مالا يشهرك عند العلماء، ولا يحقرك عند السفهاء.

باب المراكب من الخيل وغيرها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة، الأجرُ والمغنم".

وقد ذكرنا في الآثار الثابتة في الخيل وفضلها، وفضل رباطها، والأجر في اكتساب ذلك، في كتاب - التمهيد - ما فيه شفاء، وإشراف على المعنى والحمد لله.

كان يقال: لا تقودوا الخيل بنواصيها فتذلوها، ولا تجزوا أعرافها فإنها أدفاؤها، ولا تجزوا أذنابها فإنها مذابُّها. وقد روى هذا الكلام مرفوعاً.

قال عمر بن الخطاب: عليكم بإناث الخيل، فإن بطونها كنز، وظهورها حرز. وقد روى هذا مرفوعاً أيضاً.

قال علي بن أبي طالب: الخيل المطلب والمهرب.

قال ابن عباس رضى الله عنه:

أحبُّوا الخيل واصْطبروا عَلَيْها	فإنّ العزَّ فيها والَـجـمَـالا
إذا ما الخيلُ ضَيّعها رجـالٌ	رَبَطْنَاها فشاركتِ الـعِـيَالا
نُقاَسُمها المعيشةَ كـلَّ يومٍ	ونكسوها البراقِعَ والجِلاَلاَ

قال الحسن البصري: الجفاء مع أذناب الإبل، والذلة مع أذناب البقر، والسكينة مع أذناب الغنم، والعز مع نواصي الخيل وقد روى بعض هذا مرفوعاً. قال خالد بن صفوان: الخيل للرغبة والرهبة، والبراذين للدعة،

والبغال للسفر البعيد والأثقال، والإبل للتحمل، والحمير للزينة وخفة المؤونة.
ساير شبيب بن شيبة بعض الأمراء، وهو على برذون، والأمير على فرس، فقال له الأمير: سِر، فقال: كيف أسايرك وأنت على فرس، إن تركته سار، وإن حركته طار، وأنا على برذون، إن تركته وقف، وإن ضربته قطف. فأمر له بفرس فاره.
قيل لأعرابي: صف لنا فرسك. قال: سوطه عنانه، وهمه أمامه، وما ضربته قط إلا ظالماً له.
بعث الحجاج بن يوسف إلى عبد الملك بفرس، وكتب إليه: قد وجهت إليك بفرس حسن المنظر، محمود المخبر، أسيل الخد، رشيق القد.
قال بعض الحكماء: أكرم الخيل أجزعها من الضرب، وأكرم الصفايا أشدها ولها إلى أولادها، وأكرم الإبل أشدها حنيناً إلى أوطانها، وأكرم المهار أشدها ملازمة لأمهاتها.
للحسن بن يسار:

يا فارساً تَرْهَبُ الفرسانُ صَوْلَتَـهُ ... أما عَلمِتَ بأن النَّفْسَ تُفْـتَـرَسُ
يا راكبَ الفرسِ السّامي بغُرَّتِـهِ ... ولابسَ السَّيْفِ يحكي لونَهُ القبسُ
لا أنت تبقى على سيفٍ ولا فَرَسٍ ... وليس يبقى عليك السَّيْف والفَرَسُ

وهو شعر جيد محكم، فيه مواعظ وحكم، وأوله:

إنّ الحبيبَ من الأحبابِ مُخْتَلَـسُ ... لا يمنعُ الموتَ حُجَّابٌ ولا حَرَسُ

قال بعض البلغاء: البغل تواضع عن خيلاء الخيل، وارتفع عن ذلّة العير، فهو وسط، وخير الأمور أوساطها.
قال ابن أبي طاهر: ما وصف برذون بأحسن من قول المسلمي من ولد مسلمة بن عبد الملك، واسمه محمد بن يزيد:

فإذا احْتَبَى قَرَبُوسَه بِـعـنَـانِـه ... عَلَكَ الشَّكِيمَ إلى انْصِرافِ الزَّائر

باب الطعام والأكل

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعجبه الذراع.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سيد أدام الدنيا والآخرة، اللحم".
قال سفينة: أكلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لحم حباري، وقال في الضب: "لست بآكله ولا بمحرمه".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فلا تأكلوا الثوم ولا البصل، ومن أراد أكلهما فليمتهما طبخاً".
والكراث والفجل في معنى الثوم والبصل.

قال عمر بن الخطاب: إياكم واللحم، فإن له ضراوةً كضراوة الخمر.
إنما كره الإدمان عليه، والله أعلم، لما فيه من التنعم والتشبه بالأعاجم، ألا ترى أنه كتب إلى عماله: اخشوشنوا، وإياكم والتنعم وزي العجم.
ذكر عند بعض العرب اللحم، فقال: إنه ليقتل السباع. يريد إدخال بعضه على بعض قبل تمام الهضم - والله أعلم.
خطب عمر بن الخطاب يوماً، فقال: إياكم والبطنة، فإنها مكسلة عن الصلاة، مؤذية للجسم. وعليكم بالقصد في قوتكم، فإنه أبعد من الأشر، وأصح للبدن، وأقوى على العبادة، وإن امرءًا لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.
مر علي بن أبي طالب بمجلسٍ من مجالس الأنصار، فسلم عليهم، فقاموا له وحفوا به ورحبوا وقالوا: لو نزلت فأكلت من طعامنا، فقال لهم: إما حلفتم علينا، وإما انصرفنا.
قال علي بن أبي طالب: المعدة حوض البدن، والعروق واردة عليها وصادرة عنها، فإذا صحت صدرت العروق عنها بالصحة، وإذا سقمت صدرت العروق بالسقم.
قال بعض الأطباء: اللحم ينبت اللحم، والشحم لا ينبت اللحم ولا الشحم.
قال علي بن أبي طالب: الشحم يخرج مثله من المدا.
أتى عمر بن عبد العزيز بيته يوماً، فقال: هل عندكم من طعام؟ فأصاب تمراً وشرب من ماء، وقال: من أدخله بطنه النار فأبعده الله.
قيل للشعبي: أي الطعام أحب إليك؟ قال: ما صنعه النساء، وقل فيه العناء.
قال سلمان: قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا نجد في التوراة أو قال في الإنجيل: البركة في الطعام غسل اليد قبله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "البركة في الطعام غسل اليد قبله وبعده".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن للطعام حقا. قيل: وما حقه يا رسول الله؟ قال: ذكر الله في أوله وحمده في آخره".
ومن حديث على بن ثابت، عن حمزة بن أبي حمزة، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من نَسِى أن يُسم الله على طعامه، فليقرأ: قل هو الله أحد".
نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأكل بالشمال، والشرب بالشمال، وعن الاستنجاء باليمين.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لربيبه عمر بن أبي سلمة: يا بني: "قل بسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك".
كان علي بن أبي طالب إذا دعى إلى طعام أكل شيئاً قبل أن يأتيه، ويقول: قبيح بالرجل أن يظهر نهمته في طعام غيره.
وقال رحمه الله: من أراد البقاء - ولا بقاء - فليباكر الغداء، وليخفف الرداء،

وليقل غشيان النساء.
قال منصور الفقيه:

قارب فـديتُـك إن أكـلْـتَ وإن شربتَ وإن غَشِيتاَ
وأنا الكفيلُ لـك الـحـياةَ بأن تعافَى ما حـيِيتـاَ

قال قيس بن أبي حازم: نزل بي أعرابي من أحمس، فلم آله تكرمةً، فقال لي: أكل الحي يجد مثل هذا الذي أرى عندك؟ فقلت: إن أخبثهم عيشاً يشبع من الخبز والتمر، فقال: أقسم بالله لئن كنت صادقاً ليوشكن أن يقتتلوا، فإن العرب - والله - ما زالت إذا شعبت اقتتلت. قال قيس: فلم ألبث إلا أربعة أشهر حتى قتل عثمان، ثم كانت وقعة الجمل، ثم وقعة صفين والنهروان.
قال الشعبي: الناس في جنة الله تعالى ستة أشهر - يعني أيام الرطب.
ذكر أبو الحسن بن مقسم، قال: سمعت محمد بن مسلم الزجاج جارنا، قال: سمعت عباس الدوري، يقول: سمعت يحيى بن معين يقول: لا يمل الباذنجان عاقل.
وسمعت القاضي أبا عمرو، يقول: لو علم الثور الذي يحمل الباذنجان أنه عليه، تاه على الثيران.
قلت: هذا لمن استطابه، وعذب عنده، وأما من جهة الطب، فذمه عندهم أكثر من مدحه.
قال طريح بن إسماعيل الثقفي:

دَعْ بَعْضَ أكلك ربّ آكلِ أكلةٍ يوماً سيلفظها إذا هُو لاكَهَـا

ولبعض المتأخرين في رجل مات من أكلةٍ أكلها في شعرٍ له فيه:

يا مَنْ جنت كَفُّه على جَسَدِه يَرْحَمُك الله يا قَـتِـيلَ يَدِهْ

قال الفضيل بن عياض: خصلتان يقسيان القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل.
قال حميد الأرقط:

أتانا ولم يَعْدِلْه سحبـان وائِلُ بياناً وعلماً بالّذي هو قـائلُ
فما زال عنه اللقُم حتّى كأنّه من العيِّ لما أن تكلّمَ باقلُ

دعا عبد الملك بن مروان رجلاً إلى غدائه، فقال له قد تغديت. قال عبد الملك: ما أقبح بالرجل أن يأكل حتى لا تكون فيه بقية للطعام! فقال: يا أمير المؤمنين! بي فضل، ولكنى كرهت أن آكل فأصير إلى ما استقبح أمير المؤمنين.
قال إبراهيم النخعي: ما رأيت راكباً أحسن من زبدٍ على تمر.
قال الشاعر:

ألم تَرَ أن الزُّبْد بالتّمرِ طيبٌ وأنّ الحُبَاري خالةُ الكَرَوَانِ

قال عمر بن بحر: العامة لاتشك بأن الكروان ابن الحباري.
وقال آخر:

نُنَافِسُ في طِيبِ الطَّعام وكلّه سواءٌ إذا ما جَاوَزَ اللَّهَوَاتِ

دعا الحجاج رجلا إلى غدائه، فقال: قد تغدّيت. قال: إنك لتباكر الغداء قال: لخلالٍ ثلاث: إن ناجيتُ رجلا لم يجد في خلوفا، وإن شربت ماء شربته على ثقل، وإن حضرت قوماً على طعام حضرتهم ومعي بقية من غرض. فعجب منه.
قال سليمان بن عبد الملك لسالم بن عبد الله، وقد رآه حسن السحنة: أي شيء تأكل؟ قال: الخبز والزيت، وإذا وجدت اللحم أكلته. قال له: وتشتهيه؟ قال: إذا لم أشتهه تركته حتى أشتهيه.
قيل لأعرابي: أتحسن تأكل الرأس؟ قال: نعم. فقيل له: كيف تأكله؟ فقال: أبخص عينيه، وأسحي خديه، وأفك لحييه، وأعفص أذنيه، وأرمى بالدماغ إلى

من هو أحق به مني.
قيل لبعض العقلاء: أي الطعام أطيب؟ قال: الجوع أعلم.
كان يقال: نعم الإمام الجوع، ما ألقيت إليه شيئاً إلا قبله وطاب عنده.
روى معن بن عيسى، عن مالك بن أنس، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، قال: الخبيص يزيد في الدماغ.
وروى عن جعفر بن محمد رحمه الله، أنه قال: الخلال بعد الطعام يشد اللثات، ويجلب الرزق، ويطيب نكهة الفم.
دخل جنادة بن أبي أمية على معاوية، وهو يأكل، فدعاه إلى الأكل، فقال: أنا صائم، فلم تزل الألوان تختلف بين يدي معاوية حتى جئ بجدي محنوذ سمين، فقال جنادة: ليأمر لي أمير المؤمنين بماء أغسل يدي وآكل من هذا الجدي. فقال له: ألم تقل إنك صائم؟ قال: بلي. ولكنى على رد يوم أقدر منى على رد مثل هذا الجدي. فضحك معاوية وأمر بالماء، فغسل يده وأكل معه.
قال الحسن البصري: غسل اليد قبل الطعام ينفي الفقر. وبعد الطعام ينفي اللحم.
كان يقال: أحب الطعام إلى الله عز وجل ما كثرت عليه الأيدي.
قال أبو بكر الهذلي: إذا جمع الطعام أربعاً كمل، إذا كان حلالاً، واجتمعت عليه الأيدي، وسمى الله في أوله، وحمد في آخره.
كان يحيى بن معين يتمثل:

المالُ يَنْفدُ حِلُّهُ وحَـرَامُـه	يوماً وتَبْقَى في غدٍ آثامُـهُ
ليسَ التقىّ بُمّتقٍ في دِينِـه	حتى يَطِيب شَرابُه وطعامُهُ

قال لقمان لابنه: يا بني! لا تأكل شيئاً على شبع، فإنك إن تركته للكلب خير لك من أن تأكله.
كان الحسن بن علي رضى الله عنه، يقول: ائتونا بالخوان نأتنس به حتى يأتي الطعام.
كان لكسرى جامٌ فيه حب رمان يسف منه بين كل لونين ملعقة ليعرف اختلاف الألوان.
روى عن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر، قال: قال رجل من أهل الشام: أنعت لكم الأكل؟ قالوا: نعم. قال: إذا أكلت فابرك على ركبتيك. وافتح فاك، وأحدج عينيك، وفرج أصابعك، وعظم لقمتك، واحتسب نفسك. قال عبد الله بن دينار: ما سمعت عبد الله بن عمر يحدث بهذا الحديث قط، فبلغ قوله: واحتسب نفسك، إلا ضحك حتى بدت نواجذه.
قال أبو الهندي، وهو من ولد شبث بن ربعي:

أكلتِ الضِّبَابِ فما عِفْـتُـهـا	وإني لأهوى قديدَ الـغَـنَـمْ
ورَكَّبْتُ زُبْداً عـلـى تـمـرةٍ	فنعم الطـعـامُ ونـعـم الأُدُمْ
وما في البُيُوض كبيض الدجاج	وبيضُ الجرادِ شفاء الـقَـرَمْ
ومُكْنُ الضِّباب طعام العُـرَيْبِ	ولا تشتهيِه نفوسُ الـعَـجَـمْ

قال عمرو بن بحر: الجراد المأكول منه، ضروب: منه الأهوازي، وفيه المذنب، وأطيبه الأعرابي، وأهل خراسان لا يأكلونه. قال: والجراد الأعرابي لا يتقدمه في الطيب شيء، وما أحصى كم سمعت من الأعراب من يقول: ما شبعت منه قط، وما أدعه إلا خوفاً من عاقبته، أو لأني أعيا فأترك. قال:

والجراد يطيب حاراً وبارداً ومشوياً ومطبوخاً، منظوماً في الخيط، أو مجعولا في المسلة. قال: والبيض المقدم في الطيب ثلاثة أجناس: بيض الأشبور، وبيض الدجاج، وبيض الجراد. - وبيض الجراد - فوق بيض الأشبور في الطيب؛ وبيض الأشبور فوق بيض الدجاج. قال: والجرد يؤكل يابساً وغير يابس، ويجعل إداما ونقلا. قال: وذكرت امرأةٌ الجراد، فقالت لها أخرى: كيف حبك فيه؟ قالت: والله إنه لأحب إلى من الحبل.

كان بشر بن المعتمر، خاصاً بالفضل بن يحيى، فقدم عليه رجل من مواليه - وهو أحد بني هلال - فجاء به يوماً إلى الفضل ليكرمه بذلك، وحضرت المائدة، وذكر الضب ومن يأكله، فأفرط الفضل في ذمه وتابعه القوم، ونظر الهلالي فلم ير على المائدة عربياً غيره، وغاظه كلامه، فلم يلبث أن أتى الفضل بصفحةٍ ملأى من فراخ الزنابير ليتخذ له منها بزماورد، والدبر والنحل عند العرب أجناس من الذبان، فلم يشك الهلالي أن الذي رأى من ذبان البيوت والخشوش، وكان الفضل حين ولي خراسان، قد استطرف بها بزماورد الزنابير، فلما قدم العراق كان يتشهاها، فتطلب له وتساق من كل مكان، فشمت به وأصحابه لما رأى من ذلك، وخرج وهو يقول:

وعِلْجٍ يعافُ الضَّبَّ لؤماً وبطنةَ ... وبعضُ إدامِ العِلْجِ هامُ ذُبَـابِ
ولو أنَّ مَلْكا في الوري ناك أمَّهُ ... لقالوا له: أوتيتَ فصلَ خطابِ

قال الحسن بن هانئ:

إذا ما تميـميٌّ أتـاك مُـفَـاخِـراً ... فقلْ: عَدِّ عن ذا، كيف أَكْلُكَ للضَّبّ
تفاخرُ أَبْنَاءَ الـمـلـوكِ سـفـاهةً ... وبَوْلُكَ يجري فوق سَاقِكَ والكَعْبِ

وقال ابن المعتز:

رأيت بيوتاً زُيِّنَت بـنـمـارقٍ ... وزُيِّن ما فيهنَّ بالوَشْيِ والطُّرْزِ
فلم أر ديباجاً ولم أَرَ سُـنْـدُسـاً ... بأحسنَ في بيتِ الكريم من الخبزِ

وقال آخر:

فكم من أكْلةٍ مَنَعَتْ أَخَاهَـا ... بلَذَّةِ ساعةٍ أَكَـلاَتِ دَهْـرِ
وكم من طالبٍ يَسْعَى لشيءٍ ... وفيه هلاكُهُ لو كان يدرِي

قال المأمون: سبعة أشياءٍ لا تمل، أكل خبز البر، وشرب ماء العنب، وأكل لحم الضان، والثوب اللين، والرائحة الطيبة، والفراش الوطئ، والنظر إلى كل شيء حسن. فقال له الحسن ابن سهل: أين محادثة الإخوان يا أمير المؤمنين؟ قال: هن ثمان وهي أولهن.

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهم من يرويه عن علي، أنه قال: لا يقام عن الطعام حتى يرفع.

قال ابن عباس: من السنة إذا دعوت أحداً إلى منزلك أن تخرج معه حتى يخرج.

روى جعفر بن محمد بن علي بن الحسين، عن أبيه، أنه قال: رب البيت آخر من يغسل يديه.

وقال أبو الزناد: من إكرام الضيف وحسن الأدب في مؤاكلته، أن تغسل يديك قبله أولا، وبعده آخراً.

لعبد الله بن المبارك، وتمثل بها المأمون:

احضر طعامَك وابْذُلْـه لـمـن أكـلا ... واحَلِفْ على من أبى، واشكرْ لمن فَعَلاَ

ولا تكن سَابريَّ العَرْضِ مُحْتَـشِـمـاً مِنَ القليلِ، فلستَ الدَّهْرَ مُـحْـتَـفِـلاَ

وقال آخر في ذم الشراب:

لا تفتكنّ على الكؤوس بِشُرْبهـا فهيَ التي بكَ عن قليلٍ تَفْتِـكُ

يكفيك منْها أنَّ عقَـلـكَ تَـارةً يبكي عَلَيْك، وَأنَّ جَهْلك يضحكُ

وقال آخر:

وإني لأستحيي أكـيلِـيَ أن يَرَى مكانَ يدي من جانبِ الزَّاد أقْرَعَا

أبيتُ هضم الكَشْح مضطمر الحشا من الجُوع أحْشى الذَّمَ أن أتضَلَّعَا

وإنَّك إنْ أَعطيتَ بطنك سُـؤْلَـهُ وَفَرْجَكَ نالا مُنْتَهَى الذِّم أَجْمَعَـا

وقال كعب بن سعد الغنوي:

وزادٍ رفعتُ الكفَّ عنه تَجَمُّلاً لأوثَر في زادِي عليَّ أكيِلي

وما أنا للقول الذَّي لَيْس نَافِعِي ويغضبُ منه صاحبي بَقؤُولِ

باب النوم وتصرف المعاني فيه

روى أن المسيح عليه السلام قال: خلقان أكرههما، النوم من غير سهر، والضحك من غير عجب، والثالثة وهي العظمى: إعجاب الرجل بعلمه.

قال داود لابنه سليمان عليهما السلام: إياك وكثرة النوم، فإنه يفقرك إذا احتاج الناس إلى أعمالهم.

قال لقمان لابنه: يا بني! إياك وكثرة النوم والكسل والضجر، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقا، وإذا ضجرت لم تصبر على حق.

كتب عمر بن الخطاب إلى بعض عماله: بلغني أنك لا تقيل، وإن الشياطين لا تقيل.

قال علي: من الجهل النوم في أول النهار من غير سهر، والضحك من غير عجب، والقائلة تزيد في العقل.

قال عبد الله بن مسعود: النوم - عند الموعظة من الشيطان-.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: النوم على ثلاثة أوجه، نوم خرق، ونوم خلق، ونوم حمق. فأما النوم الخرق، فنومة الضحى، يقضى الناس حوائجهم وهو نائم، وأما نوم الخلق، فنوم القائلة نصف النهار، وأما نوم الحمق، فالنوم حين تحضر الصلوات.

قال غيره: نوم أول النهار خرق، ونوم القائلة خلق، ونوم العشى حمق، والنوم بين العشاءين يحرم الرزق.

قيل لأعرابي: ما يدعوك إلى نومه الضحى؟ قال: مبردة في الصيف، مسخنة في الشتاء.

قال بعض العلماء: النعاس يذهب العقل، والنوم يزيد فيه.

قال عبد الله بن شبرمة: نوم نصف النهار يعدل شربة دواء، يعني في الصيف.

قال عباس بن الأحنف:

قالوا: تنامُ، فقلت: الشّوْق يمنعُني من أن أنامَ وعيني حشَوها السُّهُدُ

أبكي الذَّين أذاقُوني حتّى إذا أيقظوني للهوى

مَـوَدّتَـهُـمْ رَقَدُوا
هم قد دَعَوْني فلما قمتُ مقتضيا للجبِّ نحوَهُمُ من قُرْبهم، بَعُدُوا
لأخرجنّ من الدنـيا وحُـبُّـهُـمُ بين الجوانِحِ لم يَشْعرْ بـه أحـدُ

كان يقال: لإبليس لعوق وكحل وسعوط، فلعوقه الكذب، وكحله النعاس عند سماع الخير، وسعوطه الكبر.

قال علي بن الجهم، يهجو قوما:

أكثرُ ما يعرفُه القّـوْمُ الأكْلُ والراحةُ والنّومُ
نوكي مياسيرٌ إذا عدت الْ أيّام لم يُعْرَف لهـم يومُ

وقال آخر:

عجبتُ لطّرْفي والكَرَى إذ تنافَرَا وقد كانَ قبلَ اليومِ بينهُمَا وَصْلُ
كأنّ البكا أغراهُما بـتـفـرُّقِ فلم يجتمعْ من بعدهِ لهما شمـلُ

أنشد ابن دريد:

ولذٍّ كطَعْمِ الصَّرْخَدِيّ تركـتُـه بأرض العِدَا من خَشْيةِ الْحَدَثَانِ
ومُبْدٍ لي الشَحْناءَ بيني وبـينّـهُ دعوتُ وقد طالَ السُّري فَدَعَاني

وفسر اللذَّ فقال: اللذُّ: اللذيذ، وأراد به هنا النوم. والصرخدي: الخمر، وقيل العسل.

وللفرزدق، أو غيره:

يقولُون طالَ الليلُ والليلُ لم يَطُلِ ولكنّ من يَبْكِ من الشّوّقِ يَسْهرِ

وقال بشار:

لم يطل ليلى ولكن لـم أنَـمْ ونَفَى عنّي الكَرَى طيفٌ أَلَمّ

قال أبو ملجم الأعرابي:

أبيتُ أُرَاعِي النَّجْمَ حتّى كأنّني بناصيتي حَبْلٌ إلى النَّجْم مُوثَقُ
وما طال ليلى غير أنّي أَحبُّها أُعَلّلُ نفسي بالأماني فتَعْلَـقُ

وقال علي بن بسام:

لا أظلـمُ الـلـيلَ ولا أدّعـي أنّ نجومَ السّماءِ ليستْ تَغُـورْ
لَيْلِى كما شَاءَتْ فإن لـم تَـزُرْ طَالَ، وإنْ زارت فليِلى قصيرْ

قال عدي بن الرقاع:

وكأنّ لِيلى حينَ تَغْرُبُ شمسُهُ   بسَوادِ آخرَ مثّلهُ مَوصُـولُ

لأبي جندب الهذلي، فيما ذكر المدائني:

تعَالَوْا أعينوني على اللّيل إنَّهُ   على كلِّ عينٍ لا تَنَامُ طويلُ

قال المدائني، وهو القائل أيضاً:

ألاّ أَيُّها النُّوامُ ويحكُمُ هُـبُّـوا   أسَائلكم هَلْ يقتلُ الرَّجُلَ الحبُّ

قال: وهو القائل:

قل للمليحِة في الخمارِ الأسْوَدِ

وذكر الأبيات، وليس هذا موضعها، وغير المدائني ينشد قوله: ألا أيها النوام... لجميل بن معمر، وينشد: قل للمليحة في الخمار الأسود...للدارمي.

قال صالح بن حسان يوماً لجلسائه: أيكم ينشد بيتاً نصفه لمخنث يتفكك بالعقيق، ونصفه لأعرابي في شملة بالبادية؟ قالوا: ما نعرفه. قال: هو قول ابن معمر:

ألا أيُّها الركب النِّيامُ ألا هـبّـوا   أسَائِلكُم هل يقتلُ الرجلَ الحبُّ؟

ولعباس بن الأحنف:

أيّها النَّائِمون حَوْلِي أَعـيِنُـو   نِي عَلَى اللَّيلِ حِسْبَةً وائْتِجَارَا

حَدِّثُونِي عن النّهارِ حـديثـاً   أوصِفُوهُ فقد نسيتُ النّهَـارَا

وقال خالد الكاتب:

رَقَدْتَ ولم تَرْثِ للسَّاهِرِ   ولَيْل الْمُحِبْ بلا آخِـرِ

ولم تَدْرِ بعدَ ذهابِ الرُّقَادِ   ما فعلَ الدَّمع بالنّاظِـرِ

وقال سعيد بن حميد:

يا ليلُ بـل يا أَبَـد   أنائمٌ عَنْـك غَـدُ

يا ليلُ لو تَلْقَى الذي   أَلْقَى بها أو تجـدُ

قُصِّر من طُولِك أَوْ   ضُعِّفَ منك الجَلَدُ

ولبعض أهل عصرنا:

إلْفِي قريبٌ وأُنْسِي مـا يتـمُّ بِـهِ   واللَّيْلُ يَقطِعُ صَبْرِي كلَّه طُـولاَ

إذا كواكبُهُ الأخْرَى أردتُ بـهـا   مِنْ غُمَّتِي فَرَجاً عَادَتْ لِيَ الأولَى

وللمنتصر بالله:

رأيتُك في المَنَامِ أَقلَّ بخْـلاً   وأطوعَ منك في غَيْرِ المَنَامِ

فليتَ الصُّبْح زَالَ فلا تـراه   وليت الليل أُخِّرَ ألفَ عـامِ

فلو أنّ النُّعاسَ يُبَاع بـيعـاً   لأغليتُ النُّعَاس على النيامِ

باب الحمام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّكم سَتَفْتَحُون الشَّامَ، فَتجدون فيها بيوتاً تُدعى الَحمامات، فلا يَدخلها من النساء إلا مريضةٌ أو نُفَسَاء، ولا

يحلّ دخولها لرجل إلاّ بمئزَر".
قال أبو هريرة: بئس البيت الحمام، يكشف العورة، ويذهب الحياء.
قال أبو الدرداء: نعم البيت الحمام، يذهب الدرن، ويذكر النار.
قال ابن القاسم: سئل مالك عن القراءة في الحمام. فقال: القراءة بكل مكان حسنة، وليس الحمام بموضع قراءة، فمن قرأ الآية والآيتين فليس بذلك بأس، وليس الحمام من بيوت الناس الأول.
كان الحسن إذا دخل الحمام أغمض مخافة أن تقع عينه على عورة أحد، وربما قادة غلامه.
ودخل أبو حنيفة الحمام فرأى فيه قوماً لا مآزر لهم ، فأغلق عينيه، وجعل يتهدي بيديه. فقال له أحدهم: متى ذهب بصرك يا أبا حنيفة؟ قال: منذ انكشفت عورتكم.
كان يقال: إذا جمع الحمام خمس خصال فقد كمل: أن يكون قديم البناء، عذب الماء، كثير الضياء، مرتفع الهواء، وأفضل ذلك كله: أن يكون الحوض نقياً معتدل الحر.
قال أصبغ: سألت ابن القاسم عن دخول الحمام، فقال: ما أن وجدته خالياً، أو كنت تدخل مع قوم يستترون ويتحفظون فلا أرى بذلك بأسا، وإن كان يدخله من لا يبالي ولا يتحفظ لم أر أن تدخله، وإن كنت متحفظاً.
قال أصبغ: وأدركت ابن وهب يدخله مع العامة متحفظاً، ثم ترك ذلك، وكان لا يدخله إلا مختليا.
قال شمس المعالي:

أَنتَ فِي الحمّام مـوقـو ... فٌ على قَلْبِي وَسَمْعي
فتأَمّلـهـا تـجـدْهَـا ... كُوِّنَتْ من بعضِ طَبْعِي
حَرّهَا من حَـرّ أَنْـفَـا ... سِي وفيضُ الماءِ دَمْعي

ودخل أعرابي البصرة، قدمها من البادية فنزل على قريب له، فلما رآه أشعث الرأس عزم عليه في دخول الحمام، وقال له: إنه يوم جمعة تطهر في الحمام وتنظف، فلما دخل الأعرابي الحمام، زلقت رجله وسقط، فأصابته شجة فوق حاجبه، فخرج وهو يقول:

وقالوا: تَطَهّـرْ إنـه يوم جُـمْـعَةٍ ... فأُبْتُ من الحَّمامِ غـيرَ مـطـهّـرِ
تزوَّدْتُ منه شَجّةً فوق حـاجِـبِـي ... بغيِر جهادٍ بئسَ ما كان متـجـرِي
تقول لَي الأعرابُ لمـا رأونـنـي ... بِهِ لا تَلَبَّثْ، بالـصَّـرِيَمةِ أَعْـقِـرِ
فما تَعْرِفُ الأعرابُ في السُّوقِ مِشْيَةً ... فكيفَ ببيتٍ ذي رخـام وَمَـرْمَـرِ

باب في البراغيث والبق والبعوض

في الحديث المرفوع: لا تلعنوا البرغوث فإنه نبه نبياً من الأنبياء لصلاة الصبح، حديث ليس بقوي الإسناد.انفرد به سويد أبو حاتم، بياع الطعام عن قتادة، عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم.
قال أعرابي بالبصرة:

ظللتُ بالبَصْرَةِ في مِرَاشِ
وفي براغيثَ أَذَاهَا فَاشِي
من نافرٍ منها وذِي خِرَاشِ
يَرْفَعُ جنبيّ عن الفِرَاشِ
فأنا في حرب وفي تَخْرَاشِ
يَترك في جَنْبَّي كالحَوَاشِي
وزوجةٍ دائمة الهرَاشِ
تَغْلِي كغَلْيِ المِرْجَل النَشْنَاشِ

وقال رجلٌ من بني حمان، وقع في جند الشام، مندوباً في بعض حصون الساحل:

أأَنْصُرُ أهلَ الشَّام ممن يكيدُهُمْ … وأهْلِي بنجدٍ ذات حرص على النصرِ
براغيثُ تُؤذْيني إذَا النَّاسُ نَوَّمْوا … وبقٌّ أقاسيِهِ علَى سَاحِلِ البَحْرِ

تضيف عمرو بن سعيد بن العاص الأموي، رجلا من الأعراب كان يأتيه يتصيد عنده، ففرش له في بيت خال من ناحية داره، فبات فيه، ثم غدا عليه فقال: يا أبا عثمان! ماذا رأيت هذه الليلة! قال: وما ذاك؟ قال: سود حدب زرق آذينني، وقد قلت فيهن شعراً، قال: وما هو؟ قال: قلت:

الليل نصفان نصف للهموم فما … أقضى رقاداً ونصف للبراغيث
أبيت حيث تساميني أوائلها … أنزو وأخلط تسبيحاً بتغويث
سود مداليج في الظلماء مؤذية … وليس ملتمس منها بمشبوث
كأنهن وجلدي إذ خلون به … أيتام سوءٍ أغاروا في مواريث
ليل البراغيث أنكاني وأرقني … لا بارك الله في ليل البراغيث

قال أعرابي:

إن البراغيث لهن عض … وحكة وألم ممض
كأنما تنبتهن الأرض

وذكرت البراغيث عند أعرابي من قيس، فقال: ليلها ناصب ومددها دائب.
وذكرت البراغيث عند رجل من كلب، فقال: أخزاها الله، ما أدنأ صغارها، وما أشر كبارها، وأخفى أنظارها، وأقبح آثارها.
قال أحمد بن إسحاق:

ما للبراغيث أفنى الله جملتها … حتى يقوم برغوث

بدينـار

لروضة من رياض الحزن معشبة بها الظباء تراعي غبَّ أمطـار
أشهى لقلبي من درب به نـبـط ومنزل بـين حـجـامٍ وجـزار

وقال آ خر:

ما للبراغيث أخزى الله ليلتهـا من يلق منهن ما لاقيت لم ينـم
كأنهن وجلدي إذ ظفـرن بـه وضمني مضجعي، يطلبنني بدم

قال أعرابي:

لم أر كالـيوم ولا مـذ قـط أطول من ليلي بنهـر بـط
كأنما نجـومـه فـي ربـط أبيت بين خطتي مـشـتـط
من البعوض، ومن التغطـي إذا تغنـين غـنـاء الـزط
وكن مني بمكـان الـقـرط وخزنني وخزاً كوخز الشرط

وقال آخر، يصف بعوضة وخرطومها:

مثل السفاة دائم طنـينـهـا ركب في خرطومها سكينها

ولأبي إسحق الصابي، وهو إبراهيم بن هلال الكاتب في البعوض قال:

ألحت صروف الدهر من كل جانب على بأصنـاف الأذى والـجـوائح
وأخرجنني من مواطن كان جنتـي لحسن مرابعه وحـسـن الـروائح
وعوضنني من ذلك الظل والجنـي على الرغم من أنفي بسكني البطائح
محل خسـيس لا يطـيب مـسـاؤه لثاويه والإصباح ليس بـصـابـح
بليت ببقً ذي منـاسـر طـعـمـه لحوم صناديد الرجال الجحـاجـح
وقد كنت في بغداد أشكو بـغـاثـه فكيف اصطباري للبزاة الجـوارح
أجاور في جنح الدجى كل جحفـلٍ يجالدني أبطالـه بـالـصـفـائح
إذا سفكت كفى دماً من بـغـوضةٍ فذلك جـزء مـن دمٍ لـي طـائح
له وخزة في السمع قبل على الجسم من تغريد

وقـوعـه نشوان صابح

فكم مستغيث ساهر العـين صـائح إلى مثله من شاهر العـين صـائح

وكم غائص في النوم يصفح نفسـه لنبـلة رامٍ أو لـطـعـنة رامـح

لسويد بن منجوف العبدي، وكان قديماً جاهلياً:

أبي القلب أن يأتي السدير وأهله وإن قيل عيش بالسدير غـرير

به البق والحمى وأسد خـفـية وعمرو بن هند يعتدي ويجور

ولأعرابي من بني جفنة مازحاً:

مر الجراد على زرعي فقلت له: الزم طريقك لا تولع بإفـسـاد

فقال منهم خطيب فوق سنـبـلةٍ أنا على سفـرٍ لابـد مـن زاد

ولابن المعتز في البعوض أيضاً:

بت ليلى كـلـه لـم أطـرف لجرجس كالزئبر المـنـتـف

يلسعننا بالسعـر الـمـخـوف يعذب المهجة إن لم تـتـلـف

ويثقب الجلد وراء المـطـرف حتى يرى فيه كشكل المصحف

ولي أصف ما لاقيت من البغوض بإشبيلية في الشرف، وفي مدينة قبتور ومدينة قبطيل، وذلك حين مبيتي بها، وما منه تلقي المدينة أيضاً:

بعوض قبتور والقبطيل والشـرف قد آذنت بذهاب النفس والـتـلـف

فمن مثير دخـانٍ يسـتـجـير بـه وآخرٍ مختفٍ في الثوب ملتـحـف

قد غيب الرأس والرجلين مستتـراً بالبيت من طرفٍ فيه إلى طـرف

ويلي من الجرجس المثنى عقربـه ينصب مثل عقابٍ جاع مختطـف

يؤم أذني هجماً كالـمـهـدد لـي وكالمنادي بأخذ الهارب النـطـف

خرطومه كسـنـان لا يقـوم لـه ثوب مثنى ولو قد كان من خـزف

يا ويله من عدو لسـت تـدفـعـه إلا بلطم على الأعضاء منصـرف

نفي البعوض أناساً من مساكنـهـم | على البحيرة في غربٍ من الشرف
وساحل البحر طولا أصل منبـتـه | يغشى المدينة في الأبيات والغرف
وليس عنهم بسـتـر أو مـدافـعةٍ | أو حيلةٍ قد أعدوها بمـنـحـرف

ولغيري في البعوض ببلنسية:

ضاقت بلنـسـية بـي | وذاد عنها غموضـي
رقص البراغيث حولي | على غناء البعـوض

باب في السجن

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر".
روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه حبس رجلا في تهمة.
سجن عمر بن الخطاب الحطيئة في قوله في الزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغـيهـا | واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

بعد أن سأل حساناً ولبيداً فقالا: إنه هجاء له وضعة منه، فأمر به فحبس، وقيل إنه رماه في بئر لا ماء فيها، فقال الحطيئة:

ماذا تقـول لأفـراخ بـذي مـرخٍ | زغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجـر
ألقيت كاسبهم في قعر مـظـلـمةٍ | فاغفر عليك سلام اللـه يا عـمـر
أنت الإمام الذي من بعد صاحـبـه | ألقت إليك مقاليد النهى الـبـشـر
لم يؤثروك بها إذ قـدمـوك لـهـا | لكن لأنفسهم كـانـت بـك الإثـر
فامنن على صبيةٍ في الرمل مسكنهم | بين الأباطح يغشاهم بهـا الـقـدر
أهلي فداؤك كم بينـي وبـينـهـم | من عرض داويةٍ يعمى بها الخبـر

فكلمه فيه عبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، واسترضياه حتى أخرجه من السجن، ثم دعاه فهدده بقطع لسانه إن عاد يهجو أحداً.
كتب على باب سجن بالعراق: هاهناتلين الصعاب، وتختبر الأحباب.
مكتوب على باب سجن كبير من سجون الملوك: هذه منازل البلوي، وقبور الأحياء، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء.
ولأعرابي مسجون:

ولما دخلت السجن كبر أهـلـه | وقالوا: أبو ليلى الغداة حـزين

وفي الباب مكتوب على صفحاته بأنك تنزو ثم سوف تلين

وقال علي بن الجهم في السجن في شعر له:

خرجنا من الدنيا من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى

إذا جاءنا السجان يوماً لحاجةٍ فرحنا وقلنا جاء هذا من الدنيا

ونفرح بالرؤيا فجل حديثنا إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا

فإن حسنت لم تأت عجلي وأبطأت وإن هي ساءت بكرت وأتت عجلي

ولبعض السجان:

ما يدخل السجن إنسان فتسأله ما بال سجنك إلا قال مظلوم

وقال آخر:

أسجن وقيد واغتراب وعبرة وفقد حبيب إن ذاك عظيم

وإن امرءًا تبقى مواثيق عهده على كل هذا إنه لكريم

كتب أبو العتاهية من السجن إلى الرشيد يستعطفه ويسترحمه، فوقع له في رقعته: لا بأس عليك. فأعاد عليه أبو العتاهية رقعةً أخرى فيها:

أرقت وطار عن عيني النعاس ونام السامرون ولم يواسوا

أمين الله أمنك خير أمنٍ عليك من التقى فيه لباس

تساس من السماء بكل بر وأنت به تسوس كما تساس

كأن الخلق ركب فيه روح له جسد وأنت عليه راس

أمين الله إن الحبس باس وقد وقعت ليس عليك باس

لما سجن عضد الدولة فناخسرو أبا إسحق الصابي وقبض عليه، واستصفى أمواله، وذلك في حين قتله عز الدولة بختيار بن أحمد بن بويه الديلمي، وكان الصابي كاتب بختيار على ديوان الإنشاء، فزار أبو الفرج الببغاء الشاعر أبا إسحق الصابي في السجن ثم قطعه، فكتب إليه الصابي:

أبا الفرج اسلم وابق وانعم ولا تزل يزيدك صرف الدهر حظاً إذا نقص

مضت مدة تستام ودي غالياً فأرخصته والبيع غالٍ ومرتخص

وآنستني في محبسي بزيارةٍ شفت كمداً من صاحبٍ لك قد خلص

ولكنها كانت كحسوة فواقاً كما يستفرص السارق

طـائرٍ الفرص
وأحسبك استوحشت من ضيق محبسٍ وأوجست خوفاً من تذكرك القفـص
تحوشيت يا قس الطـيور فـصـاحةً إذا نثر المنظوم أو درس القصـص
من المنسر الأشغى ومن حزة المـدى ومن بندق الرامي ومن قصة المقص
ومن صعدة فيها من الدبـق لـهـذم لفرسانكم عند الطعان بها قـعـص
فهذي دواهي الطير وقيت شـرهـا إذا الدهر من أحدائه جرع الغصص

فأجابه أبو الفرج الببغاء:

أيا ماجداً في حلبة المجد ما نكـص ويا كاملاً في رتبة الفضل ما نقص
ستخلص من هذا الـسـرار وأيمـا هلالٍ تواري في السرار وما خلص
بدولة تاج المـلة الـمـلـك الـذي له في أعالي قبة المشتري حصص
تقنصت إلطافي وما كنت قـبـل ذا أظن بأن المرء بالبـر يقـتـنـص
فأصبحت لا أخـشـى أذية جـارحٍ ورأيك لي وكر وقلبك لي قفـص

باب الوكلاء

قال بعض الحكماء: لا مال لمن لا صبر له على خيانة الوكلاء وإضاعة الكفاة.
قال نصر بن سيار: لا تتخذ الوكيل داهيةً أريباً، ولا ذا عشيرة منيعة، فإنك إن قاومته أيام حياتك، عجز عنه ولدك بعد وفاتك.
كان عمر بن مهران يكتب في نهاية اسمه: اللهم احفظه ممن يحفظه.
لما مرض يعقوب بن حميد التاجر، قال له بعض ولده: أي شيءٍ تشتهي؟ قال: كبد وكيل.
قال نصر بن سيار: لعن الله وكيل الضيعة، إن عشت أكلها دونك، وإن مت ادعاها بعدك، وإن كان عاجزاً جاهلا استهلكها، وإن كان قوياً ذا عارض أعملها فيك ولم يعملها لك.
ذكر أن القحذمي مات وله ضيعة في يد وكيل، فكابر عليها.
قال شقران العلامي:

ذكرت أبا أروى فبت كأنني برد الأمور الماضيات وكيل

باب العادة ومالا ينسى

قال أكثم بن صيفي: ما يسرني أني مكفي أمر الدنيا. قيل: ولم? قال: أخاف عادة العجز.
قال العرب: العادة أملك بالإنسان من الأدب.
وقالوا: العادة طبيعة ثانية.
كان يقال: ما دخل باللبن لم يخرج إلا مع الروح.

قالوا: الخير عادة، والشر لجاجة.

قال الراجز:

تعود الخير فالخير عـادة تدعو إلى الغبطة والسعادة

قال الشاعر:

ما إن تخلقت إلا شيمتي خلقاً إن الخلائق تأبى دونها الخلق

قال الشاعر:

كل امرئٍ صائرٌ يوماً لشيمته وإن تخلق أخلاقاً إلى حين

وقال آخر:

فإن يشرب أبو عثمان أشرب وإن كانت معتقةً عـقـارا

وإن يأكل أبو عثمـان آكـل وإن كانت خنانيصاً صغارا

وقال آخر:

وإذا صاحبت فاصحب ماجداً ذا عفافٍ وحـياءٍ وكـرم

قوله للشيء لا إن قلـت لا وإذا قلت نعم قـال نـعـم

وقال آخر:

وكنت إذا علقت حبال قـومٍ صحبتهم وشيمتي الـوفـاء

فأحسن حين يحسن محسنوهم وأجتنب الإساءة إن أساءوا

أشاء سوى مشيئتهم فـآتـى مشيئتهم وأترك مـا أشـاء

باب في المنجمين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من تعلم باباً من النجوم، فقد تعلم باباً من السحر، ما زاد زاد".

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا".

قال عمر بن الخطاب: تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم أمسكوا.

قال الخليل بن أحمد:

أبلغا عني المنـجـم أنـي كافر بالذي قضته الكواكب

شاهد أن من تكهن أو نجـم زار على المقادير كـاذب

عالم أن ما يكون وما كـان قضاء من المهيمن واجب

وقال آخر:

علم النجوم على العقول وبال وطلاب شيءٍ لا ينال وبـال

هيهات ما أحد مضى ذو فطنةٍ يدري متى الأرزاق والآجال

إلا الذي هو فوق سبع سمائه ولوجهه الإعظام والإجـلال

وقال أبو العباس الناشئ:

سألت المنجـم عـن رحـلةٍ أؤمل براً عليهـا وبـحـرا

فقال المنجم لي: لا تـسـر فإنك إن سرت لاقيت شـرا
فإن كان يعلـم أنـي أسـير فقد جاء بالنهي لغواً وهجرا
وإن كان يجهل سيري فكيف تراني إذا سرت لاقيت ضرا

وقال أبو تمام الطائي:

والعلم في شهب الأرماح لامـعة بين الخميسين لاقى السبعة الشهب
يقضون بالأمر عنها وهي غافـلة ما كان في فلك منها وفي قطب

وفيها يقول أبو الطيب المتنبي:

فتبا لدين عبيد النجوم ومن يدعى أنها تعقل

وقال منصور الفقيه:

قول المنجم شيء دعا إليه التوهم
فلا تصدق بشيءٍ مما يقول المنجم

وله أيضاً:

إذا كنت تزعم أن النجوم تضر وتنفع من تحتهـا
فلا تنكرن على من يقول بأنك بالله أشركـتـهـا

وله أيضاً:

لو أن نجماً تكـلـم لقال: صكوا المنجم
لأنه قـال جـهـلاً بالغيب ما ليس يعلم

وقال أيضاً:

قالـوا أعـد فـلان لخوف هذا القـران
زاداً كـثـيـراً وداراً وثـيقة الـبـنـيان
فقلـت بـات فـلان يرجو النجـاة بـذان
هلا استعان على مـا يخشى من الحدثـان
بمـن وقـاه ولـيداً مكروه كـل زمـان
ومن غذاه جـنـيناً في ضيق ذاك المكان

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه:

فأين الزيج والـقـانـو ن والأركند والكـمـه
وأين السند هنـد الـبـا طل الجدول هل ثمـه
سوى الإفك على الـلـه تعالى منشر الـرمـه
إذا كان أخو الـنـجـم يرى الغيب بما ضمـه
فلم ذا يطلـب الـرزق طلاب العاجز الهمـه
وهذي الأرض قد وارت كنـوزاً عـدةً جـمـه
فلا والـلـه مـا لـل ه وخلق يحتوي علمـه

أخبرني عبد الله بن محمد بن يوسف، قال أخبرنا أحمد بن مالك بن عابد، قال: أخبرني أحمد ابن محمد بن عبد ربه أبو عمر الشاعر، قال: دخلت على الوزير جهور بن الضيف، وكان القحط قد ألح،

والغيث قد احتبس واغتم الناس لذلك، وتحدث المنجمون بتأخر الغيث مدة طويلة، فوجدت عنده ابن عزر المنجم وجماعةً من أصحابه، وقد أقاموا الطالع وعدلوا، وقضوا بتأخير الماء شهراً. فقلت للوزير: إن هذا من أمور الله المغيبة، وأرجو أن يكذبهم الله بفضله، ثم خرجت عنه وأتيت داري، فجاء أول الليل والسماء قد تغيمت، ونمت ساعة، فما أيقظني إلا نزول الماء، فقمت وقربت مني المصباح، ودعوت بالدواة والقلم، فما رفعت يدي حتى نسخت هذه الأبيات، ثم صابحت بها الوزير، فسر بها واستحسنها. وهي:

ما قدر الله هـو الـغـالـب	ليس الذي يحسبه الحـاسـب
قد صدق الله رجـاء الـورى	وما رجاء عـنـده خـائب
وأنزل الغيث علـى راغـبٍ	رحمته إذ فنـط الـراغـب
قل لابن عزرا السخيف الحجا	زري عليك الكوكب الثاقـب
ما يعلم الشاهد من حكمـنـا	كيف بأمرٍ حكـمـه غـائب
وقل لـعـبـاس وأشـياعـه	كيف ترى؟ قولكم الكـاذب
خانكم كيوان فـي قـوسـه	وغركم في لونه الـكـائب
فكلكم يكذب فـي عـلـمـه	وعلمكم في أصلـه كـاذب
ما أنتم شيءٌ ولا علـمـكـم	قد ضعف المطلوب والطالب
تغالبون الله فـي حـكـمـه	والله لا يغـلـبـه غـالـب
محبوب الحبر الـذي مـالـه	في فهمه ند ولا صـاحـب
قد أشهد الله على نـفـسـه	بأنه من جهـلـكـم تـائب

وأنشدني عباس بن يحيى بن قزمان لعمه عيسى بن قزمان:

هذا بإذن اللـه مـا شـاء قـدره	وليس فيما قضى كيوان والقمـر
لو كان عند النجوم السابحات بمـا	يجري على الخلق من أنبائهم خبر
لم يحتلل بـذراهـم ريب حـادثةٍ	بل كان ينجيهم الإنذار والـحـذر
ما كان ينجل منهم عـالـم ولـداً	في ساعةٍ ما بها نحس ولا كـدر
تقيه أنجمه صرف الزمـان فـلا	يأتي عليه ولا يفني لـه عـمـر
هيهات ذلك أمـر لا يطـاق ول	كن الفتى ينتهي حيث انتهى القدر

وللقرشي سعيد بن العاص المرواني:

مستحيل أن تدرك الأوهـام	علم غيب تغيب عنه الأنام

كيف يحتاز علمه بـشـري	وهو علم قد حازه العـلام
لست ممن يقول فيه يجهلٍ	ما يقول الكندي والنـظـام
كل من قال إن للنجم حكما	لم يجز فاعلمن عليه السلام
سطــر الأولـــون فـــيه أســـاطـــي	ر ولـم يلـهـمـوا الـرشـاد فـهـــامـــوا
إذا أرادوا بالسند هند وبالأركند والزيج روم مالا يرام	
خبطوا في أمورها خبط عشوا	ء حين ضـلـت فـي كـنـهـهـا الأوهـــام
والـذي هـينـمـوا بـــه مـــن قـــريبٍ	هذيان آثـــاره الـــبـــرســـــام
إنـمـا الـسـبـــعة الـــدراري أجـــرا	م ولـكـن لا تـــعـــقـــل الأجـــرام
وصـفـوها بـالـفـهـم وهـي شـخـــوص	ما لـديهـــا فـــهـــم ولا إفـــهـــام
وحـكـوا أنـهـا تـؤثـر فـــي الـــعـــا	لم والـعـــالـــمـــون عـــن ذا نـــيام
كذبـوا لـيس لـلـكـواكـــب نـــقـــض	في جـــمـــيع الـــورى ولا إبـــرام
والـــذي قـــالـــه الأوائل فـــيهـــا	فهـــو مـــالا يقـــولـــه الإســـلام
إنـمـا سـخـــرت بـــقـــدرة بـــاري	ها إلـى أن يحـين مـنـــه انـــصـــرام
فهـي تـجـري فـي رتـبة لـيس تـعـــدو	ها ولا يسـتـحـيل فـيها الـنـــظـــام
كل يومٍ تـسـاق فـــيه إلـــى الـــغـــر	ب سـراعـاً كـمـا تـسـاق الـســـوام
ليس يقـضـي كـيوان أمـراً كـــمـــا قـــا	لوا، ولا الـمـشـتـــري ولا بـــهـــرام
لا ولا الـشـمـس فـي الـبـروج ولا الـبـــد	ر الـذي ينـجـــلـــي بـــه الإظـــلام

إنـمـا الأمـر الـذي خـلـــق الـــخـــل ق وتـمـضـي بـعـزمـه الأحـــكـــام

باب ثلاثةٍ من الحكم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب: "يا علي! ثلاثة لا تؤخرها: الصلاة إذا أتت، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفؤاً".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثٌ منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات: فالعدل في الرضى والغضب، وخشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغني والفقر. وأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه".

وروى عنه عليه السلام، أنه قال: "ثلاثة من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، وثلاث من شقوة ابن آدم: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء".

وفي الخبر المأثور: "الخير كله في ثلاث: السكوت والكلام والنظر، فطوبى لمن كان سكوته فكره، وكلامه حكمة، ونظره عبرة".

كان الحسن يقول: أصول الشر ثلاثة: الحرص والحسد والكبر، فالكبر منع إبليس من السجود لآدم، والحرص أخرج آدم من الجنة، والحسد حمل ابن آ دم على قتل أخيه.

قال ابن عجلان: ثلاثة لا يصلح العمل إلا بهن: التقوى، والنية الحسنة، والإصابة.

روى سفيان، عن جامع بن أبي راشد، عن ميمون بن مهران، قال: ثلاثة يؤدين إلى البر والفاجر، الأمانة تؤدي الى البر والفاجر والعهد يوفي به للبر والفاجر، والرحم توصل برةً كانت أو فاجرة.

ثلاثة لا شيء أقل منهن، ولا يزددن إلا قلة: درهم حلال تنفقه في حلال وأخ في الله تسكن إليه، وأمين تستريح إلى الثقة به.

قال عمر بن الخطاب: الفواقر في ثلاث: جار سوء في دار مقام، إن رأى حسنةً سترها، وإن رأى سيئة أذاعها. وامرأة سوء إن دخلت لسنتك، وإن غبت عنها لم تأمنها. وسلطانٍ جائر إن أحسنت لم يحمدك، وإن أسأت قتلك.

قال الحسن: لولا ثلاث ما وضع ابن آدم رأسه: المرض والفقر والموت.

قال الضحاك أو غيره من الحكماء: إذا ظفر إبليس من ابن آدم بثلاث لم يطلبه بغيرهن: إذا أعجب بنفسه، واستكثر عمله، ونسى ذنوبه.

قال مسلمة بن عبد الملك: العيش في ثلاث: سعة المنزل، وكثرة الخدم، وموافقة الأهل.

قال الخليل بن أحمد: ثلاث ينسين المصائب: مر الليالي، والمرأة حسناء، ومحادثة الإخوان.

وقال غيره: ليس لثلاثٍ حيلة: فقر يخالطه كسل، وخصومة يداخلها حسد،

ومرض يداخله هرم.
وقال غيره: ثلاثة تجب مداراتهم: الملك السليط، والمرأة، والمريض.
ثلاثة يعذرون في سوء الخلق: المريض، والمسافر، والصائم.
ثلاثة لا يستخف بهم: عامل السلطان، والعالم، والصديق: لأن من استخف بالسلطان أفسد ونياة ومن استخف بالعالم أفسد دينه ومن استخف بالصديق أفسد مروءته.
ثلاثة أشياء تخلق العقل، وتفسد الذهن: طول النظر في المرآة، والاستغراق في الضحك، ودوام النظر في البحر.
ومما يفسد الذهن ثلاثة: الهم والوحدة والفكر.
ثلاثة تهرم وربما قتلت صاحبها: الجماع على الامتلاء، ودخول الحمام على البطنة، وأكل القديد اليابس.
ثلاثة يفرح بهن الجسد ويربو: الطيب، والثوب اللين، وشرب العسل.
ثلاثة تورث الهزال: شرب الماء البارد على الريق، والنوم من غير وطاء، وكثرة الكلام برفع الصوت.
فال سليمان بن موسى: ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة: حليمٌ من سفيه، وبر من فاجر، وشريف من دنئ.
قال أبو الدرداء: ثلاث لا يحبهن غيري: أحب الموت اشتياقاً إلى ربي، وأحب المرض تكفيراً لخطيئتي، وأحب الفقر تواضعاً لربي، فذكر ذلك لابن شبرمة، فقال: ولكني لا أحب واحدة من الثلاث، أما الفقر فو الله للغني أحب إلى منه، لأن الغنى به توصل الرحم، ويحج البيت، وتعتق الرقاب، وتبسط اليد بالصدقة. وأما المرض فو الله لأن أعافي فأشكر أحب إلى من أن أبتلي فأصبر، وأما الموت فو الله ما يمنعنا من حبه إلا ما قدمناه وسلف من أعمالنا، فنستغفر الله.
يقال: ثلاث موبقات: الحرص، وهو أخرج آدم من الجنة: والحسد دعا ابن آدم إلى قتل أخيه، والكبر حط إبليس عن مرتبته.
قال سفيان الثوري: دخلت على جعفر بن محمد، فقال لي: يا سفيان! إذا أنعم الله عليك نعمةً فاحمد الله ، وإذا استبطأت رزقاً فاستغفر الله، وإذا حزبك أمر فقل: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال لي: يا سفيان! ثلاث وأي ثلاث.
ثلاث خصال من حقائق الإيمان: الاقتصاد في الإنفاق، والإنصاف من نفسك، والابتداء بالسلام.
ثلاث من لم تكن فيه لم يطعم الإيمان: حلم يرد به جهل الجاهل، وورع يحجزه عن المحارم، وخلق يداري به الناس.
ثلاث لا يعرفون إلا في ثلاثة: الحليم عند الغضب، والشجاع عند الحرب، والأخ عند الحاجة.
قال ابن مسعود: ثلاث من كن فيه، ملأ الله قلبه إيماناً: صحبة الفقيه،

وتلاوة القرآن، والصيام.
قال عمر بن الخطاب: الرجال ثلاثة: رجل عاقل عفيف مسلم ينظر في الأمور فيوردها مواردها ويصدرها مصادرها إذا أشكلت على عجزة الرجال وضعفتهم، ورجل يلبس عليه رأيه، فيأتي ذوي الرأي والمقدرة فيستشيرهم، وينزل عند ما يأمرونه به، ورجل جاهل لا يهتدي لرشد، ولا يشاور مرشداً.
قال: والنساء ثلاث. وقد ذكرتها في باب النساء.
من فقد ثلاثاً ساء عيشه: النساء، والمال، والإخوان.
ثلاث لا يأنف الكريم من القيام عليهن: أبوه، وضيفه، ودابته.
ثلاث يسهرون: قرض فأر، وأنين مريض، ووكف بيت.
ثلاثة لا راحة منها إلا بالمفارقة لها: السن المتآكلة والمتحركة، العبد الفاسد على مولاه، والمرأة الناشز عن زوجها.
ثلاث إذا كن في الرجل لم يشك في عقله وفضله: إذا حمده جاره، ورفيقه، وقرابته.
كدر العيش في ثلاث: الجار السوء، والولد العاق، والمرأة السيئة الخلق.
ثلاث الإقدام عليهن غرر: شرب السم على التجربة، وركوب البحر للغناء، وإفشاء السر إلى النساء.
قال الشاعر:

ولن يشرب السم الزعاف أخو الحجا ... مدلا بترياقٍ لديه مجرب

ثلاثة من عازهم عادت عزته ذلة: السلطان، والوالد، والعالم. وقد قيل: السلطان والوالد، والغريم.
ثلاثة تبنو الموعظة عن قلوبهم كنبو الماء عن الصفاة: امرأة مغرمة برجل، وشيخ مغرم بشرب الخمر، وملك فاجر.
ثلاث لا يستحيا منهن: طلب العلم، ومرض البدن، وذو القرابة الفقير.
ثلاث من أحسن شيءٍ فيمن كن فيه: جود لغير ثواب، ونصب لغير دنيا، وتواضع لغير ذل.
قال سفيان الثوري: ما بقي لي من نعيم الدنيا إلا ثلاث: أخٌ ثقة في الله أكتسب في صحبته خيراً، إن رآني زائغاً قومني، أو مستقيماً رغبني، ورزق واسع حلال ليست لله علي فيه تبعة، ولا لمخلوق علي فيه منة، وصلاة في جماعة أكفى سهوها وأرزق أجرها.
قال بزر جمهر: ثلاث نواطق وإن كن خرسا: كسوف البال دليل على رقة الحال، وحسن البشر دليل على سلامة الصدر، والهمة الدنية دليل على العزيزة الردية.
قال الشاعر:

وما ضربوا لك الأمثال إلا ... لتحذو إن حذوت على مثال

باب أربعة

أربع خصال من السعادة، وأربع من الشقاوة، فأما التي من السعادة: فالمركب الهني. أو قال: الوطي، والزوجة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح. وأما التي من الشقاوة: فالمركب الصعب، والزوجة السوء، والمسكن الضيق، والجار السوء.
أربع تعرف بهن الأخوة: الصفح قبل الاستقالة، وتقدم حسن الظن قبل التهمة، ومخرج العذر قبل العتب، وبذل الود قبل المسألة.

وقال الحسن: أربع من كن فيه ألقى الله عليه محبته، ونشر عليه رحمته. من بر والديه، ورفق بمملوكه. وكفل اليتيم. وأغاث الضعيف.
أربع من سنن المرسلين: التعطر، والنكاح، والسواك، والختان.
أربع لا ينبغي للشريف أن يأنف منهن: قيامه عن مجلسه لأبيه، وحديثه ضيفه، وقيامه على فرسه - وإن كان له مائة عبد -، وخدمته العالم ليأخذ من علمه.
ذكر بعض قريش عبد الملك بن مروان، فقال: كان آخذاً لأربع، تاركا لأربع: يأخذ بأحسن الحديث إذا حدث، وبأحسن الاستماع إذا حدث، وبأيسر المئونة إذا خولف، وبأحسن البشر إذا لقى، وكان تاركاً لمحادثة اللئيم، ومنازعة اللجوج، ومماراة السفية، ومصاحبة المأفون.
قال الحسن البصري: لما هبط آدم آوحى الله إليه: أربع فيهن جماع الأمر لك ولولدك من بعدك، أما واحدة فلى، والثانية فلك، وأما الثالثة فبيني وبينك، وأما الرابعة فبينك وبين الناس. أما التي لي: فتعبدني ولا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك فعملك أجزيكه أفقر ما تكون إليه، وأما النى بيني وبينك: فعليك الدعاء وعلى الإجابة، وأما التي بينك وبين الناس فتصاحبهم بما تحب أن يصاحبوك به.
أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة.
أربعة لا بقاء لها: مودة الأشرار، والبيت الذي ليس فيه تقدير، والمال الحرام، والكسب الذي ليس معه تقدير.
أربع من حصل عليها واجتمعت عنده، اجتمع له خير الدنيا والآخرة: امرأة عفيفة، وخدين موافق، ومال واسع، وعمل صالح، قال منصور الفقيه:

أفضل ما نال الفتى ... بعد الهدى والعافية
امـرأة جـمـيلة ... عفيفة مـواتـية

قال عبد الله بن عمر: أربع من كن فيه بوئ بهن بيتاً في الجنة: شهادة ألا إله إلا الله، وإن أصاب ذنباً استغفر الله، وإن جرت عليه نعمة، قال: الحمد الله، وإن أصابته مصيبة استرجع فقال: إنا الله وإنا إليه راجعون.
أربع تفسد العقل وتؤثر فيه: الإكثار من أكل البصل، ومن أكل الباقلاء، ومن الجماع، ومن السكر.
أربع من كن فيه كان كاملا، ومن تعلق بواحدة منهن كان من صلحاء قومه: دين يرشده، وعقل يسدده، وحسب يصونه، وحياء يقوده.
قال منصور الفقيه:

فضل التقى افضل من ... فضل اليسار والحسب
إذا هما لم يجـمـعـا ... إلى العفـاف والأدب

أربع من سلم منهن سلم من مكاره الدنيا والآخرة في الأغلب: العجلة، والتواني، واللجاجة، والعجب.
أربعة تقبح وهي في أربعة أقبح البخل في الأغنياء والفحش في النساء والكذب في القضاة والظلم في الحكام.
أربعة قالها جعفر بن محمد، لا تستقل القليل منها: الدين، والنار، والعداوة، والمرض.
قال الشاعر:

أربعة يعجب منها النهي ... يجهلها ذو مرةٍ حاسـره

فواحـد دنـياه قـدامـه ليست له من خلفه آخره
وآخر دنياه مـنـقـوصة من خلفه آخره وافـره
وثالث فاز بكلتـيهـمـا قد جمع الدنيا مع الآخره
ورابع مطرح بـينـهـم ليست له دنيا ولا آخـره

الأذلاء أربعة: النمام، والكذاب، والمديان، والفقير.

قالوا: أربعة تشتد معاشرتهم: الرجل المتواني، والرجل العالم، والفرس المرح، والملك الشديد المملكة.

أربعة تشتد مؤونتهم، النديم المعربد، والجليس الأحمق، والمغني التائه، والسفلة إذا أثرى.

أربعة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والذاكر حتى يفتر، والإمام العدل، ودعوة المظلوم.

أربعة لا يقدرن على أن يشبعن: النار من الحطب، والبحر من الماء، والموت من الأرواح، والشره من المال.

أربعة يهدمن الجسم وربما قتلن: دخول الحمام على البطنة، وأكل القديد الجاف، والغشيان على الامتلاء، ومجامعة العجوز.

أربع لا يشبعن من أربع: عينٌ من نظر، وأذن من خبر، وأنثى من ذكر، وأرض من مطر.

أربع إذا كن في الرجل أهلكنه: حب النساء، وحب الصيد، وحب الفخار، وحب الخمر.

قال عمر بن عبد العزيز: أحب الأشياء إلى الله أربعة: القصد عند الجدة، والعفو عند المقدرة، والحلم عند الغضب، والرفق بعباد الله في كل حال.

قال المأمون: الناس في تصرفهم ومعايشهم بين أربعة أمور، من لم يكن منها كان عيالا عليها وكلاّ: الإمارة، والتجارة، والزراعة، والصناعة.

أربعة لا يستحيا من الختم عليها: المال لنفي التهمة، والجوهر لأمن البدل، والدواء للاحتياط، والطبب للصيانة.

قال العتبي: اجتمعت الحكماء على أربع كلمات، وهي: لا تحملن على قلبك مالا تطيق، ولا تعمل عملا ليس لك فيه منفعة، ولا تثقن بامرأة، ولا تغتر بالمال وإن كثر.

باب خمسة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بُنى الإسلام على خمس..." الحديث.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر: "يا عبد الله! اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك".

قال بعض الحكماء: خمسة أشياء من أعطيها فقد كمل عيشه: صحة البدن، وهو الجزء الأكبر، والسعة في الرزق، وهو الثاني، والأمن وهو الثالث،

والأنيس الموافق وهو الرابع، والدعة، فمن حرمها فقد حرم العيش.
واجتمع الحكماء أنه لا ينبغي للمرء أن ينزل بلدةً ليس فيها خمسة أشياء: سلطان قاهر، وقاضٍ عادل، وسوق قائمة، وطبيب عالم، ونهر جارٍ.
روى الأصمعي، قال: حدثنا الفضل بن عبد الملك بن أبي شهبة، قال: قال الأحنف: لا ينبغي أن تنزل بلداً حتى يكون فيه خمس خصال، فذكرها سواء.
ذكر الشافعي عن مالك، عن الزهري، قال: الذل في خمسة أشياء: حضور المجلس بلا نسخة، وعبور المعبر بلا قطعة، ودخول الحمام بلا خادم، وتذلل الشريف للدنئ لينال منه، والتذلل للمرأة لينال من مالها.
خمسة لا يستحيا من خدمتهم: السلطان، والوالد، والعالم، والضيف، والدابة.
خمسة أشياء تقبح في خمسة أصناف: الحدة في السلطان، وقلة الحياء في ذوي الأحساب، والبخل في ذوي الأموال، والفتوة في الشيوخ، والحرص في العلماء والقراء.
قال وبرة بن خداش: أوصاني عبد الله بن عباس بخمس كلماتٍ هي أحب إلى من الدهم الموقوفة في السبيل، قال لي: إياك والكلام فيماً لا يعنيك أو في غير موضعه، فرب متكلم فيما لا يعنيه أو في غير موضعه قد عنت، ولا تمار سفيهاً ولا فقيها، فإن الفقيه يغلبك والسفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا غاب عنك أن يذكرك به، ودع ما تحب أن يدعه منك، واعمل بما تحب عمل رجل يعلم أنه يجازي بالإحسان ويكافى بالإجرام.
قال عمر بن الخطاب: من لم يكن فيه خمس فلا ترجوه لشيء من الدنيا والآخرة: من لم يعرف بالوثيقة في أرومته، والكرم في طبيعته، وبالدماثة في خلقه، وبالنبل في نفسه، وبالمخافة لربه.
خمس من طبيعة الجهال: الغضب في غير شيء، والإعطاء في غير حق، وإتعاب البدن في الباطل، وقلة معرفة الرجل لصديقه من عدوه، وتضييعه لسره.
خمسة أشياء أضيع شيءٍ في الدنيا: سراج يوقد في الشمس، ومطر وابل في أرضٍ سبخة، وامرأة حسناء تزف إلى عنين، وطعام يستجاد ثم يقدم إلى سكران أو شبعان، ومعروف تصنعه عند من لا يشكرك.
خمس لا يشبعن من خمس: أذن من خبر، وعين من نظر، وأنثى من ذكر، وأرض من مطر، وعالم من أثر.
خمس يزدن في النسيان: إلقاء القملة، وأكل التفاح، والحجامة في النقرة، والبول في الماء الراكد، وأكل سؤر الفأرة.
ومما يدخل في هذا الباب قول الأحنف: لا راحة لحسود، ولا مروءة لبخيل، ولا إخاء لكذوب، ولا وفاء لملول، ولا سؤدد لسيء الخلق.
قال الأوزاعي: خمسة كان عليها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم

والتابعون بإحسان: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المسجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل الله.
باب نوادر من الرؤيا مختصرة
قال رسول الله صلى الله وسلم: "إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثا، رؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللبن فطرة، والقيد ثبات في الدين، والغرق نار؛ لقوله تعالى: "أغرقُوا فأدخلُوا ناراً"، ومن رآني فقد رآني، فإن الشيطان لا يتشبه بي.
قال أبو بكر: يا رسول الله! ما أزال أرى كأني أطأ في عذرات الناس، قال: لتلين أمور الناس قال: ورأيت في صدري كالرقمتين. قال: سنتين. قال: ورأيت كأن على حلة حبرة، قال: ولد تحبر به، وفي رواية أخرى: قال له: يا رسول اللهّ! ورأيت كأن في صدري كبتين، قال النبي عليه السلام: "على أمر الناس سنتين".
رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه: أنه دخل الجنة، وأنه رأى فيها عذقاً مدلى فأعجبه وقال: "لمن هذا! فقيل: لأبي جهل. فشق ذلك عليه صلى الله عليه وقال: ما لأبي جهل والجنة؟ والله لا يدخلها أبداً، فإنها لا يدخلها إلا نفس مؤمنة. فلما أتاه عكرمة بن أبي جهل مسلماً فرح به، وقام إليه، وتأول ذلك العذق عكرمة ابنه".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيت أني دخلت الجنة فسقيت لبنا فشربت حتى رأيت الري - أو قال: اللبن - خرج من أظفاري، قالوا: فما تأولته يا رسول الله؟ قال: العلم".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رأيت كأن يتبعني غنم سود يتبعها غنم عفر" قال أبو بكر: يا رسول الله تلك العرب تتبعها العجم، قال: "كذلك عبرها الملك".
مر صهيب بأبي بكر الصديق، فأعرض عنه، فقال أبو بكر: مالك؟ أبلغك عني شيء؟ فقال: لا. إلا رؤيا رأيتها لك كرهتها. قال: وما هي؟ قال: رأيتك مجموع اليدين إلى عنقك على باب أبي الحشر الأنصاري. قال: نعم ما رأيت جمع لي ديني إلى الحشر.
قالت عائشة لأبي بكر الصديق: رأيت كأن ثلاثة أقمار سقطن في حجري، فقال لها: إن صدقت رؤياك دفن في بيتك ثلاثة من خير أهل الأرض، فلما دفن النبي عليه السلام في بيتها، قال أبو بكر: هذا أحد أقمارك وهو خيرها.
جاء رجل إلى أبي بكر فقال: رأيت كأني أبول دماً، قال: أنت رجل تأتي امرأتك وهي حائض، فاتق الله ولا تفعل.
جاء رجل إلى أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فقال: رأيت كأني أحدث ثعلباً، قال: أنت رجل كذاب، فاتق الله ولا تفعل.

رأي النبي صلى الله عليه وسلم رؤيا، فقصها على أبي بكر، فقال: "يا أبا بكر! رأيت كأني أنا وأنت نرقي درجة فسبقتك بمرقاتين ونصف" قال: يا رسول الله! يقبضك الله إلى مغفرته ورحمته فأعيش بعدك سنتين ونصفاً.
قالت عائشة لأبي بكر: رأيت كأن بقراً نحرن حولي. قال: إن صدقت رؤياك قتل حولك فئة.
قال رجل لأبي بكر الصديق: إني رأيت الليلة في المنام نوراً عظيماً يخرج من جحر صغير فجعلت أتعجب من صغر الجحر وعظم النور، ثم إن النور أراد أن يعود في الجحر فلم يقدر. فقال أبو بكر: هي الكلمة العظيمة تخرج من الرجل يريد أن يردها فلا يستطيع.
رأى رجل في المنام كأنه يطلب بطة معها ثلاثة فراخ، فأدرك البطة وفاتته الفراخ فسئل فقيل: هذا رجل صلى العتمة، ونام عن الوتر حتى أصبح، فقال الرجل: ما تركت الوتر منذ ثلاثين سنة إلا البارحة.
قام عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل أب يقتل بأيام، فقال: إني رأيت ديكاً نقرني نقرتين أو ثلاثا. فوجأه أبو لؤلؤه غلام المغيرة وجئتين أو ثلاثا فقتله.
قال بعض أمراء الشام لعمر: يا أمير المؤمنين! رأيت كأن الشمس والقمر اقتتلا ومع كل واحد منهما فريق من النجوم. قال: مع أيهما كنت؟ قال مع القمر. قال: مع الآية الممحوة، لا عملت لي أبداً. فعزله وقتل مع معاوية بصفين.
قال علي بن أبي طالب: لا رؤيا لخائف. إلا أن يرى ما يحب.
رأى عامر بن عبد الله بن الزبير في النوم، امرأةً ثائرة الشعر بين الركن والمقام، وهي تقول:

آذنت زينة الحياة ببينٍ وانقضاءٍ من أهلها وفناء

فتأول الناس من رؤيا عامر الدنيا.
قال رجل لابن سيرين: رأيت كأني آكل خبيصاً في الصلاة. قال: الخبيص حلال طيب، ولا يحل الأكل في الصلاة، أنت رجل تقبل امرأتك وأنت صائم. قال: نعم. قال: فلا تعد.
كان ابن سيرين يعبر الأذان في النوم عملاً صالحا فيه شهرة.
وقال ابن سيرين في جنازة يتبعها الناس: هذا قائد له أتباع.
أتى رجل إلى ابن سيرين فقال: رأيت البارحة امرأة من جيراني كأنها ذبحت في بيتٍ من دارها. فقال: هذه المرأة نكحت الليلة في ذلك البيت. فعز على السائل ما ذكره؛ لأن زوج المرأة كان غائباً عنها، فلما انصرف قال له أهله: رأيت فلاناً؟ -يعنون الغائب جاره - فقال: وهل أتى؟ قالوا: نعم. وفي داره بات البارحة. فقصده وسأله، فكان كما قال ابن سيرين.
قال رجل لابن سيرين: رأيت في المنام كأن قرداً يأكل معي على مائدة. فقال: هذا غلام أمرد اتخذه بعض نسائك.

قال رجل لابن سيرين: رأيت في المنام كأن في حجري صبياً يصيح. فقال له ابن سيرين: اتق الله ولا تضرب العود.
قال رجل لابن سيرين: رأيت في المنام كأني أطير بين السماء والأرض. فقال: أراك تكثر الأماني.
قال رجل لابن سيرين: رأيت في المنام كأن لحيتي بلغت سرتي، وأنا أنظر إليها. فقال له: أنت رجل مؤذن تنظر في دور الجيران.
كان ابن سيرين يستحب الطيب في النوم، يقول: هو ثناء حسن. وكان يعجبه الطيب الأسود كالمسك والغالية وشبه ذلك، ويقول: يتبعه عيش وثناء حسن.
سئل ابن سيرين عن الفيل في النوم، فقال: أمر جسيم قليل المنفعة.
قال رجل لابن سيرين: ما تقول يا أبا بكر في امرأة كانت ترى في المنام كأنها تأكل رأس جزور؟ فقال: تتقي الله ولا تبغض العرب.
كان ابن سيرين يستحب الزيت في النوم، ويقول: هو بركة كله، إن أكلته أو أدخلته بيتك أو شربته أو ادّهنت به أو تلطخت، لأنه من شجرةٍ مباركة.
كان ابن سيرين يقول: الماء في لا نوم فتنة، وبلاء في الدين، وأمر شديد؛ لأن الله تعالى يقول: "إنَّ الله مُبتلِيكم بنهرٍ". وقال: "ماءً غدقاً، لنفتنهم فيه".
قال ابن سيرين: ومن عبر نهراً، قطع بلاءً وفتنة ومشقة، ونجا من ذلك.
أتى رجل ابن سيرين، فقال له: خطبت امرأة فرأيتها في المنام. فقال له ابن سيرين: كيف رأيتها؟ قال: رأيتها سوداء قصيرة مكسورة الفم. فقال ابن سيرين: أما الذي رأيت من سوادها فإنها امرأة لها مال، وأما ما رأيت من كسر فمها فإنها امرأة فظيعة اللسان، وأما ما رأيت من قصرها، فإنها امرأة قصيرة العمر، وتوشك أن تموت عاجلاً، فذهب فتزوجها.
كان ابن سيرين يعبر الرجل إذا رأى أنه حل إزاره أو انحل، قال: هذا رجل يرزق امرأة.
وكان ابن سيرين لا يعبر الخاتم في المنام إلا امرأة يستفيدها. وكذلك كان هشام بن حسان: لا يعبر الفص في الخاتم: إلا أنه يقول: امرأة فيها قسوة.
قال هشام بن حسان: كان ابن سيرين يسأل عن مائة رؤيا، فلا يجيب فيها بشيء إلا أنه يقول: اتق الله وأحسن في اليقظة، فإنه لا يضرك ما رأيت في النوم، وكان يجيب في خلال ذلك، ويقول: إنما أجيب بالظن، والظن يخطئ ويصيب.
قيل لابن سيرين: إنك تستقبل الرجل بما يكره، قال: إنه علم أكره كتمانه.
رأى الرشيد رؤيا فهمته، فوجه في الكرماني بريداً، فلما أتاه ومثل بين يديه خلا به وقال: بعثت فيك لرؤيا رأيتها. فقال: وما هي؟ قال: رأيت كلبين ينهشان قبل جارية من جواري. فقال له الكرماني: ما رأيت إلا خيراً يا أمير المؤمنين، فقال له الرشيد: قل ما تراه وهات ما عندك، فقال له: هذه

جارية دعوتها لتجامعها، وكان لا عهد لك معها بذلك، وكانت ذات شعر، فكرهت أن تحلق فتجد أثر الموسي، وكرهت أن تبقى على هيئتها، فأخذت جلماً فحلقت بعض الشعر وتركت بعضه، فأشار الرشيد إليه بالقعود، وقام فدخل إلى نسائه، ودعا بتلك الجارية فسارها مستفهماً منها عن ذلك، فأقرت به وصدقت الكرماني، فخرج إليه الرشيد، فقال له: أصبت وسررتني، وأمر له بصلة سنية، ثم قال له: إياك أن تحدث بها ما كنت حياّ. قال: فو الله ما حدثت بها ما دام الرشيد حيا.
قال الزبير: حدثني أبو ضمرة أنس بن عياض، قال: قيل لجعفر بن محمد: كم تتأخر الرؤيا؟ فقال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن كلباً أبقع يلغ في دمه، فكان شمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين رضى الله عنه، وكان أبرص، فكان تأويل الرؤيا بعد خمسين سنة.
ذكر ابن المنتاب القاضي المالكي، قال: حدثنا بن أبي خيثمة، قال: حدثنا خالد بن خداش قال: حدثنا حماد بن زيد، قال: وجه إلى جعفر بن سليمان ليلا، وهو أمير البصرة، فدخلت عليه، فقبلت يده فقبل يدي، وإذا هو مروع، فقال: رأيت البارحة مالك بن أنس في النوم وهو يقول: بيني وبينك الله. فقلت له: مالك بن أنس من العلم بمكان، وإنه لا يطالبك إلا بما بينك وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرابة والنسب. قال: فما ترى؟ قلت له: تعتق. فأعتق عن كل سوط رقبة. قال القاضي ابن المنتاب: وكان عدد الأسواط نيفاً وثلاثين سوطاً.
باب من نوادر الأخبار

أخبرنا أحمد بن عمر، حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا علي بن عمرو، حدثنا أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن إبراهيم الكاتب الحكمي، قال: حدثنا أحمد بن عبيد بن ناصح، قال: حدثنا محمد ابن يزيد بن سنان الزيادي، قال: حدثنا شرقي بن قطامي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهم: فيكم أحد من إياد؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فهل لكم علم بقس بن ساعدة الإيادي؟ قالوا: هلك يا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كأني أنظر إليه بسوق عكاظ يخطب الناس على جمل أحمر، يقول: أيها الناس! اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، أما بعد: فإن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، نجوم تغور وتمور، ونجوم تغور ولا تمور، وسقف ومرفوع، ومهاد موضوع، أقسم قس قسما، ما كذب ولا أثم، لئن كان في الأمر رضا، ليكونن بعده سخط، وما هذا بلعب، وإن من وراء هذا لعجبا، أقسم قس قسما، فما كذب ولا أثم، إن لله ديناً هو أرضى من دين نحن عليه، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام

فأقاموا، أم تركوا فناموا. قال النبي عليه السلام: وسمعته ينشد شعراً فأيكم يحفظه؟ فقال بعضهم: أنا. فأنشده يا رسول الله؟ قال: نعم. فقال:

في الـذاهـبـين الأولـي ن من القرون لنا بصـائر
لمــا رأيت مـــوارداً للموت ليس لها مصـادر
ورأيت قومي نـحـوهـا يمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضـي إلـى ولا من الباقـين غـابـر
أيقـنـت أنـي لامـحـا له حيث صار القوم صائر

بينما عمر بن الخطاب رضى الله عنه جالس مع أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم علي بن أبي طالب وجماعة من المهاجرين، فالتفت إليهم، فقال: إني سائلكم عن خصال فأخبروني بها، أخبروني عن الرجل بينما هو يذكر الشيء إذ نسيه، وعن الرجل يحب الرجل ولم يلقه، وعن الرؤيين إحداهما حق، والأخرى أضغاث أحلام، وعن ساعة من الليل ليس أحد إلا وهو فيها مروع، وعن الرائحة الطيبة مع الفجر، فسكت القوم. فقال: ولا أنت يا أبا الحسن؟ فقال: بلى والله. إن عندي من ذلك لعلماً، أما الرجل بينما هو يذكر الشيء إذ نسيه، فإن على القلب طخاءً كطخاء القمر، فإذا سرى عنه ذكر، وإذ أعيد عليه نسى وغفل. وأما الرجل يحب الرجل ولم يلقه فإن الأرواح أجناد مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. وأما الرؤيا إحداهما حق والأخرى أضغاث؛ فإن في ابن آدم روحين، فإذا نام خرجت روح فأتت الحميم والصديق، والبعيد والقريب والعدو، فما كان منها في ملكون السموات فهي الرؤيا الصادقة، وما كان منها في الهواء فهي الأضغاث، وأما الروح الأخرى فللنفس والتقلب، وأما الساعة من الليل التي ليس أحد إلا وهو فيها مروع، فإن تلك هي الساعة التي يرتفع فيها البحر يستأذن في تغريق أهل الأرض، فتحسه الأرواح فترتاع له، وأما الرائحة الطيبة مع الفجر، فإن الفجر إذا طلع خرجت ريح من تحت العرش حركت الأشجار في الجنة فهي الرائحة الطيبة. خذها يا عمر، قال: صدقت.

قال محمد بن علي بن عبد الله بن عباس: دخلت على عمر بن عبد العزيز، وعنده رجل من النصاري، فقال له: من تجدون الخليفة بعد سليمان قال النصراني: أنت. قال: فأقبل عمر بن عبد العزيز علي فقال: دمي في ثيابك يا أبا عبد الله، قال: فقلت: سبحان الله! المجالس بالأمانة. قال محمد بن علي: فلما كان بعد ذلك جعلت ذلك النصراني من بالي، فرأيته يوماً فأمرت غلامي أن يحبسه علي، وذهبت به إلى منزلي، وسألته عما يكون، وقلت: عد لي خلفاء بني مروان واحداً واحداً. فعد لي خلفاء بني مروان واحداً واحداً. وتجاوز عن مروان بن محمد، قال محمد بن علي، فقلت له: ثم من؟ قال: ثم ابنك من الحارثية، وهو اليوم حمل.

كتب صاحب الروم إلى معاوية يسأله عن أفضل الكلام وما هو؟ والثاني

والثالث والرابع? وكتب إليه يسأله عن أكرم الخلق على الله، وعن أكرم الإماء على الله، وعن أربعة من الخلق لم يركضوا في رحم، وعن قبر سار بصاحبه، وعن المجرة، وعن القوس، وعن مكان طلعت فيه الشمس لم تطلع فيه قبل ذلك ولا بعده. فلما قرأ معاوية الكتاب قال: أخزاه الله! وما علمي بما ها هنا? فقيل: اكتب إلى ابن عباس، فكتب إليه ابن عباس: أفضل الكلام لا إله إلا الله، كلمة الإخلاص لا عمل إلا بها، والتي تليها سبحان الله وبحمده، صلاة الخلق، والتي تليها الحمد الله، كلمة الشكر، والتي تليها الله أكبر، فاتحة الصلوات والركوع والسجود. وأكرم الخلق على الله آدم عليه السلام، وأكرم إماء الله مريم عليها السلام. وأما الأربعة الذين لم يركضوا في رحم: فآدم وحواء والكبش الذي فدى به إسماعيل، وعصا موسى حيث ألقاها فصارت ثعباناً مبيناً، وأما القبر الذي سار بصاحبه فالحوت الذي التقم يونس، وأما المجرة فباب السماء، وأما القوس فإنها أمان لأهل الأرض من الغرق بعد نوح، وأما المكان الذي طلعت عليه الشمس، لم تطلع فيه قبله ولا بعده، فالمكان الذي انفرج من البحر لبني إسرائيل مع موسى عليه السلام. فلما قدم عليه الكتاب أرسله إلى ملك الروم، فقال: لقد علمت أن معاوية لم يكن له بهذا علم، وما أصاب هذا إلا من أهل بيت النبوة.

وجه ملك الروم إلى معاوية بقارورة، فقال: ابعث إلى فيها من كل شيء حي، فبعث بها إلى ابن عباس، فقال: تملأ له ماء. فلما ورد به على ملك الروم، قال له أخوه: ما أدهاه! فقيل لابن عباس: كيف اخترت ذلك? قال: يقول الله عز وجل: "وجعلنا من الماء كل شيءٍ حي".

قال المسيب بن واضح: سمعت عبد الله بن المبارك يقول: حصر حصن بخراسان فأصابوا فيه رأس إنسان، فوزنوا سناً من أسنانه فوجدوها قدر منيين، فأنشأ عبد الله يقول:

أتيت بسـنـين قـد رمـتـا	من الحصن لما أثاروا الدفينا
على وزن منيين إحداهـمـا	تقل به الكف شـيئاً رزينـا
ثلاثون أخرى على قدرهـا	تباركت يا أحسن الخالقينـا
فماذا يقـوم لأفـواهـهـم	وما كان يملأ تلك البطونـا
إذا ما تذكرت أجسـامـهـم	تقاصرت النفس حتى تهونا
وكل على ذاك ذاق الـردى	وبادوا جميعاً فهل خالدونـا

روى أسامة بن زيد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: أخبرني عمر بن الخطاب قال: خرجت مع أناسٍ من قريش في الجاهلية في تجارة إلى الشام، فبينما أنا في سوق من أسواقها بدمشق إذ أنا ببطريق قد جاءني فأخذ بعنقي، فذهبت أنازعه نفسي، فقيل لي: لا تفعل فليس لك منه

النصف، قال: فخرجت معه فأدخلني كنيسةً فإذا تراب كثير متراكم بعضه على بعض، فدفع إلي بمجرفة وفأساً وزنبيلا، فقال لي: انقل هذا التراب واحفر لي هاهنابئراً، قال: فجلست أفكر في أمري كيف أصنع، قال: فأتاني في الهاجرة وعليه سبنية قصب، أرى سائر جسده منها، ولم أحرك شيئاً، فقال لي: وإنك على ما أرى ما حركت شيئاً، ثم ضم كفه وأصابعه يضرب بها وسط رأسي، فقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا عمر، أو قد بلغت ما أرى! قال: فقمت إليه بالمجرفة فضربت بها رأسه فنثرت دماغه وخر ميتاً، وخرجت إلى الطريق، وأنا لا أدري أين أسلك من بلاد الله تعالى، فمشيت بقية يومي وليلتي من الغد حتى أصبحت، ثم انتهيت إلى ديرٍ فاستظللت بظله، فخرج إلى رجل من أهل الدير، فقال: يا عبد الله! ما يقعدك ها هنا؟: فقلت: أضللت أصحابي. قال: والله ما أنت على طريق، وإنك لتنظر بعين خائف، قم فادخل الدير فأصب من الطعام والشراب، وأقم ما بدا لك، قال: فدخلت فأتاني بطعام وشراب وألطف لي، ثم صعد في النظر وخفضه، ثم قال: يا هذا! لقد علم أهل الكتاب أنه لم يبق على وجه الأرض رجل أعلم مني اليوم، وإني أجد صفتك، إنك الذي تخرجنا من هذا الدير، وتغلب على هذا البلاد. فقلت: أيها الرجل! ذهبت من الأمر في غير مذهب. قال: ما اسمك؟ قلت: عمر بن الخطاب. قال: أنت والله الذي لا إله إلا هو صاحبنا من غير شك، فاكتب لي على ديري هذا وأهله وما فيه أماناً، قال: قلت: أيها الرجل! قد صنعت معروفاً فلا تكدره، قال: إنما هو كتاب في رق، وليس عليك فيه مؤونة ولا شيء، فإن كنت صاحبنا فهو الذي أريد، وإن تكن الأخرى فأي شيءٍ يضرك؟ قلت: هات، فكتبت له أماناً ثم ختمته ودفعته إليه. قال: فدعا بنفقة وثوب فدفعها إلي، ثم دعا بأتان قد أوكفت، فقال: أتسمع؟ قلت: نعم. قال: اخرج على هذه الأتان فإنها لا تمر بقوم ولا أهل دير إلا علفوها، حتى إذا بلغت مأمنك فخل عنها واضرب وجهها مدبرة، فإنها تعلف وتسقي حتى تصل. قال: فركبتها ثم سرت عليها حتى أدركت أصحابي وهم متوجهون، فلم أمر بقوم إلا سقوها وعلفوها حتى لحقت أصحابي، فنزلت عنها، وضربت وجهها مدبرة، ثم سرت معهم حتى قدمت على أهلي. قال أسلم: فلما قدم عمر بن الخطاب الشام أتاه ذلك الراهب في خلافته، وهو صاحب دير العدس بذلك الكتاب، فلما قرأه عمر عرفه، فقال له الراهب: فِ لي بشرطي، فقال له عمر: جاء أمر غير ذلك، جاء ما ليس لعمر ولا لأبي عمر فيه شيء، فاستشار فيه عمر المسلمين، فقالوا: نرى أن تفي له يا أمير المؤمنين، قال عمر: هل عندك للمسلمين منفعة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فأنشأ عمر يحدثنا حديثه حتى أتى على آخره، ثم قال عمر للراهب: إن أضفتم المسلمين، وأرشدتموهم الطريق، وهديتم الضال، ومرضتم المرضى ممن يمر بكم من المسلمين فعلنا، قال: نعم يا أمير المؤمنين نفعل. قال: فوفي له عمر.

أخوجوا الكرة وضربوها مرة ثالثة فسقطت في حجري ودخلت في كمي، فزاد تعجبهم وقالوا: إن هذا الأمر يراد أو بطل فعل الكرة. وأقمت حتى انقضت أيام عيدهم، فسألته أن يأذن لي في الخروج إلى الحجاز، فأذن لي في ذلك، بعد أن شرط على أن لا أترك زيارته في كل وقتٍ يمكني، وأنفذني مع غلام له وجهزني بطريفٍ من ثياب الوشي التي كانت تعمل بالإسكندرية، وثياب من دبيق دمياط، وأكسية رقيقةً من صوف، وفصوص وغير ذلك، فانصرفت إلى أهل بوفر حال، وأخرجني الغلام من ناحية أستغني فيها عن الخفير، وكان الغلام الذي وجهه به معي يدري أمرهم، فسألته عن أمرة الكرة فعرفني أن من عاداتها ذلك اليوم، ألا يقع في حجر أحدٍ إلا ولي مصر، وأنهم عجبوا من ذلك، وقالوا: هذا رجل عربي وغريب. وكيف يلي هذا مصر؟! وصرفوا الأمر إلى فساد فعل الكرة، قال عمرو: فوقع في نفسي من ذلك أمر لم أعرف الوجه فيه، وسرت إلى منزلي وأنا أوفر التجار الذين خرجت معهم إلى الشام وأحسنهم حالا، وعرض في نفسي شيء من أمر مصر، فقلت: أحمل تجارة إلى بلد الروم، وأدخل إلى الملك ولعله أن يقلدني أمر مصر، ثم قلت: إن هذا النظر فاسد، وهل يترك الملك بطارقته وأصحابه ويوليني أنا وأنا عربي على غير دينه؟ فسمعت قائلاً يقول: لابد لفلان من ذلك ويصير منه إلى ما يحب. فزاد ذلك في قوة أملي في الولاية على مصر إلى أن كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما كان، وجاءته هدية المقوقس، وقال: "إنكم ستفتحون مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، وجازوا أهلها بالجميل، فإنهم خؤولة إبراهيم"، فلما سمعت ذلك تحققت أنه سيكون لي يد على مصر.وا الكرة وضربوها مرة ثالثة فسقطت في حجري ودخلت في كمي، فزاد تعجبهم وقالوا: إن هذا الأمر يراد أو بطل فعل الكرة. وأقمت حتى انقضت أيام عيدهم، فسألته أن يأذن لي في الخروج إلى الحجاز، فأذن لي في ذلك، بعد أن شرط على أن لا أترك زيارته في كل وقتٍ يمكني، وأنفذني مع غلام له وجهزني بطريفٍ من ثياب الوشي التي كانت تعمل بالإسكندرية، وثياب من دبيق دمياط، وأكسية رقيقةً من صوف، وفصوص وغير ذلك، فانصرفت إلى أهل بوفر حال، وأخرجني الغلام من ناحية أستغني فيها عن الخفير، وكان الغلام الذي وجهه به معي يدري أمرهم، فسألته عن أمرة الكرة فعرفني أن من عاداتها ذلك اليوم، ألا يقع في حجر أحدٍ إلا ولي مصر، وأنهم عجبوا من ذلك، وقالوا: هذا رجل عربي وغريب. وكيف يلي هذا مصر؟! وصرفوا الأمر إلى فساد فعل الكرة، قال عمرو: فوقع في نفسي من ذلك أمر لم أعرف الوجه فيه، وسرت إلى منزلي وأنا أوفر التجار الذين خرجت معهم إلى الشام وأحسنهم حالا، وعرض في نفسي شيء من أمر مصر، فقلت: أحمل تجارة إلى بلد الروم، وأدخل إلى الملك ولعله أن يقلدني أمر مصر، ثم قلت: إن

هذا النظر فاسد، وهل يترك الملك بطارقته وأصحابه ويوليني أنا وأنا عربي على غير دينه؟ فسمعت قائلاً يقول: لابد لفلان من ذلك ويصير منه إلى ما يحب. فزاد ذلك في قوة أملي في الولاية على مصر إلى أن كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما كان، وجاءته هدية المقوقس، وقال: "إنكم ستفتحون مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، وجازوا أهلها بالجميل، فإنهم خؤولة إبراهيم"، فلما سمعت ذلك تحققت أنه سيكون لي يد على مصر.

روى ابن جريج، قال: حدثني يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير، أنه قال: سمعته يقول: كان رجل من بني إسرائيل يقرأ، فإذا بلغ "بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأسٍ شديد" بكى وفاضت عيناه، ثم يطبق المصحف. فعل ذلك ما شاء الله من الزمان، ثم قال: أي رب! أرني هذا الرجل الذي جعلت هلاك بني إسرائيل على يديه، فأرى في المنام مسكيناً سائلاً يقال له: بخت نصر ببابل، فانطلق بمال وأعبدٍ له، وكان رجلاً موسراً، فقيل له: أين تريد؟ فقال: أريد التجارة. فنهض حتى نزل ببابل فاكتري بها منزلاً ليس فيه أحد غيره، وجعل يدعو المساكين ويعطيهم ويلطف بهم حتى لم يبق أحد منهم إلا جاء، فقال: هل بقى مسكين غيركم؟ قالوا: نعم، مسكين بفج آل فلان مريض يقال له: بخت نصر. فقال لغلمته: انطلقوا وانطلق معهم حتى أتاه، فقال له: ما اسمك؟ قال: بخت نصر، قال لغلمته: احتملوه. فنقله إليه فمرضه حتى براً، وكساه وأعطاه نفقةً، ثم أذن الإسرائيلي بالرحيل، فبكى بخت نصر، فقال له الإسرائيلي: ما يبكيك؟ قال: أبكي أنك فعلت معي ما فعلت ولا أجد شيئاً أجزيك به. قال: بل شيئاً يسيراً إن ملكت أطعتني. فجعل بخت نصر يلتوي ويقول: تستهزئ بي؟ ولا يمنعه أن يعطيه ما سأل إلا أنه يستهزئ به، وأبى عليه. فبكى الإسرائيلي وقال: لقد علمت أنه ما يمنعك أن تعطيني ما سألت إلا أن الله تعالى يريد أن ينفذ ما قضى وما قد كتبه عنده في كتابه، ثم ضرب الدهر ضرباته، فقال سيحون وهو ملك فارس ببابل: إنا لو بعثنا طليعةً إلى الشام كان حسناً. قالوا: وما يمنعك؟ قال: فمن ترون؟ قالوا: فلان. فبعث رجلاً وأعطاه مائة ألف، فخرج وخرج بخت نصر في مطبخه لا يخرج إلا أن يأكل، لا همة له غير شبع بطنه، فلما قدم الشام رأى صاحب الطليعة أرضاً أكثر أرض الله خيلا ورجلا وسلاحاً، فكسر ذلك في ذرعه، فلم يسأل ولحقه جزع، وجعل بخت نصر يمشي في مجالس أهل الشام فلا يدع مجلساً إلا وهو يقول لأهله: ما يمنعكم أن تغزوا بابل مع كثرة ما أرى معكم من الخيل والرجل، فلو غزو تموها لأصبتم بها المال والعيال. قالوا: فلا نحسن القتال ولا نعرفه، حتى استنفد مجالس أهل الشام، ثم رجع إلى الطليعة ولم ينل منهم كثير نيلٍ لما رأى، وجعل بخت نصر يقول لمن يلج على الملك: لو دعاني الملك لأخبرته غير ما يخبره فلان - يعني الطليعة - فرفع ذلك إليه، فدعاه، فأخبره الخبر، وقال: إن فلاناً لما

رآها أكثر أرض الله خيلا ورجلا حسبهم أجلد الناس، فكسر ذلك في ذرعه، ولم يسألهم عن شيء، وإن لم أدع مجلساً بالشام إلا جالست أهله، فقلت لهم كذا فقالوا لي كذا، فقال الطليعة لبخت نصر بعد خروجه من عند الملك: فضحتني أيها الرجل، فهل لك في مائة ألفٍ تأخذها وتنزع عما قلت؟ قال: لو أعطيتني بيت مال بابل لما نزعت. ثم أن الدهر ضرب ضربه، وقال الملك: لو بعثنا جريدة خيلٍ إلى الشام، فإن وجدوا مساغاً ساغوا، وإلا انهبوا ما قدروا عليه؟ قالوا: فما ضرك لو فعلت؟ قال: فمن ترون؟ قالوا: فلان أو فلان. قال لهم: بل الرجل الذي أخبرني بما أخبر. فدعا بخت نصر، فأرسله وأرسل معه أربعة آلافٍ من فرسانهم، فانطلقوا فجاسوا خلال الديار، فسبوا ما شاءوا وخربوا ولم يقتلوا، ورمى في جنازة سيحون فمات، فقالوا: استخلفوا رجلا. فقالوا: على رسلكم حتى يأتي أصحابكم من وجهتهم، فأمهلوا حتى جاء بخت نصر فقسم ما جاء به في الناس، فقالوا: ما رأينا أحق بالملك من هذا؟ فملكوه. فلم ضرب له ملكه بجرانه، قال لهم يوماً: موعدكم ثالثة فمن استأخر بعدها منكم فليمش إلى خشبته، فغزا الشام، فذلك حين قتل، وخرب بيت المقدس وانتزع حليته وحملها، وجعل يشرب فيها الخمور وخواناً يأكل عليها الخنازير، وحمل التوراة معه ثم ألقاها في النار، وقدم فيما قدم بمائة وصيف منهم دانييل وعزير، وكان يقال له عزريا، وحنانيا وميشائيل، فقال لإنسان: أصلح لي أجسام هؤلاء، لعلي أختار منهم أربعة يخدمونني. فقال دانييل لأصحابه: اعلموا أنهم إنما نصروا عليكم بما غيرتم من دين آبائكم. لا تأكلوا لحم الخنزير، ولا تشربوا الخمور. فقالوا للذي يصلح أجسامهم: هل لك أن تطعمنا طعاماً هو أهون عليك في المؤونة مما تطعم أصحابنا، فإن لم نسمن قبلهم أكثر من سمنهم رأيت رأيك؟ قال: ماذا؟ قالوا: خبز الشعير والكراث. ففعل، فسمنوا قبل أصحابهم. فأخذهم بخت نصر يخدمونه. قال: فبينما

هو كذلك إذ رأى بخت نصر رؤيا، فجلس ثم نسيها، ثم عاد فرآها، ففزع فقام من نومه، ثم عاد فرقد فرآها، فخرج إلى الحجر فنسيها، فلما أصبح. دعا العلماء والكهان، فقال: أخبروني بشيءٍ رأيت البارحة، وإذا أخبرتموني بما رأيت. فأولوا لي رؤياي، وإلا فليمش كل رجل منكم إلى خشبته، موعدكم ثلاث. فقالوا: هذا خبر قد أظلنا منه بلاء، فكيف بالنجاة منه، فجعل دانييل يقول كلما مر به رجل من رجاله: لو دعاني الملك لأخبرته بما رأى وأولت ذلك. فجعلوا يقولون: ما أحمق هذا الغلام الإسرائيلي! إلى أن مر به كهل فقال ذلك له، فرفعه إلى الملك وقال له: ماذا رأيت؟ قال: رأيت تمثالا. قال: إيه. قال: ورأسه من ذهب. قال: إيه، قال: وعنقه من فضة، قال: إيه: قال وصدره من حديد. قال: إيه. قال وبطنه من صفر. قال: إيه: قال ورجلاه من آنك. قال: إيه. قال: وقدماه من فخار. قال: نعم، هذا الذي رأيت. قال: فجاءت حصاة فوقعت في رأسه ثم في عنقه ثم في صدره ثم

في بطنه ثم في رجليه ثم في قدميه فأهلكته، قال: نعم، فما تأويل هذا؟ قال: أما الذهب فملكك، وأما الفضة فملك ابنك من بعدك ثم ملك ابن ابنك، وأما الفخار فملك النساء. فكساه جبة سبنية وسوره وأجازه وأمر أن يطاف به في القرية، وأخبر أن خاتمة جائز على ما ختم، فلما رأت ذلك فارس، قالوا: ما الأمر إلا أمر هذا الإسرائيلي فكيف نهدمه؟ قالوا: ائتوه من نحو الفتية الثلاثة أصحابه، ولا تذكروا له دانييل فإنه لا يصدقكم عليه، فأتوه، فقالوا: إن هؤلاء الفتية الثلاثة ليسوا على دينك، وهم يكرهون ما تستحسنه، وآية ذلك أنك إذا قربت إليهم لحم الخنزير والخمر لم يأكلوا ولم يشربوا، فأمر بحطب كثير فوضع، ثم أوقدت النار ورماهم فيها، فلما كان من آخر الليل أمر بالنظر إليهم فإذا هم يتحدثون، وإذا معهم رابع يروح عليهم ودانييل يصلي، قال: من هذا يا دانييل؟ قال: هذا جبريل، ظلمت القوم. فأمر بهم فأنزلوا. قال: ومسخ الله عز وجل بخت نصر من الدواب كلها، فجعله من كل صنف من الدواب رأسه من السباع الأسد، ومن الطير النسر، وملك ابنه بعده، وكان دانييل يسدده، وكان معه ثم رماه عنه وأقصاه، ثم أنه رأى كفاً فرجت بين لوحين مكتوب فيها سطران، فدعا الكهان والعلماء، فلم يجد عندهم منه علماً، فقالت أمه: إنك لو دعوت دانييل وأعدت إليه منزلته ومنك ومن أبيك عرفك، فدعاه فقال: إني معيد إليك منزلتك من أبي، فأخبرني ما هذان السطران؟ قال: أما معيد لي منزلي من أبيك فلا حاجة لي بذلك، وأما السطران فإنك تقتل الليلة. فال: فأمر أن يخرج كل من في القصر، فأخرجوا أجمعين، وأمر بقفل أبوابه فغلقت الأبواب، وأدخل معه رجلا وضع بيده سيفاً، وقال له: كل من جاءك من خلق الله الليلة فاقتله، ولو قال: أنا فلان - يعني نفسه - وبعث الله عليه البطن، فجعل يمشي والآخر نائم، فبينما هو كذلك إذ استيقظ ونهض إليه، فقال: أنا فلان. فضربه بالسيف فقتله؟ قال الله تعالى: "وإن عدتم عدنا". قال: فبعث الله عليهم العرب، فلم يزالوا يسومونهم سوء العذاب، ولا يزالون إلى يوم القيامة في ذلة وصغار. قال ابن جريج: فبلغني أن سعيد بن جبير كان يحدث بهذا الحديث، فلما بلغ هذا الموضع أخذه رسول الحجاج بن يوسف. كذلك إذ رأى بخت نصر رؤيا، فجلس ثم نسيها، ثم عاد فرآها، ففزع فقام من نومه، ثم عاد فرقد فرآها، فخرج إلى الحجر فنسيها، فلما أصبح. دعا العلماء والكهان، فقال: أخبروني بشيءٍ رأيت البارحة، وإذا أخبرتموني بما رأيت. فأولوا لي رؤياي، وإلا فليمش كل رجل منكم إلى خشبته، موعدكم ثلاث. فقالوا: هذا خبر قد أظلنا منه بلاء، فكيف بالنجاة منه، فجعل دانييل يقول كلما مر به رجل من رجاله: لو دعاني الملك لأخبرته بما رأى وأولت ذلك. فجعلوا يقولون: ما أحمق هذا الغلام الإسرائيلي! إلى أن مر به كهل فقال ذلك له، فرفعه إلى الملك وقال له: ماذا رأيت؟ قال: رأيت تمثالا. قال: إيه. قال: ورأسه من ذهب. قال: إيه،

قال: وعنقه من فضة، قال: إيه: قال وصدره من حديد. قال: إيه. قال وبطنه من صفر. قال: إيه: قال ورجلاه من آنك. قال: إيه. قال: وقدماه من فخار. قال: نعم، هذا الذي رأيت. قال: فجاءت حصاة فوقعت في رأسه ثم في عنقه ثم في صدره ثم في بطنه ثم في رجليه ثم في قدميه فأهلكته، قال: نعم، فما تأويل هذا؟ قال: أما الذهب فملكك، وأما الفضة فملك ابنك من بعدك ثم ملك ابن ابنك، وأما الفخار فملك النساء. فكساه جبة سبنية وسوره وأجازه وأمر أن يطاف به في القرية، وأخبر أن خاتمة جائز على ما ختم، فلما رأت ذلك فارس، قالوا: ما الأمر إلا أمر هذا الإسرائيلي فكيف نهدمه؟ قالوا: ائتوه من نحو الفتية الثلاثة أصحابه، ولا تذكروا له دانييل فإنه لا يصدقكم عليه، فأتوه، فقالوا: إن هؤلاء الفتية الثلاثة ليسوا على دينك، وهم يكرهون ما تستحسنه، وآية ذلك أنك إذا قربت إليهم لحم الخنزير والخمر لم يأكلوا ولم يشربوا، فأمر بحطب كثير فوضع، ثم أوقدت النار ورماهم فيها، فلما كان من آخر الليل أمر بالنظر إليهم فإذا هم يتحدثون، وإذا معهم رابع يروح عليهم ودانييل يصلي، قال: من هذا يا دانييل؟ قال: هذا جبريل، ظلمت القوم. فأمر بهم فأنزلوا. قال: ومسخ الله عز وجل بخت نصر من الدواب كلها، فجعله من كل صنف من الدواب رأسه من السباع الأسد، ومن الطير النسر، وملك ابنه بعده، وكان دانييل يسدده، وكان معه ثم رماه عنه وأقصاه، ثم أنه رأى كفاً فرجت بين لوحين مكتوب فيها سطران، فدعا الكهان والعلماء، فلم يجد عندهم منه علماً، فقالت أمه: إنك لو دعوت دانييل وأعدت إليه منزلته ومنك ومن أبيك عرفك، فدعاه فقال: إني معيد إليك منزلتك من أبي، فأخبرني ما هذان السطران؟ قال: أما معيد لي منزلي من أبيك فلا حاجة لي بذلك، وأما السطران فإنك تقتل الليلة. فال: فأمر أن يخرج كل من في القصر، فأخرجوا أجمعين، وأمر بقفل أبوابه فغلقت الأبواب، وأدخل معه رجلا وضع بيده سيفاً، وقال له: كل من جاءك من خلق الله الليلة فاقتله، ولو قال: أنا فلان - يعني نفسه - وبعث الله عليه البطن، فجعل يمشي والآخر نائم، فبينما هو كذلك إذ استيقظ ونهض إليه، فقال: أنا فلان. فضربه بالسيف فقتله؟ قال الله تعالى: "وإن عدتم عدنا". قال: فبعث الله عليهم العرب، فلم يزالوا يسومونهم سوء العذاب، ولا يزالون إلى يوم القيامة في ذلة وصغار. قال ابن جريج: فبلغني أن سعيد بن جبير كان يحدث بهذا الحديث، فلما بلغ هذا الموضع أخذه رسول الحجاج بن يوسف.

وروى حماد، عن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس: أن رجلاً من علماء أهل الشام وجد نعت بخت نصر وأنه غلام يتيم، وله والدة، وله ذؤابة في رأسه من أهل بابل، وأنه تقدم فسأل عنه وعن أمه حتى عرفهما بالنعت، فنزل عليهما وكان وهو غلام

يسوق العجاجيل والدجاج، فقال له ذات يوم: إنك ستملك فارس والشام، فاكتب لي أماناً ولقومي. قال: ما أدري ما هذا الذي يذكر، فلم يزل به حتى قال له: اكتب أنت ما شئت، وكتب له ولقومه أماناً، فأراد أن يختمه، فلم يكن لبخت نصر خاتم فأخذ خاتم حديد من نطاق أمه فختمه، ثم أنه دخل الشام، فأتاه الرجل فحيل بينه وبينه، فقال لمقدمته: إن للملك ودخل عليه، فقال: ما تعرفني؟ قال: ما أعرفك. فقص عليه القصة وذكره، ودفع إليه الأمان. فقال: ما أدري ما هذا الذي تذكر، ورثث هذا كابراً عن كابر عن آبائي. فلم يزل به حتى أقر. فوفي له وأمنه، وقال: لا يسمع هذا منك أحد. ولما ظهر على الشام، إذ هو بدم يحيى بن زكريا يغلي، فقال: لأقتلن على هذا الدم حتى يسكن، فقتل عليه سبعين ألفاً، فجاء قاتله فقال: إن هذا الدم لا يسكن أبداً حتى تقتلني فأنا قتلته فقتله وسكن الدم، وظهر على الشام وخرب بيت المقدس وحرق التوراة، وجاء معه دانييل وميخائيل وعزير وحزقاييل ودفعهم إلى صاحب مطبخه، ثم ذكر الرؤيا وزاد فيها فيجىء بنيٌ من العرب فيغلب وينقض تلك الأوثان كلها ويكون الدين كله لله.

وقال ابن الكلبي: كان سنمار الرومي من أصنع الناس للبنيان، فبنى لبعض ملوك العرب بنياناً سر به وأعجبه، وخاف إن استبقى سنمار بني بعده مثل ذلك البنيان، لغيره من الملوك، فأمر به فرمى من فوق القصر فمات، فضربت به العرب الأمثال في سوء الجزاء، حتى قال بعضهم:

جزاني جزاه الله شر جزائه ... جزاء سنمارٍ وما كان عن ذنب
سوى رصه البنيان سبعين حجة ... يعلى عليه بالقراميد والسكب
فلما رأى البنيان تم سحوقه ... وآض كمثل الطود ذي الباذخ الصعب
وظن سنمار به كل حظوةٍ ... وفاز لديه بالمودة والقرب
فقال اقذفوا بالعلج من رأس شاهقٍ ... فذاك لعمر الله من أعظم الخطب

كتب ملك الروم إلى معاوية: إن الملوك لم تزل تراسل بعضهم بعضاً، وتجتهد أن يغرب بعضهم على بعض، أفتأذن في ذلك؟ فأذن له. فوجه إليه رجلين أحدهما طويل والآخر أيد، فقال معاوية لعمرو: أما الطويل فقد أصبنا كفؤاً له وهو قيس بن سعد بن عبادة، وأما الآخر الأيد فقد احتجنا إلى رأيك فيه. فقال: هاهنا رجلان كلاهما إليك بغيض: محمد بن الحنفية، وعبد الله بن الزبير. قال معاوية: الذي هو أقرب إلينا منهما فلما دخل الرجلان وجه إلى قيس ابن سعد فدخل، فلما مثل بين يديه معاوية نزع سراويله فرمى بها إليه فلبسها فبلغت ثندوته، فأطرق مغلوباً. وقيل لقيس في ذلك: لم تبذلت في حضرة معاوية؟ هلا فعلت غير ذلك؟ فقال:

أردت لكيما يعلم الناس ... سراويل قيسٍ والوفود

أنـهـا	شـهـود
وألا يقولوا غاب قـيس وهـذه	سراويل عاديً نمتـه ثـمـود
وإني من القوم اليمـانـين سـيد	وما الناس إلا سـيد ومـسـود
وبّ جميع الناس أصلي ومنصبي	وجسم به أعلو الرجـال مـديد

ثم وجه إلى محمد بن الحنفية، فدخل فخبر بما دعى إليه، فقال: قولوا له: إن شاء فليجلس وليعطني يده حتى أقيمه أو يقعدني، وإن شاء فليكن القائم وأنا القاعد، فاختار الرومي الجلوس، فأقامته، فانصرف الطويل والأيد مغلوبين.

قلت: أما هذا الخبر فمنكر ليس بصحيح، ولا له أصل لأنه يخالف أخلاق قيس ومحمد، وليس فيه كبير فائدة لمنزلتهما.

باب جامع من المذكرات

مما لم يذكر في الأبواب المتقدمات

كان يقال: المتقون سادة، والفقهاء قادة ومجالستهم زيادة - يعني في الخير.

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنه: حلق القفا مما يزيد في الحفظ.

وقال عبد الله بن عباس أيضاً: حلق الرأس لا يصح في العقوبة، لأن الله عز وجل جعل حلق الرأس نسكاً لمرضاته.

قال عمر بن عبد العزيز: إياكم والمثلة في العقوبة: حز الرأس واللحية.

وقال عبد الله بن عباس: إني لأسمع بالحكم من حكام المسلمين يعدل فأفرح به، ولعلي لا أتحاكم أبداً، وإني لأسمع بالغيث يصيب البلدان فأفرح ومالي فيها سائمة، وإني لآتي على الآية فأود أن الناس يعملون بها، ويعلمون منها ما أعلم.

سأل رجل مطرف بن الشخير عن شيء، فقال: يا ابن أخي لا تحمل سعة الإسلام على ضيق صدرك.

كان يقال: لكل شيءٍ آفة، وآفة العلم النسيان، وآفة العبادة الرياء، وآفة الحياء الضعف، وآفة اللب العجب، وآفة الظرف الصلف، وآفة الجود الشرف، وآفة الجمال التيه، وآفة السؤدد الكبر، وآفة الحلم الذل.

كان يقال: العجب ممن يخاف العقاب ولم يكفن ورجا الثواب ولم يعمل.

قال حارثة بن بدر الغداني:

طربت بقانونٍ وما كنت أطـرب	سفاها وقد جربت فيمن يجـرب
وما اليوم إلا مثل أمس الذي	ومثل الغد الجائي وكل

مضى سيذهب

ومن وصايا إبليس، من النوادر أبيات أنس بن إياس يخاطب حارثة بن بدر الغداني هذا:

أحار بن بدرٍ قد وليت ولايةً فكن جرذا فيها تخون وتسرق
ولا تحقرن يا حار شيئاً وجدته فحظك من ملك العراقين سرق
وباه تميماً بالغني إن للغنى لساناً به المرء الهيوبة ينطق
فإن جميع الناس إما مكذب يقول بما يهوى وإما مصدق
يقولون أقوالاً ولا يعرفونها فإن قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

فأجابه حارثة:

جزاك إله الناس خير جزائه فقد قلت معروفاً وأوصيت كافيا
أشرت بشيءٍ لو أشرت بغيره لألفيتني فيه لذلك عاصيا

امتحن يحيى بن أكثم رجلا أراده للقضاء، فقال: ما تقول في رجلين أنكح كل واحدٍ منهما الآخر أمه، فولد لكل واحد منهما ولد، فما قرابة ما بين الولدين؟ فلم يعرف. فسئل عن ذلك، فقال: كل واحدٍ منهما عم الآخر لأمه.

دخل رجل على عبد الملك بن مروان فقال له: إني تزوجت امرأة وزوجت ابني أمها، ولا غناء بنا عن رفدك، فقال له عبد الملك: إن أخبرتني ما قرابة أولادكما إذا ولدتما، فعلت؟ فقال: يا أمير المؤمنين! هذا حميد بن بحدل، قد قلدته سيفك ووليته ما وراء بابك، سله عنهما، فإن أصاب لزمني الحرمان، وإن أخطأ اتسع لي العذر. فدعا به فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين! إنك ما قدمتني على العلم بالأنساب، ولكن على الطعن بالرماح. أحدهما عم الآخر والآخر خاله.

لو تزوج رجل امرأة، وزوج ابنه ابنتها، ثم ولد لهما، كان أحد المولودين عم الآخر، والآخر ابن أخيه.

كان يقال: ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم؛ الذاهب إلى مائدة لم يدع إليها، وطالب الفضل من اللئام، والداخل بين اثنين في حديثهما من غير أن يدخلاه فيه، والمستخف بالسلطان، والجالس مجلساً ليس له بأهل، والمقبل بحديثه على من لا يسمع منه ولا يصغي إليه.

ذكر الخشني عن أبي حاتم عن الأصمعي، قال: تذاكر نفر من الجن عيافة بني أسد، فقالوا: لو نظرنا إلى بعض ذلك فأتوهم، وقالوا: إنا ضلت لنا ناقة، فلو أرسلتم معنا بعض من يقفو لنا أثرها، فقالوا لغليم منهم: انطلق معهم،

فاستردفه أحدهم ثم ساروا، فلقيهم عقاب كاسر إحدى جناحيها، فاقشعر الغلام فبكى، فقالوا: ما بالك؟ فقال: كسرت جناحاً ورفعت جناحاً، حلفت بالله صراحاً ما أنت بإنسي ولا تبغي لقاحاً.

قال الخشني: الجناح يؤنث ويذكر.

نذرت امرأة أن تكسو ثوباً غزلته فأتقنته أفضل رجل بالبصرة، فقيل لها: الحسن، فأتت به الحسن فأرسل بها إلى أبي قلابة، فردها أبو قلابة، وقال: إن الناس أصابوا فيك وأخطأت في.

قال أبو عبيد: العارضة كناية عن الندى، فإذا قيل: فلان شديد العارضة فذاك كناية عن سفه الكف بالعطاء. وإذا قيل: فلان يقتصد، فذلك كناية عن البخل. وإذا قيل العامل مستقص، فذلك كناية عن الجور. وأما قولهم في المثل: هذا أجل من الحرش، فإن الأصمعي ذكر في تفسيره ذلك، أن الضب قال لابنه: إذا سمعت صوت الحرش فلا تخرجن، قال: وذلك أنهم يزعمون: أن الحرش تحريك اليد عند حجر الضب ليخرج إذا ظن أنها حية. قال: وسمع ابنه يوماً صوت الحفر، فقال: يا أبت! هذا الحرش؟ فقال: يا بني! هذا أجل من الحرش، فأرسلهما مثلا وأنشد:

وأفطن من ضب إذا خاف حارشاً ... أعد له عند الناس عقربا

وفي المثل: تعلمني بالضب وأنا حرشته.

لأبي البلاد الطهوي، وكان من شياطين العرب:

لهان على جهينة ما ألاقى ... من الروعات يوم رحى بطان

لقيت الغول تسري في ظلامٍ ... بسهبٍ كالعباية صحصحان

فقلت لها: كلانا نقض أرضٍ ... أخو سفرٍ فصدي عن مكاني

فصدت وانتحيت لها بعضبٍ ... حسامٍ غير مؤتشبٍ يماني

فقد سراتها والبرك منها ... فخرت لليدين وللجران

فقالت: زد، فقلت: رويد إني ... على أمثالها ثبت الجنان

شددت عقالها وحططت عنها ... لأنظر غدوةً ماذا دهاني

إذا عينان في وجهٍ قبيحٍ ... كوجه الهر، مشقوق اللسان

ورجلا مخدجٍ ولسان كلبٍ ... وجلدٍ من فراءٍ أو شنان

أما قوله: فقالت: زد. فإنهم يزعمون - فيما ذكر عمرو بن بحر الجاحظ -: إن الغول يستزيد بعد الضربة الأولى، لأنها تموت من ضربة وتعيش من ضربتين إلى ألف، يقول: إذا ضربت ضربة ماتت، إلا أن يعيد عليها الضارب قبل أن تقضي ضربة أخرى، فإنه إن فعل ذلك لم تمت، ولذلك قال شاعرهم:

فثنيت والمقدار يحرس أهله فليت يميني قبل ذلك شلت

وهذا عندي من أكاذيب الأعراب، وحماقات عمرو بن بحر ومجونه.

ومن ذلك قول مدرج الريح، وهو عامر المجنون، وإنما قيل له مدرج الريح بشعر قاله في امرأة من الجن، زعم أنه كان يهواها وتتراءى له، فمن شعره يقول:

لابنة الجني في الجو طلـل دارس الآيات عافٍ كالخلل

درسته الريح من بين صبـا وجنوبٍ درجت حيناً وطل

وكان مدرج الريح محمقاً، وأما قول عبيد بن أيوب العنبري:

فلله در الغـول أي رفـيقةٍ لصاحب قفرٍ خائفٍ يتقفـر

أرنت بلحنٍ بعد لحنٍ وأوقدت حوالي نيراناً تبوخ وتزهر

فإن العرب تذكر أن الغيلان توقد النيران بالليل للعب والتخييل وإضلال أبناء السبيل.

قلت: والدليل على أن الشياطين تضل الناس في الطريق، وتحيدهم عن سبيلهم، قوله الله تعالى: "كالذي استهوتهُ الشياطينُ في الأرض حيرانَ" ومن الدليل على صحة الغيلان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنشده كعب بن زهير قصيدته اللامية التي يقول فيها:

كانت مواعيد عرقوبٍ لها مثلاً وما مواعيده إلا الأبـاطـيل

فما تدوم على حالٍ تكون بهـا كما تلون في أثوابها الغـول

فلم ينكره.

قال أبو عمر: وكان عبيد بن أيوب هذا جوالا في مجهول الأرض، فلما اشتد خوفه وطال تردده، أمعن في الهرب، فقال:

لقد خفت حتى لو تمر حـمـامة لقلت عدو أو طليعة معـشـر

فإن قيل: أمن قلت: هذي خديعة وإن قيل: خوف قلت حق فشمر

وخفت خليلي ذا الصفاء ورابني وقيل فلان أو فلانة فـاحـذر

فلـلـه در الـغـول أي رفـيقةٍ لصاحب قفرٍ خائفٍ متـنـفـر

في أبيات كثيرة، وأما قول أمية بن أبي الصلت:

والحية الذكر الرقشاء أخرجهـا من جحرها أمنات الله والقسـم

إذا دعا باسمها الإنسان أو سمعت ذات الإله أتت في مشيهـا رزم

من خلفها حمة لولا الذي سمعت قد كان بيتها في جحرها الحمـم

ناب حـديد وكـف غـير وادعةٍ والخلق مختلف واللون والشـيم

إذا دعين بأسماءٍ أجـبـن لـهـا لنافثٍ يفتديه الـلـه والـكـلـم

لولا مخافة لابًّ كان عـذبـهـا ... عرجاء تظلع في أنيابها عـسـم

وقد بلته فذاقت بعض مصـدقـه ... فليس في سمعها من رهبةٍ صمم

فكيف يأمنها أم كـيف تـألـفـه ... وليس بينهما قربـى ولا رحـم

فإنه يقول: إنها خرجت لاستحلافه إياها، لا لرحمٍ بينها ولا نسب، وقد أوضحنا في كتاب "التمهيد" أن من الحيات صنفان من الجن، وأن منهم من أسلم، فغير نكير أن يخضع لذكر الله وأسمائه.

ومن عجائب الدنيا، صنم قادس في غرب الأندلس على البحر من كورة شذونة، وقد ذكره الأوائل، ونقل أهل الأخبار خبره، ومن أحسن ما قيل في وصفه من النظم ما أنشده غير واحد لأبي عثمان الشذوني العروضي، يخاطب بعض قواد شذونة، إذ أدخله إليه فرآه على قرب في تلك الجزيرة، فقال:

يا سيدا أبصرت عيني به عجـبـاً ... فما أبالي يقول الناس عن رهبـي

لله ما أبصرته فـي شـذونة مـن ... عجائب كنت في إبصارها سبـبـا

آثار مملكةٍ دلت عـلـى مـلـكٍ ... أذل بالملك أعناق الورى حقـبـا

وأسودٍ واقفٍ في رأس صـومـعةٍ ... كأنه فوقها بالروح قد صـلـبـا

مقدماً رجله اليمنى لـيرفـعـهـا ... كأنه يشتكي من طول ما تـعـبـا

يمد يمناه بالمفتـاح تـحـسـبـه ... مناولا غيره عجلان مـكـتـئبـا

وصكه في اليد اليسرى قد انقبضت ... كأنه ساتر عنـا لـمـا كـتـبـا

يومي إلى البحر نحو الغرب وجهته ... مستقبلاً لغروب الشمس منتصبـا

لابد والله من قفـلٍ سـيفـتـحـه ... مفتاحه بعد الميقـات أو قـربـا

وسائلٍ لي عما ضـل جـوهـره ... والذهن في فك معناه قد انتشـبـا

أجبته إن في أخـبـاره ... فلا تسل عنه صفراً كان أو

عـجـبـاً ذهبـا

قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه: ما خلق الله خلقاً أشر من الخزر، ما بعث منهم نبي ولا صديق.
قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه لابنه الحسن: يا بني! كم بين الإيمان واليقين؟ قال: أربع أصابع. قال: وكيف؟ قال: الإيمان ما سمعناه بآذاننا وصدقناه بقلوبنا، واليقين ما رأيناه بأعيننا فتيقنا، وبين السمع والبصر أربع أصابع. قال: أشهد أنك ابن رسول الله.
قال الحكماء: شيئان أعيت الحكماء الحيلة فيهما، إذا أقبل الأمر أعيت الحيلة فيه أن يدبر، وإذا أدبر أعيت الحيلة فيه أن يقبل.
قال خالد بن صفوان: احترس من العين فو الله لهي أنم من اللسان.
كان يقال: من أحبك نهاك، ومن أبغضك أغراك.
كان يقال: مثلت الدنيا بطائر، فالبصرة ومصر جناحان، والشام والعراق والجزيرة وما والاها الجوف، واليمن الذنب.
تقول العرب: مضر رحاها خندف، وهامتها تميم، وفرسانها قيس، وأئمتها كنانة، ولسانها أسد.
قال الخشني: لا تكرم ولا تعظم إلا من يرجى خيره، أو يخاف شره، أو يقتبس من علمه، أو من بركة دعائه.
خطب أرسطو طاليس يوماً فأطال، وعنده شاب مطرق، فقال له: مالك لا تتكلم؟ قال: إن الله خلق الإنسان أذنين اثنين ولساناً واحداً ليسمع أكثر مما يقول.
من أمثال العرب: من يجمع بين الأروى والنعام! لأن الأروى لا تسهل، وإنما تسكن الجبال، والنعام يسكن السهل، ولا ترقى الجبال.
ومن قولهم: بيضة البلد؛ فمدح وذم، فمن المدح قول علي رضى الله عنه: أنا بيضة الإسلام، ومن المدح قول حسان:

وابن الفريعة أمسى بيضة البلد

يعني نفسه. وأما الذم فقول الراعي في عدي بن الرقاع:

لو كنت من أحدٍ يهجي هجوتكـم ... يا ابن الرقاع ولكن لست من أحد
تأبى قضاعة أن تدري لكم نسبـاً ... وابنا نزارٍ فأنتم بيضة الـبـلـد

ابنا نزار: ربيعة ومضر.
قال قبيصة بن جابر الأسدي، يوم صفين:

قد حافظت في حربها بنو أسد ... ما مثلها تحت العجاج من أحد

لسنا بأوباشٍ ولا بيض البلد قيل للأموية: أي شيءٍ أحسن؟ قالت: القصور والبيض في الحدائق الخضر.
قال أبو لبيد الرياحي: سألت شيخاً لنا: أي شيء أحسن؟ قال: بيضة في روضة.
تقول العرب: لا شيء أظل من حجر، ولا أفيأ من شجر.
قال الشاعر:

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى ... فأبعدكن الله من شـجـرات

وقال آخر:

فلا تجزعن عـلـى أيكةٍ ... أبت أن تظلك أغصانها

وقال آخر، هو الحسن بن هانئ:

لا أذود الطير عن شجرٍ ... قد بلوت المر من ثمره

كلم الحجاج امرأة من الخوارج، وهي معرضة عنه، فقيل لها: يكلمك الأمير وأنت معرضة عنه؟ فقالت: إني لأستحي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه.
قال رجل من بني كلاب من الخوارج، يخاطب معاوية بن أبي سفيان رحمه الله:

قد سرت سير كليب في عشيرته	لو كان فيهم غلام مثل جساس
الطاعن الطعنة النجلاء عاندها	كطرة البرد أعيا فتقها الآسـى

قال عمر بن الخطاب: ما أبالي على أي حال أصبحت؟ أعلى ما أحب أم على ما أكره، لأني لا أدري فيم الخيرة، أفيما أحب أم فيما أكره. وما أبالي إذا استخرت الله في الأمر أكان أو لم يكن.
وأما قول الشاعر:

طلب الأبلق العقوق فلما	لم ينله أراد بيض الأنوق

فالأبلق لا يكون عقوقاً أبداً، يقال: أعقت الدابة إذا عظم بطنها للحمل، والذكر لا يكون عقوقاً، والأنوق الرخم لا يكاد يرى بيضة ولا يوجد لأنه في صدوع الصخر من الجبال الشامخة، ولا منفعة فيه، ولا يصاب إلا بمشقة ونيل مكروه.
وأما الزجر بالغراب عندهم فلاشتقاق اسمه من الغربة والاغتراب، ومنه أخذ الغريب. وقيل له: حاتم بن بحير لهذا، ويشتقون من الصرد: التصريد والصرد، والصرد هو البرد، قال الشاعر:

دعا صرد يوماً على غصن شوحطٍ	وصاح بذات البين فيها غرابهـا
فقلت: أتصريد وشحـط وغـربة	فهذا لعمري نأيها واغتـرابـهـا

وقال آخر:

تغني الطائران ببين سلـمـى	على غصنين من غرب وبان
فكان البين أن بانت سليمـى	وبالغرب اغتراب غـير دان

وقال سلامة بن جندل:

ومن تعرض للغربان يزجرها	على سلامته لابد مـشـئوم

وقال آخر:

ولست أبالي حين أغدو مسافراً	أصاح غراب أم تعرض ثعلب

وقد أوضحنا هذا المعنى بالآثار المرفوعة، والأخبار والأشعار في كتاب "التمهيد"، والحمد الله تعالى.
باب من منثور الحكم والأمثال
منتقى من نتائج عقول الرجال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة".
خير المقال ما صدقه الفعال.

رأس الدين صحة اليقين.
كفر النعمة لؤم، وصحبة الجاهل شؤم.
من الفساد إضاعة الزاد.
امحض أخاك النصيحة، وإن كانت عنده قبيحة.
التجارب ليس لها غاية، والعاقل يستزيد منها إلى غير نهاية.
من بذل لك مودته، أجزل لك عطيته.
الأحمق لا يبالي ما قال، والعاقل يتعاهد المقال.
من غلب عليه العجب، ترك مشورة الرجال.
جانب مودة الحسود، وإن زعم أنه ودود.
إذا جهل عليك الأحمق، فالبس له سلاح الرفق.
من طلب إلى لئيمٍ حاجةً، فهو كمن طلب صيد السمك في المفاوز.
مؤمل النفعٍ من اللئام، كزارع السمسم في الحمام.
إذا صادقت الوزير، لم تخف الأمير.
لا تثق بالأمير إذا خانك الوزير.
من كان السلطان يطلبه، ضاق عليه بلده.
الزائر لمن يستثقله مذل لنفسه.
صديقي درهمي، إذا سرحته فرج همي وقضى حاجتي.
من جالس عدوه فليحترس من منطقه.
من عرف بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه.
من عرف من نفسه الكذب، لم يصدق الصادق.
كثرة الذنوب مفسدة للقلوب.
من بذل لك نصحه، فاحتمل غضبه.
من بذل لك ماله، فاصبر على ما يأتي منه.
لن يذهب من مالك ما وعظك.
من قل خيره على أهله، فلا ترج خيره.
قتل أرضا عالمها، وقتلت أرض جاهلها.
الإكثار من الملامة يولد القطيعة.
صاحب الزلل موكل به الندم.
الشجاعة لمن كانت له الدولة.
لا ترسل الكسلان في حاجتك فيتكاهن عليك.
عناء في غير منفعة خسارة حاضرة.
من ألح في المسألة على غير الله، استحق الحرمان.
صحبة الفاسق شين، وصحبة الفاضل زين.
من أكثر الكلام على المائدة غش بطنه، واستثقله إخوانه.
الكريم يواسي إخوانه في دولته.
من حفظ سره ركب أمره.

من جرى في ميدان أمله، عثر في عنان أجله.
من أحبك نهاك، ومن أبغضك أغراك.
من لم تقدر على مكافأته، فانصح له.
من لم يصبر على البلاء، لم يرض بالقضاء.
من استهوته الخمر والنساء، أسرع إليه البلاء.
إذا احترق الفؤاد، ذهب الرقاد.
من تسلط على الناس بغير سلطان، لم يسلم ممن الهوان.
الغريب الناصح خير من القريب الغاش.
من نسى إخوانه في الولاية، أسلموه في العزل والشدة.
من لم ينلك البر في حياته، لم تبك عيناك على وفاته.
من لم يقنع برزقه، عذب نفسه.
من اجترأ على السلطان، تعرض للهوان.
إذا لم يواتك البازي في صيده، فاتنف ريشه.
الهم ظلمة جلاؤها الفرج.
فقد الصبر، أعظم مصائب الدهر.
ساعات السرور جالبة للمحذور.
فكر في المعاد، تنس أمور العباد.
الصعود إلى السماء، أيسر من صرف القضاء.
من مدحك بما لا يعلم منك جهراً، ذمك بما لا يعلم منك سرا.
أمسك لسانك يسلم جنانك.
الحجة تدعو إلى المذهب الصحيح، والشبهة تدعو إلى المذهب الفاسد.
إن قدرت ألا تسمع أذنك سرك فافعل؛ فإن الدهر إذا عرف لذة كذرها.
لقاء الأحبة مسلاة للهموم.
حسن التدبير مع الكفاف، خير من التبذير مع الإيسار.
أشد الأشياء تأييداً للعقل مشاورة العلماء، والأناة في الأمور، والاعتبار بالتجارب. وأشدها إضراراً بالعقل الاستبداد والتهاون والعجلة.
أصعب من السلو التذلل للعدو قليل مهنً، خير من كثير مكدر.
كلب شاكر، خير من صاحبٍ غادر.
روضة العلم أزين من روضة الرياحين.
الكتاب مفيد علم من سلف، باقٍ لمن خلف.
القلم لسان الغائب.
رب خيرٍ جديد ألذ من مالٍ عتيد.
السلام وحسن البشر، ربما زرعا المودة في القلوب.
الحسود مغتاظ على من لا ذنب له عنده.
المرأة العفيفة الجميلة المواتية جنة الدنيا.
موت الولد العاق والزوجة المهارشة نعمة سابغة.

في الوجوه تظهر المودات.
القلوب تجازي، وبضميرك تستدل.
من الآفات كثرة الالتفات.
ومن كلام أكثر بن صيفي: مع كل حبرة عبرة، مع كل فرحة ترحة.
لا جماعة لمن اختلف عليه.
الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والإفراط في الأنس مكسبة لقرناء السوء.
رب عجلة تعقب ريثاً.
العجز والتواني سبب الفاقة.
من مأمنه يؤتى الحذر.
اسع بجدً أو فذر.
جدك لا كدك.
ستساق إلى ما أنت لاق.
من جهل شيئاً عاداه، ومن أحب شيئاً استعبده.
ويل عالم من امرىءٍ جاهل.
إن قدرت أن ترى عدوك أنك صديقه فافعل.
كم بين روعة الفراق، وفرح التلاق.
من أشد العذاب فرقه الأحباب.
احذر من وترته وإن أحسنت إليه.
سوقي نفيس، خير من قرشي خسيس.
العقل كالزجاج إن يصدع لم يرقع.
موت مريح خير من فقرٍ صريح.
خير القريض والكلام ما إذا فرغ منشده وقائله، أحب إعادته سامعه.
إذا لم تقبل الحجة منك فالسكوت أولى بك.
من وعظه اليسير استغنى عن الكثير.
إذا جاء القدر عمى البصر.
إذا جاء الحين غطى العين.
إن غلبت على القول لم تغلب على السكوت.
في الإنصاف للعلماء زيادة، وفي الإنصاف للجهال سلامة.
من نظر أبصر، ومن فكر اعتبر.
العيال سوس المال.
حسبك من المال ما نفعك، ومن الدين ما ورعك.
لا ينطق لسانك إلا على ما يتسع به بنانك.
من حكم فليعدل، ومن قضى فليفصل.
إذا صدق العيان لم يحتج إلى برهان.
إذا خان البرهان فزعت إلى العيان.

شفاء الصدور في التسليم للمقدور.
شدة الحاجة ربما بعثت الحيلة.
ويح ابن آدم كيف ينهي ولا يرعوي، أم كيف يأمر ولا ينتهي.
الكذب عار وربما نفع.
الحلف لؤم، وربما افتقر إليه.
العذر قبيح، وربما حسن.
البخل مذموم وربما حمد.
لا شيء تراه العين، أحلى من اجتماع إلفين.
حفظك ما في يدك خير من طلبكِ ما في يد غيرك.
من التواني ما يكون سبباً للحرمان.
من حلم ساد، ومن تعلم ازداد.
العجب من ورثة الموتى، كيف لا يزهدون في الدنيا?!.
من أيقن بالأجر، رغب في الصبر.
الإفراط في العتاب، يدعو إلى الاجتناب.
من نم عندك، نم بك.
من سعى إليك سعى عليك.
رب أخ لك لم تجمعك به ولادة.
لا يرتفع الرجل فوق قدره إلا لذلً يجده في نفسه.
مدح الغائب تعريض بالحاضر.
أخر الشر إذا شئت تعجيله.
ما أحق من غدر بألا يوفى له.
الحق أبلج، والباطل لجلج.
الخط صورة فأحسنها أبينها.
ذم الإنسان لنفسه في الملاء، مدح منه لها في الخلاء.
بطن جائع خير من ظلم شائع.
الثقيل عذاب وبيل.
رب بزة ظاهرة، تحتها خلة باطنة.
علم الرجل، ابنه الباقي بعده.
من عالته امرأة، لم يفقد ذلا.
شهود الزور كلاب القبور.
العيان رائد الاستحسان.
الاشتياق يذهب بالعناق.
ليس بالتحفظ في الأمور يسلم من المقدور.
من تردى بثوب السخاء غاب عن الناس عيبه.
من يفرغ للشر يطلبه، أتيح له من يغلبه.
من أمل أحداً هابه، ومن لم يدرك الشيء عابه.

لا يضر السحاب نباح الكلاب.

قال حسان:

ما أبالي أنب بالحزن تيسٌ أم لحاني بظهر غيب لئيمُ

وقال الأخطل:

ما ضر تغلب وائلٍ أهجوتها أم بلت حيث تناطح البحران

وقال آخر:

ما يضر البحر أمسى زاخراً أن رمى فيه غلام بحجـر

وقال جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربـع

وقال آخر:

تهددني لتقتلـنـي نـمـير متى قتلت نمير من هجاها

باب من نوادر الفلاسفة مختصرة

قيل لأرسطو طاليس: ما الفلسفة؟ قال: فقر وصبر، وعفاف وكفاف، وهمة وفكرة.

قيل لسقراط: بم فضلت أهل زمانك؟ قال: لأن غرضي في الأكل الحياة، وغرضهم في الحياة أن يأكلوا.

قيل لسقراط: ما أتعب فلاناً بخضاب لحيته؟ فقال: لخوف المطالبة بالحكمة، ولا تطلب إلا من المشايخ.

قال بقراط: أعظم آفة الحيوان الصامت من صممته، وأعظم آفة الحيوان الناطق من نطقه.

قيل لجالينوس: بم فقت أصحابك في علم الطب؟ فقال: لأني أنفقت في زيت السراج لدرس الكتب مثل ما أنفقوا في شرب الخمر.

كتب فيلسوف إلى طبيب: صناعتي أقرب الصناعات من صناعتك؛ لأنك تصلح الأبدان وأنا أصلح النفوس.

قيل لفيلسوف: أين بلغت بك الحكمة؟ قال: إلى الوقوف على القصور عنها.

قال أنوشروان لبزر جمهر: من أدبك؟ قال: قريحتي، نظرت إلى ما استحسنت من غيري فاستعملته، وما استقبحته اجتنبته، ولقد تفقدت من كل شيءٍ محاسنه، فأخذت من الخنزير قناعته، ومن الكلب محافظته، ومن القرد مساعدته، ومن الحمار صبره، ومن الغراب بكوره، ومن السنور لطافة المسألة عند الخوان.

قيل لرجل من الحكماء: لمن أنت أرحم؟ قال: لعالمٍ جار عليه حكم جاهل.

وقيل له: متى يكون البليغ عييا، والعيُّ بليغاً؟ فقال: إذا وصف حبيباً، وإذا احتج البليغ على محبوب.

قيل للإسكندر: رأيناك تعظم معلمك، أكثر من تعظيمك لأبيك؟ فقال: لأن أبي سبب موتى، ومعلمي سبب حياتي.

نظر حكيم إلى قوم يرمون ولا يصيبون ويسبون الرمى، فجلس في الهدف إلى الغرض، فقيل له: جلست هناك! قال: لأني لم أر موضعا أوقى من هذا.

قيل لبعض الحكماء: متى أثرت فيك الحكمة؟ قال: مذ بدا لي عيب نفسي.

رأى أفلاطون رجلاً معجباً بنفسه، فقال: وددت أن أعدائي مثلك في الحقيقة، وأنا مثلك في ظنك.

كان رجل مصوراً فترك التصوير وتتطبب، فقيل له في ذلك، فقال: الخطأ في التصوير تدركه العيون، وخطأ الطبيب تواريه القبور.

سعى إلى الإسكندر بعض رجاله برجل من أصحابه فقال له: أتحب أن أقبل قولك فيه، على أن أقبل قوله فيك؟ قال: لا. قال: فكف إذاً عن الشر ليكف الشر عنك.

قال الإسكندر لجلسائه: ينبغي للرجل أن يستحي من أن يأتي قبيحاً في منزله من أهله؛ وفي غير منزله ممن يلقاه.

أتى الإسكندر يوماً جاسوس يخبره عن عسكر دارا الفارسي، وأخبره أن فيه خلقاً كثيراً، فقال له: إن الذئب وإن كان واحداً لا تهو له كثرة الغنم.

كان في أصحاب الإسكندر رجل يسمى الإسكندر لا يزال ينهزم في الحرب، فقال له: إما غيرت اسمك، وإما غيرت فعلك.
قيل للإسكندر: قد بسط الله لك في الملك، فأكثر من النساء ليكثر ولدك ونسلك، فقال لا يصح لمن غلب الرجال أن تغلب عليه النساء.
سأل الإسكندر رجلان من خاصته أن يحكم بينهما، فقال: الحكم يرضي أحدكما ويسخط الآخر، فاستعملا الحق ليرضيكما جميعاً.
وقال له أصحابه: قد بسط الله ملكك وعظم سلطانك، فبأي الأشياء أنت أسر: بما نلت من أعدائك، أم بما بلغت من سلطانك؟ قال: كلاهما يسير، وأعظم ما أسر به ما سننت في الرعية من السنن الجميلة والشرائع الحسنة.
قال الإسكندر: ينبغي للرجل إذا صافى مصافياً أن يتوقى مباشرته، ولا يسترسل إليه فيما يشينه.
قال بعض الحكماء لتلاميذه: استعملوا الكذب عند الضرورة كما تستعملون الدواء.
ولما مات الإسكندر قال نادبه: حركنا الإسكندر بسكونه.
أخذه أبو العتاهية فقال:

يا علي بن ثـابـتٍ بـان مـنـي	صاحب جل فقـده يوم بـنـتـا
قد لعمري حكيت لي غصص المو	ت وحركتني لهـا وسـكـنـتـا

قال الموبذ بوم مات قباذ: كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس.
أخذ أبو العتاهية هذا المعني، فقال:

وكانت في حياتك لي عظات	وأنت اليوم أوعظ منك حيا

يقال: إن الإسكندر مات وكان عمره ستاً وثلاثين سنة، هذا قول الفرس ومنهم من يقول: كان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، وفي قول الفرس: إنه ملك أربع عشرة سنة. وأن قتله لدارا كان في السنة الثالثة من ملكه، وزعم الروم أن ملكه كان ثلاثاً وعشرين سنة وأنه مات وعمره ثلاث وأربعون سنة وهم أعلم به، وزعموا أنه مات بشهرزور، وأنه حمل إلى الإسكندرية ودفن بها، وأقامت عليه النوائح شهوراً. وقيل: بل مات بالإسكندرية.
قال بعض الحكماء: لا تغترن بحسن الكلام وطيبه إذا كان الغرض المقصود منه ضاراً؛ فإن الذين يخدعون الناس إنما يخلطون السم بالحلو من الأطعمة والأشربة، ولا يصعبن عليك الكلام الغليظ، إذا كان الغرض المقصود إليه نافعاً؛ فإن أكثر الأدوية الجالبة للصحة مرة مستبشعة.
قيل لبعض الحكماء: أي شيءٍ أنفع الأشياء؟ قال: الاعتدال. قيل: وما الاعتدال؟ قال: هو الشيء الذي الزيادة فيه والنقص منه ضرر.
يروى أن المسيح عليه السلام قال: أمر لا تعلم متى يغشاك، ينبغي أن تستعد له قبل أن يفجأك.

باب الرياء

جاء رجل إلى البني صلى الله عليه وسلم، فقال: إني أحب الجهاد في سبيل الله، وأحب أن يرى مكاني وموضعي، وإني أتصدق وأعمل العمل وأحب أن يراه الناس. فأنزل الله عز وجل: "فمنْ كان يرجو لقاءَ ربهِ فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادةِ ربهِ أحداً".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من راءى بعمله، راءى الله به، ومن سمع بعمله سمع الله به بين خلقه وحقره وصغره".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله عز وجل: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل

لي عملاً أشرك فيه غيري فهو إلى غيري، ليس لي منه شيء، وأنا منه برئ".
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة، يوم يجازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون فيهم خيراً".
وروى في الحديث المرفوع: " الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل".
روى الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير، قال: إن الملك ليصعد بعمل العبد مستفتحاً به، حتى إذا انتهى إلى ربه قال: اجعلوه في سجين، إني لم أرد بهذا. قال الأوزاعي: فما ظنك بما قد خفي عن الملك.
وروى عن النبي عليه السلام أنه قال: "أخوف ما أخاف عليكم الرياء، والشهوة الخفية، حبك أن تحمد بما لم تفعل" وقيل: بما عملت من الخير. والأول أجود. لأنه قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل: يا رسول الله! أني أعمل العمل أريد به وجه الله، ثم يبلغني أن الناس يتحدثون به فيسرني. قال: "ذلك عاجل بشري المؤمن".

قال الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل … خلوت ولكن قل على رقـيب
ولا تحسبن الله يغـفـل سـاعة … ولا أن ما تخفيه عنـه يغـيب
لهونا عن الأعمال حتى تتـابـع … علينا ذنوب بعـدهـن ذنـوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضـى … ويأذن لي في تـوبةٍ فـأتـوب

وقال آخر:

كم من مصل لا يطـي … ل صلاته لسوى الطمع
متـلـهـيا إمـا خـلا … وإذا بصرت به ركـع
يدعـو وجـل دعـائه: … ما للفريسة لا تـقـع

وقال الغزال:

ومراء أخـذ الـنـا … س بسمتٍ وقطـوب
وخشوع يشبه السـقـ … م وضعف في الدبيب
قلت: هل تألـم شـيئاً … قال أثقال الـذنـوب
قلت: لا تعن بشـيءٍ … أنت في قالـب ذيب
إنما تنبي عن الـوث … بة في حال الوثـوب
ليس من يخفى علـيه … منك هذا بـلـبـيب

قال محمود الوراق:

أيها المغرور مـهـلا … فلقد أوتـيت جـهـلا
كم إلى كم تحسن القـو … ل ولا تحسن فـعـلا
ظاهر يجعل والباطن لا … يخفى على ربك كـلا

وقال محمود الوراق:

تصنع كي يقال لـه أمـين … وما يغني التصنع للأمـانة
ولم يرد الإله بـه ولـكـن … أراد به الطريق إلى الخيانة

باب في الشيب ومدحه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من شاب شيبةً في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة".
قال جعفر الخواص: رأيت يحيى بن أكثم في النوم، فقلت ما فعل الله بك؟ قال: أوقفني بين يديه فسألني وناقشني، وقال: يا شيخ السوء! لولا شيبتك لأدخلتك النار - رددها ثلاثاً - فقلت: يا رب! ما هكذا حدثني عبد الرزاق عن معمر، عن الزهري عن أنس، عن نبيك، عن جبريل، عنك. قال: وما هو؟ قلت: "حدث أنه من شاب شيبةً في الإسلام لم تحرقه بالنار"، فقال الله عز وجل: "صدق عبد الرزاق، وصدق معمر، وصدق الزهري، وصدق أنس، وصدق نبي، وصدق جبريل؟ انطلقوا به إلى الجنة".
وقال أبو موسى الزمن: رأيت أبا الوليد الطيالسي في النوم فقلت: يا أبا الوليد، أليس قدمت؟ قال: بلى. قلت: فما فعل الله بك. قال: غفر لي ورحمني وطيبني بيده، وقال: هكذا أفعل بأبناء الخمسين والسبعين.
وممن مدح الشيب من الشعراء الفرزدق، حيث يقول:

تفاريق شيب في السواد لوامع	وما خير ليلٍ ليس فيه نجـوم

وقال أبو هفان:

تعجبت هند من شيبي فقلـت لـها	لا تعجبي فبياض الصبح في السدف
وزادها عجباً أن رحت في سـمـلٍ	وما درت هند أن الدر في الصدف

وقال دعبل:

أهلاً وسهلاً بالمشيب فـإنـه	سمة العفيف وحلية المتحرج
وكأن شيبي نظم درً زاهـرٍ	في تاج ذي ملكٍ أغر متوج

وقال أيضاً:

أحب الشيب لما قيل ضيف	لحبي للضيوف النازلينـا

لمحمد بن عبد الملك الزيات:

وعائبٍ عابني بشـيبـي	لم يعد لما ألم وقـتـه
فقلت غذ عابني بشيبـي	يا عائب الشيب لا بلغته

وقال آخر:

لا يرعك المشيب يا بنة عبد الله	فالـشـيب جـلة ووقــار
إنما تحسن الـرياض إذا مـا	ضحكت في خلالها الأنـوار

ولأبي الفتح البستي:

ما استقامت قناة رأيي إلا	بعدما عوج المشيب قناتي

ولدعبل بن علي:

تعجبت أن رأت شيبي فقلت لها: لا تعجبي من يطل عمر به يشب
شيب الرجال لهم زين وتكـرمة وشيبكن لكن الويل فاكـتـئبـي
فينا لكـن وإن شـيب بـدا أرب وليس فيكن بعد الشيب من أرب

وقال أبو الحسن علي بن محمد السهواجي، وسهواج بلدة من أعمال مصر:

ومما زاد في طول اكـتـئابـي طلائع شيبتـين ألـمـتـابـي
فأما شيبة ففـزعـت مـنـهـا إلى المقراض من حب التصابي
وأما أختها فكفـفـت عـنـهـا لتشهد بالبراء من الخـضـاب
فيا عجباً لذلـك مـن مـشـيبٍ أقمت به الدليل على الشـبـاب

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين، وأقلهم من تجاوز ذلك". قال أبو هريرة: وأنا من أقلهم، وقاله أبو سلمة ومحمد بن عمرو.

ومن حديث جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "من تعظيم خلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم".

رأى إياس بن قتادة شعرةً بيضاء في لحيته، فقال: أرى الموت يطلبني، وأراني لا أفوته، أعوذ بك يا رب من فجأة الموت. يا بني سعد! قد وهبت لكم شبابي فهبوا لي شيبي.

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "خير شبابكم من تشبه بكهولكم، وشر كهولكم من تشبه بشبابكم". من حديث أنس.

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إن الله عز وجل ليكرم أبناء السبعين ويستحي من أبناء الثمانين أن يعذبهم".

باب في خضاب الشيب ونتفه

قال محمود الوراق:

إذا ما الشيب جار على الشباب فعاجله وغالط في الحسـاب
وقل لا مرحباً بك من نـزيلٍ وعذبه بـأنـواع الـعـذاب
بنتـفٍ أو بـقـص كـل يومٍ وأحياناً بمكروه الخـضـاب
فإن هو لم يحر وأتى لوقتـه فقل في رحب دار واقتراب
ولا تعرض لـه إلا بـخـيرٍ وإن عدي على شرخ الشباب
وخذ للشيب أهبـتـه وبـادر وخل عنان رحلك للـذهـاب

فقد جد الرحيل وأنت ممن يسير على مقدمة الركاب

وقال محمود الوراق:

وذي حيلةٍ في الشيب ظل يحوطه فيخضبه طوراً وطوراً ينـتـف

وما لطفت للشيب حـيلة عـالـمٍ على الدهر إلا حيلة الشيب ألطف

وقال محمود أيضاً:

اشتعل الشيب فـأفـنـيتـه وكل مقراضي فأعتقـتـه

كنت إذا استقصيت قصي له وقلت في نفسي أفنـيتـه

عارضني من جانبٍ آخـرٍ كأنني قد كنت زمـلـتـه

الشيب ما ليست لـه حـيلَة أعياني الشيب فخـلـيتـه

وله أيضاً:

يا خاضب الشيبة نح فقدهـا فإنما تدرجها فـي كـفـن

أما تراها منذ عـاينـتـهـا تزيد في الرأس بنقص البدن

أنشدني بعض شيوخي لابن محاسن في الخضاب:

يا من يغير شيبه بـخـضـابـه ليكون عند الغانـيات وجـيهـا

هبك المشيب أحلته عن حـالـه فغضون وجهك كيف تصنع فيها

هيهات توهمها بأنك تـربـهـا فإذا خلت بك كنت صنو أبيهـا

ولمنصور الفقيه:

هبني سترت مشيبي تستراً عن حبيبـي

فهل أروح وأغـدو إلا بوجه مـريبٍ

وقال آخر:

صبغت الرأس ختلاً للغوانـي كما غطى على الريب المريب

أعلـل مـرةً وأسـاء أخـرى ولا تحصى على الكبر العيوب

يقوم بالثقاف الـعـود لـدنـاً ولا يتقوم العود الـصـلـيب

وقال آخر:

فما منك الشباب ولست منه إذا سألتك لحيتك الخضابا

ولابن المعتز:

ماذا تريدين من جهلي وقد سلفت سنو شبابي وهذا الشيب قد وخطا

أروح للشعرة البيضاء فيصبح الشيب للسوداء

ملتقـطـاً   ملتقطـا

وقد مدح ابن المعتز الخضاب فقال:

وقالوا: النصول مشيب جديد   فقلت: الخضاب شباب جديد
إساءة هـذا بـإحـسـان ذا   فإن عاد هذا فهـذا يعـود

ولمحمود الوراق:

أتـفـرح أن تـرى حـسـن الـخـضـــاب   وقـد واريت بـعـضـك فـي الـتـــراب
ألم تعلم وفرط الجهل أولىبمثلك أنه كفن الشباب
لقد ألزمت لهزمتيك هوناً   وذلا لـم يكـن لـك فـي الـحـــســـاب
أحـين رمـى ســـواد الــرأس شـــيـب   فغيره فـزعـت إلـى الـخــضـــاب
فكـنـت كـمـن أطـل عـلــى عـــذابٍ   ففـر مـن الـعـذاب إلـى الـــعـــذاب
تهـي لـنـقـلـة لابـــد مـــنـــهـــا   فقـد أثـبـت رجـلـك فـي الـركـــاب

وقال آخر:

يا أيها الرجل المسود شيبـه   كيما يعد به من الشـبـان
أقصر فلو سودت كل حمامةٍ   بيضاء ما عدت من الغربان

وقال ابن الرومي:

رأيت خضاب المرء عند مشيبـه   حداداً على شرخ الشبيبة يلبـس
وإلا فما يغني الفتى من خضابـه   أيطمع أن يخفي شباب مدلـس
فكيف بأن يخفي المشيب لخاضب   وكل ثلاثٍ صبحـه يتـنـفـس
وهبه يواري شـيبـه أين مـاؤه   وأين أديم للـشـبـيبة أمـلـس

وقال محمود الوراق:

طويت عوار الشيب من فرطٍ قبحه   بأقبح منه فافتضحت وما انطـوى
وأصبحت مرتاداً لنفسـك ضـلةً   وقبلك ما أعيا الفلاسـفة الألـى

وله أيضاً، ويروي لغيره:

يا خاضب الشيب الذي   في كل ثالثةٍ يعـود

إن النصـول إذا بـدا فكأنه شـيـب جـديد
هذي بــديهة روعةٍ مكروهها أبداً عتـيد
فدع المشيب لمـا أراً د فلن يعود كما تريد

كان عقبة بن عامر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يخضب بالسواد، ويتمثل:

اسود أعلاها وتأبى أصولـهـا فياليت ما يسود منها هو الأصل

وقال آخر:

نصول الشيب طوقني بطوق يلوح على من تحت السواد
إذا أبصرته فكـأن وخـزاً بأطراف الأسنة في فؤادي

باب جامع مختصر في الشيب والبكاء
على فقد الشباب

قال منصور النمري:

ما واجه الشيب من عين وإن ومقـت إلا لهـا نـبـوة عـنـه ومـرتـدع
أبكي شباباً سـلـبـنـاه وكـان ومـا توفي بقيمـتـه الـدنـيا ولا تـسـع
قد كدت تقضي على فوت الشباب أسًى لولا يعزيك أن العيش مـنـقـطـع
ما كدت أوفي شبابي كـنـه عـزتـه حتى انقضى فإذا الدنـيا لـه تـبـع

قال المبرد: هذا من الشعر البديع في معناه، الذي ليس لأحد من المحدثين مثله، وقد أخذه الباهلي في قوله:

اذهب إليك فما الدنيا بأجمعها من الشباب بيومٍ واحدٍ بـدل

قال الفرزدق:

وتقول كيف يميل مثلك للصبـا وعليك من سمة الكبير عـذار
والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانـبـيه نـهـار

وقال الأخطل:

هل الشباب الذي قد فات مردود أم هل دواء يرد الشيب موجود
لن يرجع الشيب شباناً ولن يجدوا عدل الشباب له ما أورق العود

وقال أيضاً:

لقد لبست لهذا الدهر حتى تخلل رأسي الشيب

أعـصـره	واشتعلا
وبان مني شبابي بـعـد لـذتـه	كأنمـا ضـيفـا نـازلا رحـلا

وقال منصور الفقيه:

من شاب قد مات وهـو حـي	يمشي على الأرض مشي هالك
لو أن عمر الفـتـى حـسـاب	كان لـه شـيبـه فـذلــك

وقال محمود الوراق:

مني السلام على الدنيا وبهجتـهـا	فقد نعاها إلى الشيب والـكـبـر
لم يبق لي لذة إلا التعـجـب مـن	صرف الزمان وما يأتي به القدر
إحدى وسبعون لو مرت على حجر	لكان من حكمه أن يفلق الحجـر

وقال نفطويه:

شيئان لو بكت الدماء عليهما	عيناي حتى بؤذنا بذهـاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما	فقد الشباب وفرقة الأحباب

وقال آخر:

كان الشباب رداءً قد بهجت بـه	فقد تطاول فيه للبلـى خـرق
وبان منشمراً عني ومنقبـضـاً	كالليلِ ينهض في أعجازه الفلق

وقال يوسف بن هارون:

نظرت إلى بعين من لم يعدل	لما تمكن طرفها من مقتلي
فجعلت أطلب وصلها بتلطفٍ	والشيب يغمزها بألا تفعلي

وقال محمود الوراق:

أمن بعد ستين تبكي الطلـولا	وتندب رسماً وانياً مـحـيلا
وقد نجم الشيب في عارضيك	وجر على مفرقك الـذيولا

وله أيضاً:

أليس عجيباً بأن الـفـتـى	يصاب ببعض الذي في يديه
فمن بين باكٍ لـه مـوجـع	وبين معزٍ مـعـزٍ إلـيه
ويسلبه الشيب شرخ الشباب	وليس يعزيه خلق عـلـيه

وقال سهل الوراق:

أرى الشيب مذ جاوزت خمسين حجةً يدب دبيب الصبح في غسق الظلـم
هو السقـم إلا أنـه غـير مـؤلـمٍ ولم أر مثل الشيب سقماً بـلا ألـم

وقال آخر:

والشيب أعظم جرماً عند غانيةٍ من ابن ملجم عند الفاطمييـنا

وقال علي بن جبلة:

جلال مشيبٍ نـزل وأنس شبابٍ رحـل
طوى صاحب صاحباً كذاك اختلاف الدول
أعاذلتي أقـصـري كفي بالمشيب العذل
جلال ولـكـنــه تحاماه حور المقـل

وقال ابن مقبل:

قالت سليمى وقد كانت علـى مـقةٍ لا خير في المرء بعد الشيب والكبر

قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: للموت تقحم على الشيب كتقحم الشيب على الشباب.

وقال مسلم بن الوليد:

الشيب كره وكره أن يفـارقـنـي أعجب بشيءٍ على البغضاء مردود

وقال آخر:

جانبك النـوم والـقـرار أن منعت وصلها نـوار
رأت مشيباً وفي الغواني عمن بدا شيبـه ازورار
حتى إذا استيقنت بـأنـي قد شاب صدغاي والعذار
ألوت بخدً إلى اللـواتـي زعمن أن المشيب عـار
تمسح رأسي وهي تنادي أحتى على رأسك الغبار

نظر كسرى إلى رجلين من مرازبته أحدهما قد شاب رأسه قبل لحيته، والآخر قد شابت لحيته قبل رأسه، فأراد أن يعرف جواب كل واحد منهما عن حاله تلك. فقال لأحدهما: لم شاب رأسك قبل لحيتك؟ قال: لأن شعر رأسي خلق قبل شعر لحيتي، والكبير يشيب قبل الصغير. وقال للآخر: لم شابت لحيتك قبل رأسك؟ قال: لأنها أقرب إلى الصدر موضع الهم والغم.

قال حبيب:

شاب رأسي وما رأيت مشيب ال رأس إلا من فضل شيب الفؤاد

قيل لعبد الملك بن مروان: أسرع إليك المشيب. قال: فكيف لا أشيب وأنا أعرض عقلي على الناس في كل أسبوع - يعني الخطبة.

روى عن ابن عباس رحمه الله، قال: شيب الناصية من الكرم، وشيب الصدغين من الروع، وشيب

الشارب من الفحش، وشيب القفا من اللؤم.
قال مكي بن إبراهيم:

مشيب لئام الناس في ذروة القفا وشيب كبار الناس فوق المفارق

قال قيس بن عاصم: الشيب خضاب المنية.
قال بعض الحكماء: الشيب موت الشعر.
قال معمر بن سليمان: الشيب مراحل الموت.
نظر بعض الأعاجم إلى شيبٍ في رأسه أو لحيته، فجمع نساءه وقال: تعالين فاندبنني إذا مات بعضي، لأبصر كيف تندبنني إذا مات كلي.

باب الكبر والهرم

قال الله تعالى: "ومن نعمره ننكسه في الخلق".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أعوذ بك أن أرد إلى أرذل عمر".
وكان صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من الغم والهم والكسل والهرم.
وفد عمرو بن مسعود السلمي على معاوية بن أبي سفيان، وكان صديقاً لأبي سفيان، فلما مثل بين يدي معاوية عرفه، فقال له: كيف أنت وحالك؟ فقال: ما يسأل أمير المؤمنين عمن سقطت ثمرته، وذبلت بشرته، وابيض شعره، وانحني ظهره، وكثر منه ما يحب أن يقل، وصعب منه ما كان يحب أن يذل، وترك المطعم وكان المنعم، وهجر النساء وكن الشفاء، وقصر خطوه، وذهب لهوه، وكثر سهوه، وثقل على الأرض، وقرب بعضه من بعض، فقل إيحاشه، وكثر ارتعاشه، فنومه سبات، وهمه تارات، وأنشد شعراً حسناً في معناه، تركته لطوله.
وقال أبو عبيدة: عاش أنس بن مدرك الخثعمي مائة سنة وأربعا وخمسين سنة، وكان سيد خثعم في الجاهلية، وفارسها. وأدرك الإسلام فأسلم، وقال في كبره:

إذا ما امرؤ عاش الهنيدة سـالـماً وخمسين عاماً بعـد ذاك وأربـعـا
تبدل مر العيش من بـعـد عـذبـه وأوشك أن يبلي وأن يتسعـسـعـا
ونادي به الأدني وترضى به العـدا إذا صار مثل الدال أحدب أخضعـا
رهينة قعر الـبـيت لـيس يريمـه لقىً ثاوياً لا يبرح البيت مضجعـا
يخبر عمن مات حـتـى كـأنـمـا رأى الصعب ذا القرنين أو راء تبعا

قال أبو عبيدة: عمر نصر بن دهمان الأشجعي مائة وتسعين سنة، واعتدل بعد ذلك وصار شاباً، واسود شعره، وكان أعجوبة غطفان في سائر العرب وفيه قال الشاعر:

ونصر بن دهمان الهنيدة عاشها وتسعين حولاً ثم قوم فانصاتـا
وعاد سواد الرأس بعد بياضـه ولكنه من بعد ذا كله مـاتـا

روى سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، قال: دخل عمرو بن حريث على أبي العريان الهيثم بن الاسود النخعي يعوده ويزوره، فقال: كيف تجدك يا أبا العريان؟ قال أجدني قد ابيض مني ما كنت أحب أن يسود، واسود مني ما كنت أحب أن يبيض، ولأن مني ما كنت أحب أن يشتد، واشتد مني ما

كنت أحب أن يلين. وزاد غيره في هذا الخبر: وأجدني يسبقني من بين يدي، ويدركني من خلفي، وأنسي الحديث، وأذكر القديم، وأنعس في الملاء، وأسهر في الخلاء، وإذا قمت قربت الأرض مني، وإذا قعدت بعدت عني. ثم اتفقت الرواية:

فاسمع أنبئك بآيات الكبر
تقارب الخطو وضعف في البصر
وقلة الطعم إذا الزاد حضر
وكثرة النسيان ما بي مدكر
وقلة النوم إذا الليل اعتكر
أوله نوم وثلثاه سهر
وسعلة تعتادني مع السحر
وتركي الحسناء في حين الطهر
وحذراً أزداده إلى حذر
والناس يبلون كما يبلي الشجر

وقال يحيى بن الحكم الغزال:

تسألني عن حالتي أم عمر ... وهي ترى ما حل بي من الغير
وما الذي تسأل عنه من خبر ... وقد كفاها الكشف عن ذاك النظر
وما تكون حالتي مع الكبر ... اربد مني الوجه وابيض الشعر
وصار رأسي شهرة من الشهر ... ويبست نضرة وجهي واقشعر
ونقص السمع بنقصان البصر ... وصرت لا أنهض إلا بعد شر
لو ضامني من ضامني لم أنتصر ... فانظر إلى واعتبر ثم اعتبر
فإن للحلوم في معتبر

قال معاوية بن أبي سفيان: من أخطأه سهم المنية قيده الهرم.

مر شيخ قد انحنى بفتى شاب، فقال له: أتبيع القوس يا شيخ؟ فقال له: إن كبرت أخذتها بلا ثمن.

لأعرابي في الصلع:

قد ترك الدهر صفاتي صفصفا
فصار رأسي جبهةً إلى القفا
كأنه قد كان ربعاً فعفا

أمسى وأضحى للمنايا هدفا

وقال تميم بن مقبل العجلاني:

كان الشباب لحـاجـاتٍ وكـن لـه فقد فرغت إلى حاجـاتـي الأخـر

يا حر أمست بشاشات الصبا ذهبـت فلست منها علـى عـينٍ ولا أثـر

يا حر أمسى سواد الرأس خالـطـه شيب القذال اختلاط الصفو بالكـدر

يا حر من يعتذر مـن أن يلـم بـه ريب الزمات فإني غير معـتـذر

قد كنت أهدي ولا أهدي فعلمـنـي حسن المقادة أني فاتني بـصـري

قالت سليمى لأختيها وقد صـدقـت لا خير في العيش بعد الشيب والكبر

قالت امرأة لرجل عهدته شابا ثم رأته شاخ: أين شبابك? قال: أودى به خصال من طال أمده، وكثر ولده، وضعف جلده، وذهب عدده.

قال منصور الفقيه:

يا من دعته الغواني عماً وقد كان شبـا

قد كنت ورداً جنيناً فصرت ورداً مربا

مر أعرابي وهو شيخ كبير ببعض الغلمان، فقال له: من قيدك أيها الشيخ? قال: الذي هو دائب في فتل قيدك، وأنشده:

الدهر أبلاني وما أبلـيتـه والدهر غيرني وما يتغـير

والدهر قيدني بقيد مـبـرمٍ فمشيت فيه وكل يوم يقصر

وقال آخر:

حنتني حانيات الدهر حـتـى كأني خاتـل أدنـو لـصـيد

قريب الخطو يحسب من رآني ولست مقـيداً أنـي بـقـيد

قال عبد الرحمن بن أبي بكرة: من طالت أيامه، كانت مصيبته في أحبابه، ومن قصرت أيامه كانت مصيبته في نفسه.

قال محمود الوراق:

ألا رب ذي أمـلٍ كـــاذب بعيد الرجاء قوي الطـمـع

تمني البقـاء تـمـادي بـه أجاب القضاء فماذا صنـع

تجرد أكثـر جـثـمـانـه وفرق ما كان منه جـمـع

ودل المشيب علـى رأسـه وأعقب من بعد شيبٍ صلع

وقوس متنيه بعد اعـتـدالٍ وأثبت في الرجل منه الظلع

فمن ذا يسر بطول البـقـاًء إذا كان يبدع هذي الـبـدع

سأل الحجاج رجلاً من بني ليث، قد بلغ سناً كبيرة، قال: كيف طعمك؟ قال: إذا أكلت ثقلت، وإذا تركت ضعفت. قال: فكيف نكاحك؟ قال: إذا بذل لي عجزت، وإذا منعت شرهت. قال: كيف نومك؟ قال أنام في المجمع، وأسهر في المضجع. قال: كيف قيامك وقعودك؟ قال: إذا أردت الأرض تباعدت مني، وإذا أردت القيام لزمتني. قال: فكيف مشيتك؟ قال: تعقلني الشعرة، وأعثر بالبعرة.
وذكر المبرد قال: نظر محمد بن عبد الله بن طاهر إلى حاجب له قد رفع حاجبه عن عينيه بعصابةٍ من الكبر، فقال له: كم أتى لك من السنين يا أبا المجد؟ فقال مجيباً له:

يا ابـن الـذي دان لـه الـمـشـرقـا ... ن مـن بـعـد أن دان لـه الـمـغـربـان
إن الثمانين وبلغتهاقد أحوجت سمعي إلى ترجمان
وبدلتني بالشطاط انحنا ... وكـنـت كـالـصـعـدة تـحـت الـسـنـان
وقـاربـت مـنـي خـطـاً لـم تـكـن ... مقـاربـات وثـنـت لـي الـعـنـان
وأنـشـأت بـيـنـي وبـين الـورى ... عيابة مـن غـير نـسـج الـعـيان
لم تـبـق لـي عـظـمـاً ولا مـفـصـلاً ... إلا لـسـانـي وكـفـانـي الـلـسـان
أدعـو بـه الـلـه وأثـنـى بـه ... علـى الأمـير الـطـاهـري الـجـنـان
فقـربـانـي بـأبـي أنـتـمـا ... من وطـنـي قـبـل اصـفـرار الـبـنـان
وقبل منعاي إلى نسـوةٍ ... أوطانها حران والرقتان

قال عبد الرحمن بن أبي بكرة: من تمنى طول العمر، فليوطن نفسه على المصائب، وأقلها فقد الأحبة والقرابات.
قال لبيد:

المـرء يأمـل أن يعـي ... ش وطول عيشٍ قد يضره
تفني بشاشـتـه ويبـقـى ... بعد حلو الـعـيش مـره
وتخـونـه الأيام حـتـى ... لا يرى شـيئاً يسـره

قال التيمي:

إذا كانت السبعون سنك لـم يكـن ... لدائك إلا أن تـمـوت طـبـيب
وإن امرءاً قد سار سبعين حـجةً ... إلى منهلٍ مـن ورده لـقـريب
إذا ما مضى القرن الذي ... وخلفت في قرنٍ فأنـت

كنت فيهم غـريب

قام أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب، فوجد في ظهره ما يجد الكبير، فأنشأ يقول:

ولقد كنت كالقناة قـديمـاً ... ثم نادت بي الحوادث طاط
فتضويت للحوادث رغمـاً ... بعد تعديل قامةٍ وشطـاط
وأديم قد كان يبرق حسنـاً ... فتغشى الأديم بعد انبسـاط

قال محمود الوراق:

ابيض مني الرأس بعد سواده ... ودعا المشيب شبيبتي لنفـاد
واستحصد القوم الذي أنا منهم ... وكفى بذاك علامة لحصادي

كان أبو بكر بن عياش قد بلغ ثمانين سنة، فكان يتمثل:

بلغت ثمانين أو جزتها ... فماذا أؤمل أو أنتظر

ومما ينسب إلى بلعام بن راشد السكسكي:

إذا ما المنايا أخطأتك وصادفت ... حميمك فاعلم أنها ستـعـود
ولما رأيك الشيب أيقنت أنـه ... رجوع غضارات الشباب بعيد

وقال منصور النمري:

ما تنقضي خسرة مني ولا جزع ... إذا ادكرت شباباً ليس يرتجـع
ما كدت أوفي شبابي كنه عزته ... حتى مضى فإذا الدنيا له تبـع

وقال محمود الوراق:

أيها النادب الشباب الذي قـد ... كنت تجفوه مرةً وتعـقـه
لو بكيت الشباب عمر الليالي ... لم تكن باكياً بما يستحـقـه

قال أبو العتاهية:

مضى عني الشباب بغير أمري ... فعند الله أحتسب الشـبـابـا
فزعت إلى خضاب الشيب منه ... وإن نصوله فضح الخضابـا
وما من غـايةٍ إلا الـمـنـايا ... لمن خلقت شبيبتـه وشـابـا

وقال محمود الوراق:

سقـياً لأيامٍ تـولـت بـهــا ... أحسن ما كانت صروف الزمن
إذ أنت في شرخ الشباب الـذي ... يحسن فيه منك غير الحـسـن

ولي وما الدنيا بـأقـطـارهـا للبوم والساعة مـنـه ثـمـن

ولمحمود الوراق أيضاً:

إذا ما دعوت الشيخ شيخاً هجوته وحسبك مدحا للفتى قول يا فتى

أشبه أيام الشباب التي مـضـت وأيامنا في الشيب بالفقر والغنى

وقال آخر:

إذا رأيت صلعاً في الهامـه وحدباً بعد اعتدال القـامـه

وصار شعر الرأس كالثغامه فايئس من الصحة والسلامه

وقال النمر بن تولب:

يحب الفنى طول السلامة والبقا فكيف ترى طول السلامة يفعل

يرد الفنى بعد اعتدالٍ وصـحـة ينوء إذا رام القـيام ويحـمـل

وكان النضر بن شميل ينشد:

يحب بقائي المشفقون ومدتيإلى أجل لو يعلمونقريب

وما إن أرى في أرذل العمر بعدما لبـسـت شـبـابـي كـلـه ومـشــيـبــي

وأصبحـت فـي قـومٍ كـأن لـسـت مـنـهـم وبـانـت لـداتـي مـنـهـم وضــروبــي

وقال رجل ليزيد بن هرون: يا أبا خالد! كيف أصبحت؟ فقال:

أصبحت لا يحمل بعضي بعضا

كأنما كان شبابي قرضا

فاستؤدي القرض فكان فرضا

وصرت عوداً نخراً مرفضاً

وقال حميد بن ثور:

أرى بصري قد رابني بعد صحةٍ وحسبك داءً أن تصح وتسلمـا

ولن يلبث العصران يوماً ولـيلةً إذا طلبا أن يدركا ما تـيمـمـا

وقال لبيد بن ربيعة:

كانت قناتي لا تلين لـعـامـزٍ فألانها الإصبـاح والإمـسـاء

ودعوت ربي في السلامة جاهداً ليصحني فـإذا الـسـلامة داء

وقال لبيد أيضاً:

أليس ورائي إن تراخت منـيتـي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع
أخبر أخبار القرون التي مضـت أدب كأبي كلما قـمـت راكـع

وقال أبو النجم العجلي:

إن الفتى يصبح للأسقام
كالغرض المنصوب للسهام
أخطأ رامٍ وأصاب رام

وأظنه أخذه من قول زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فـيهـرم

وقال آخر:

من عاش أخلقت الأيام جدته وخانه ثقتاه السمع والبصر

وقال أعرابي:

إذا الرجـال ولـدت أولادهـا واضطربت من كبرٍ أعضادها
وجعلت أسقامها تعـتـادهـا فهي زروع قددنا حصادهـا

وقال عروة بن الورد:

أليس ورائي أن أدب على العصا فيأمن أعدائي ويسأمني أهلـي
رهينة قعر البيت كل عـشـيةٍ يطيف بي الوالدان أهدج كالرأل

شبه هدجان الشيخ الضعيف في مشيه بهدجان الرأل، والرأل: ولد النعام والجميع: رئال ورئلان.

قال أبو الرجف:

أشكو إليك وجعاً بركبتي
وهدجاناً لم يكن بمشيتي
كهدجان الرأل خلف الهيقت

وقال أبو حية النميري:

وقد جعلت إذا ما قمـت يوجـعـنـي ظهري فقمت قيام الشارب السـكـر
وكنت أمشي على رجلي مـعـتـدلاً فصرت أمشي على أخرى من الشجرٍ

وقال آخر:

إن الأمور إذا الأحـداث دبـرهـا دون الشيوخ يرى في بعضها الخلل
وإن أتت للشبـاب الـغـر نـادرةً فإن أكثر ما يأتي لها الـخـطـل

قال أبو العتاهية:

أسرع في نقص امرىءٍ تمامه

وقال أيضاً:

من يعش يكبر ومن يكبر يمت والمنايا لا تبالي مـن أتـت

وقال محمود الوراق:

يحب الفتى طول البقاء وإنـه على ثقةٍ أن البقـاء فـنـاء

زيادته في الجسم نقص حياته وليس على نقص الحياة نماء

إذا ما طوى يوماً اليوم بعضه ويطويه إن جن المساء مساء

جديدان لا يبقى الجميع عليهما ولا لهما بعد الجميع بـقـاء

قال محمد بن نصر: كنت بأرض الطفاوة، إذ سمعت امرأةً تكلم أخرى من طاقٍ إلى طاقٍ فقالت لها: ما تقولين في ابن العشرين؟ قالت ريحانة تشمين. قالت فما تقولين في ابن الثلاثين؟ قالت قرة عين الناظرين. قالت فما تقولين في ابن الأربعين؟ قالت: قوى الظهر في ماء مكين. قالت: فما تقولين في ابن الخمسين؟ قالت: تعرفين وتنكرين. قالت: فما تقولين في ابن الستين؟ قالت: كثير السعال والأنين. قالت: فما تقولين في ابن السبعين؟ قالت: اكتبيه في الضارطين.

ذكر ابن الأنباري، عن ثعلب، عن ابن الأعرابي، قال: كان العرب تقول: الرجل يزداد قوةً إلى الأربعين، فإذا بلغ الأربعين اصلهب إلى الستين، فإذا جاوز الستين أدبر. وقال: اصلهب بقي على حال واحدة. وأنشد:

وفيت ستين واستكملت عدتهـا فما بقاؤك إذ وفيت سـتـينـا

فاحتل لنفسك يا حسان في مهلٍ فكل يوم ترى ناساً يموتـونـا

وذكر أبو الحسن الأخفش، قال: أنشدني أبو العباس ثعلب لبعض حكماء العرب:

ابـن عـشـرٍ مـن الـســنــين غــلام همـه الـلـعـب مـولـع بـالـغـــرام

وابـن عـشـرين مـولـع بـالـغـــوانـــي لا يبـــالـــي مـــلامةً الـــلـــوام

والـذي يبـلـغ الـثـلاثـــين عـــامـــاً فضـروب لـدى الـوغـى بـالـحـســـام

فإذا جـازهـا بـعـــشـــر ســـنـــينٍ كان أقـوى مـن كـل قـــرن مـــســـام

وابن خمسين للنوائب يرجى ولنقض الأمور والإبرام

وابن ستين حازم الرأي طب كامـل الـعـقـل ضـابـط لـلـــكـــلام

وابن سبعين قد تولى وأودى	وتثنى فما له من قوام
والذي يبلغ الثمانين عاماً	ذاهب الذهن دائب الأسقام
وابن تسعين تائه قد تناهى	إن تسعين غاية الأعوام
فإذا جازها بعشرٍ فحي	مثل ميتٍ مودع بالسلام

باب الوصايا الموجزة

قال جابر بن عبد الله: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بأيام يقول: "لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله".

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أوصني يا رسول الله، وأقلل في القول لعلي أحفظه. قال: "لا تغضب".

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، أو تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمةٍ طيبة".

أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فقال: "هيئ جهازك وقدم زادك، وكن وصي نفسك؛ فإنه لا خلف من التقوى، ولا عوض من الله عز وجل".

قال أبو هريرة: أوصاني خليلي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم بثلاثٍ لا أدعهن أبداً؛ بالوتر قبل النوم، وبصيام ثلاثة أيام في كل شهر، وركعتي الضحى.

وقال لي: أحبب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً.

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أوصني. فقال: "أوصيك بالدعاء؛ فإن معه الإجابة، وعليك بالشكر؛ فإن معه الزيادة، وأنهاك عن المكر؛ فإنه لا يحيق المكر السيء إلا بأهله، وعن البغي؛ فإنه من بغي عليه نصره الله، وإياك أن تبغض مؤمناً أو تعين عليه".

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم بالله فأجيبوه، ومن استغاثكم بالله فأغيثوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فأثنوا عليه".

أوصى النبي عليه السلام رجلا، فقال: "عليك بذكر الموت؛ فإنه يشغلك عما سواه، وعليك بكثرة الدعاء؛ فإنك لا تدري متى يستجاب لك، وأكثر من الشكر؛ فإنه زيادة".

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والفحش؛ فإن الله لا يحب الفاحش المتفحش؛ وإياكم والشح؛ فإنه دعا من قبلكم فقطعوا أرحامهم، وسفكوا دماءهم، وإياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة".
قال عبد الله بن عباس: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: "يا غلام، احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت استعن فالله...".
وذكر الحديث.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوصاني ربي بتسع بالإخلاص في السر والعلانية، وبالعدل في الرضا والغضب، وبالقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة".
قال الأعشى:

أجدك لم تسمع وصـاة مـحـمـدٍ	نبي الهدى في حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التـقـى	ولاقيت بعد الموت من قد تـزودا
ندمت على ألا تكون كـمـثـلـه	وترصد للموت الذي كان أرصـدا

قال موسى بن عمران للخضر عليهما السلام: إني قد حرمت صحبتك؛ فأوصني. قال: إياك واللجاجة، والمشي في غير حاجة، والضحك من غير عجب.
قال أبو بكر لعمر رضى اله عنهما في وصيته إياه: إذا جنيت جنيً فكف يدك، أو يشبع من جنيت له. من نازعتك نفسك إلى شركتهم، فكن فيهم كأحدهم، ولا تستأثر عليهم، وأعلم أن ذخيرة الإمام تهلك دينه وتسفك دمه.
وأوصى أبو الدرداء رجلاً، فقال له: اعتقد لنفسك ما يدوم، واستدل بما كان على ما يكون.
كان جندب بن عبد الله الأنصاري صديقاً لعبد الله بن عباس، فقال له حين ودعه: أوصني يا ابن عباس، فإني لا أدري أنجتمع بعدها أم لا. فقال: أوصيك يا جندب ونفسي بتوحيد الله، وإخلاص العمل لله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ فإن كل خير أتيت بعد هذه الخصال مقبول، وإلى الله مرفوع، ومن لم يكمل هذه الأعمال رد عليه ما سواها. وكن في الدنيا كالغريب المسافر، واذكر الموت، ولتهن الدنيا عليك، فكأنك قد فارقتها وصرت إلى غيرها، واحتجت إلى ما قدمت، ولم تنتفع بشيء مما خلقت. فم افترقا.
كتب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله: أوصيك بتقوى الله، فإنه من اتقاه كفاه ووقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، فاجعل التقوى عماد

بصرك، ونور قلبك، واعلم أنه لا عمل لمن لا نية له، ولا جديد لمن لا خلق له، ولا إيمان لمن لا أمانة له، ولا مال لمن لا رفق له، ولا أجر لمن لا حسنة له.

كان علي بن أبي طالب إذا أراد أن يستعمل رجلا دعاه فأوصاه، وقال: عليك بتقوى الله الذي لابد من لقائه، ولا منتهى لك دونه، فإنه يملك الدنيا والآخرة، وعليك فيما أمرك به بما يقربك من الله، فإن ما عنده خلف من الدنيا.

دخل عثمان بن عفاف على العباس بن عبد المطلب في مرضه الذي مات فيه، فقال: أوصني. قال: أوصيك بالصدق؛ فإنه يعرف في ثلاث: في حفظ اللسان، وترك المصانعة، واستواء السر والعلانية.

وروى عاصم بن بهدلة، عن أبي العدبس الأسدي، قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: فرقوا بين المنية؛ واجعلوا الرأس رأسين، ولا تلبثوا بدار معجزة، وأصلحوا مثاويكم، وأخيفوا الهوام قبل أن تخيفكم، واخشوشنوا وتمعددوا وانتعلوا.

أوصى أعرابي انبه فقال: يا بني؟ اغتنم مسالمة من لا يدان لك بمحاربته، وليكن هربك من السلطان إلى الوحش في الفيافي وأطراف البلدان، حيث تأمن سعاية الساعي، وطمع الطامع منك، ولا تغرنك بشاشة امرئٍ حتى تعلم ما وراءها؛ فإن دفائن الناس في صدورهم، وخدعهم في وجوههم، ولتكن شكاتك الدهر، إلى رب الدهر، واعلم أن الله إذا أراد بك خيراً أو شراً أمضاه فيك على ما أحب العباد أو كرهوا، وأرح نفسك من التعب بقبول القيل والقال، فإن كلمة السوء حبة القلب، كما أن الحنطة حبة الأرض، إذا أصابها الماء نبتت، وكذلك الكلمة السوء إذا زرعت في صدرك نبتت منها الضغائن والبغضاء والعداوة.

قال أبو العتاهية:

رضيت ببعض الذل خوف جميعه	وليس لمثلي بالـمـلـوك يدان

قال شبيب بن شيبة: قال لي أبو جعفر المنصور - وكنت من سماره - عظني وأوجز. قال: فقلت يا أمير المؤمنين! إن الله لم يجعل فوقك أحداً من خلقه؛ فلا ترض من نفسك بأن يكون عبد هو أشكر منك. قال: والله لقد أوجزت وما قصرت. قلت: والله لئن كنت قصرت فما بلغت كنه النعمة فيك.

قال سعد بن أبي وقاص لسلمان: أوصني. فقال له: اذكر الله عند همك إذا هممت، وعند لسانك إذا تكلمت، وعند حكمك إذا حكمت، وعند يدل إذا بطشت.

دخل محمد بن علي بن حسين على عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: أوصني. فقال: أوصيك أن تتخذ صغار المسلمين ولدا، وأوسطهم أخاً، وأكبرهم أباً، فارحم ولدك، وصل أخاك، وبر أباك.

أوصى رجل ابنه، فقال: أوصيك يا بني بتقوى الله عز وجل؛ فإنه جنب أولياء الله محارمه، وألزم قلوبهم طاعته، فكذب الأمل، ولاحظ الأجل.

لما التقى هرم بن حيان بأويس القرني، كان فيما أوصاه ووعظه به أن قال: يا هرم! توسد الموت إذا بت، واجعله أمامك إذا قمت، ولا تنظر إلى صغر ذنبك، ولكن انظر من عصيت، ومن عظم أمر الله فقد عظم الله. يا هرم! ادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك، فإنك لم تعالج شيئاً هو أشد عليك منهما، بينما قلبك مقبل إذ أدبر، فاغتنم إقباله قبل إداره.

قال وبرة: أوصاني عبد الله بن عباس بكلماتٍ لهي أحب إلى من الدهم الموقفة في سبيل الله.
قال: إياك والكلام فيما لا يعنيك، فإنه إثم ولا آمن عليك فيه الوزر، وإياك والكلام فيما يعنيك في غير موضعه، فرب مسلم تقي تكلم بما يعنيه في غير موضعه فعنت. فلا تمار سفيهاً ولا فقيهاً. فأما السفيه فيوذيك، وأما الفقيه فيغلبك، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن تذكر به، واعمل عمل رجلٍ يعلم أنه مكافأ بالإحسان، مجازيً بالإجرام.
أوصى صالح بن علي بن عبد الله بن عباس أمير سرية أتت، فقال: تاجر الله بعباده، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحاً تجر، وإلا احتفظ برأس المال، لا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك، أشد حذراً من احتيال عدوك عليك.
كان المهلب بن أبي صفرة يقول لبنيه: إياكم أن تروا في الأسواق: فإن كنتم لابد فاعلين، ففي سوق الدواب والسلاح، فإنها من صناعة الفرسان.
قال زياد بن ظبيان لابنه عبد الله وهو يجود بنفسه: ألا أوصى بك الأمير؟ قال: إذا لم تكن للحي إلا وصية الميت، فالحن هو الميت أخذه الشاعر فقال:

إذا ما الحي عاش بعظم ميتٍ	فذاك العظم حي وهو ميت

قال نافع بن خليفة العبدي: جمعنا أبونا فقال: يا بني! اتقوا الله بتقاته، واتقوا السلطان بحقه، واتقوا الناس بالمعروف. فقام وقد جمع لنا أمر الدنيا والآخرة.
قال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه وهو خليفة، كيف كانت طاعتي لك؟ قال: ما كان أطوعك! فقال: فقد وجبت طاعتي عليك، خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك، ومن قميصك حتى يبدو كعباك.
أوصى رجل بنيه فقال: يا بني! عليكم بالنسك، فإنه إذا ابتلى أحدكم بالبخل.. قيل: مقتصد لا يرى الإسراف، وإن ابتلى بالعي، قيل: يكره الكلام فيما لا يعينه، وإن ابتلى بالجبن، قيل: لا يقدم على شبهة.
قال محمد بن علي لابنه: أد النوائب ولا تتعرض للحقوق، ولا تجب أخاك إلى ما مضرته عليك أكثر من منفعته.
قال معاوية بن أبي سفيان لسفيان بن عوف الأزدي: كل قليلا، تعمل طويلا، والزم العفاف تسلم من القول، واجتنب الرياء يشتد ظهرك عند الخصوم.
قال يوسف بن أسباط: أتيت سفيان الثوري رحمه الله، فقلت: يا أبا عبد الله! أوصني. قال: أقلل من معرفة الناس. قلت: زدني يرحمك الله، قال: أنكر من عرفت. قلت: زدني يرحمك الله. قال:

ابلُ الرجال إذا أردت إخاءهـم	وتوسمن أمورهم وتـفـقـد
وإذا ظفرت بذي الأمانة والتقى	فبه اليدين قرير عينٍ فاشـدد

قال عبد الملك بن مروان لمؤدب بنيه: إنه -والله- ما يخفى علي ما تعلمهم وتلقيه إليهم، فاحفظ عني ما أوصيك به: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، واحملهم على الأخلاق الجميلة، وعلمهم الشعر يسمحوا ويمجدوا وينجدوا، وجنبهم شعر عروة بن الورد، فإنه يحمل على البخل، وأطعمهم اللحم يقووا ويشجعوا، وجز شعورهم تغلظ رقابهم، وجالس بهم أشراف الناس وأهل العلم منهم، فإنهم أحسن الناس أدباً وهدياً، ومرهم فليستا كوا، وليمصوا الماء مصاً، ولا يعبوه عباً، ووقرهم في العلانية، وأدبهم في السر، واضربهم على الكذب كما تضربهم على القرآن، فإن الكذب يدعو إلى

الفجور، والفجور يدعو إلى النار، وجنبهم شتم أعراض الرجال، فإن الحر لا يجد من شتم عرضه عوضاً، وإذا ولوا أمراً فامنعهم من ضرب الأبشار؛ فإنه على صاحبه عار باق ووتر مطلوب، واحثثهم على صلة الرحم. واعلم أن الأدب أولى بالغلام من النسب.

كان يقال: صن عقلك بالحلم، ودينك بالعلم، ومروءتك بالعفاف، وجمالك بترك الخيلاء، ووجهك بالإجمال في الطلب.

أوصى معروف الكرخي رجلا فقال: توكل على الله حتى يكون أنسك وموضع شكواك، واجعل ذكر الموت جليسك، واعلم أن الفرج من كل بلاء كتمانه، فإن الناس لن يعطوك ولن يمنعوك، ولن ينفعوك، ولن يضروك إلا بما شاء الله لك، وقضاه عليك.

أوصى بعض الأكاسرة رجلاً وجهه أميراً، فكان فيما قال: واعلم أنه ليس من العدو أحد مكالبة ولا أصدق مخالبةً من مستنصرٍ في ملة، أو غيران على حرمة، أو ممتعضٍ من ذلة.

ومن قضاياهم: اخلع سربال الاتكال، وتنكب عثرات الاسترسال، وتدرع جلباب الاجتهاد، وتحرز من نكبات الانقياد.

ومما خرج من أشعار الحكماء مخرج الوصايا الموجزة، ما أنشدني أبو القاسم محمد بن نصير الكاتب - رحمه الله - لنفسه:

تخير سبيل الهدى جـاهـداً ... ودع عنك مشتبهات السبـل

وأصبح من الناس مستوفـزاً ... فأكثرهم راصد لـلـزلـل

وأجبن من قد ترى منـهـم ... لعمرك يردي الشجاع البطل

وتصمي المقاتل أقوالـهـم ... بألسنةٍ وقعها كـالأسـل

ولا تحسبن إن تكن عـاقـلاً ... مريدك بالضر حيناً عـقـل

ومن حكم الناس في عرضه ... فمن جار أكثر ممن عـدل

وقال أبو العتاهية:

كن في أمورك ساكـنـاً ... فالمرء يدرك في سكونه

وألن جناحك تعـتـقـد ... في الناس محمدةً بلينـه

واعمد إلى صدق الحدي ... ث فإنه أزكى فنـونـه

والصمت أجمل بالفتـى ... من منطقٍ في غير حينه

لا خير في حشو الكـلام ... إذا اهتديت إلى عيونـه

رب امـرئ مـتـيقـنٍ ... غلب الشقاء على يقينـه

فأزالـه عـــن رأيه ... فاتبـاع دينـاه بـدينـه

وقال أبو العتاهية أيضاً:

خفف على إخوانك المؤنا ... أولا فلست إذاً لهم سكنا

لا تغترر بدنو ذي لطفٍ ... يوماً إليك وإن دنا ودنـا

واعلم جزاك الله صالحةً ... أن ابن آدم لم يزل أذنـا

مستسرفاً شرس الطباع له ... نفس تريه قبيحة حسنـا

وقال أيضاً:

اكره لغيرك ما لنفسـك تـكـره ... وافعل بنفسك فعل من يتـنـزه

وكل السفيه إلى السفاهة ... بالحلم أو بالصمت ممن

وانتصف	يسـفـه
ودع الفكاهة بالمزاح فـإنـهـا	تزري وتسخف من بها يتفكـه

وقال محمود الوراق:

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا	فيهتك الله ستراً عـن مـسـاويكـا
واذكر محاسن ما فيهـم إذا ذكـروا	ولا تعب أحداً منهم بـمـا فـيكـا

وقال آخر:

تصاون عن الأنذال ما عشت واكتسب	لنفسك كسباً من خلال تصـونـهـا
وما للفتى بر كـمـثـل عـفـافـه	إذا نفسه اختارت لها مـا يزينـهـا
إذا النفس لم تقنع يكسب ملـيكـهـا	على ما أتى منه، فما تـم دينـهـا

ولأبي العتاهية في ابن السماك الواعظ:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً	إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيهـا
كالملبس الثوب من عريٍ وعورته	للنـاس بـادية مـا إن يواريهـا
وأعظم الإثم بعد الشرك نعلـمـه	في كل نفسٍ عماها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تبصرهـا	منهم، ولا تبصر العيب الذي فيها

وقال أمية بن أبي الصلت:

خصال إذا لم يحوها المرء لم ينل	منالاً من الدنيا ينال بـه حـمـدا
يكون لـه جـاه وعـز وثـروة	وحسن فعال حيث أحضر أو أبدى
وتقوى فإن الفوز يدرك بالتـقـى	ويورث في الدارين صاحبه مجدا

وقال آخر:

من طالب الناس طالبوه	واعتقب الحزن والندامه
من سالم الناس سالمـوه	وكان في حيز السلامه

وقال منصور الفقيه:

نفسك رأس الغني فصنها	من لم يصن نفسه يهنها

إن صعبت حالة فدعهـا | فاليأس منها غناك عنها

وقال محمود الوراق:

كن مع الله يكن لك | واتق الله لعـلـك
لا تكن إلا مـعـداً | للمنايا فـكـأنـك
إن للموت لسهمـاً | واقعاً دونك أو بك

وقال منصور الفقيه:

يا أخا الدهر إن وفـى | وأخا الدهر إن غـدر
كن من الدهر كيف شي | ت على غاية الحـذر

وقال آخر:

تغنم كل ما ياتـك | ولا تأس لما فاتك
ولا نغتر بالدنـيا | أما تذكر أمواتك

وقال آخر:

اسعد بمالك في الحياة فإنـمـا | يبقى خلافك مصلح أو مفسد
فإذا تركت لمفسدٍ لـم يبـقـه | وأخو الصلاح قليلـه يتـزيد
فإن استطعت فكن لنفسك وارثاً | إن المورث نفسه لـمـسـدد

وقال منصور الفقيه:

تخل عن القبيح ولا ترده | ومن أوليته حسناً فـزده
ستكفي من عدوك كل كيدٍ | إذا كاد العدو ولم تكـده

وقال آخر:

أحسن الظن بمن قد عودك | حسناً أمس وسـوى أودك
إن رباً كان يكفيك الـذي | كان بالأمس سيكفيك غدك

وقال محمود الوراق:

قدم لنفسـك تـوبةً مـرجـوةً | قبل الممات وقبل حبس الألسن
بادر بها علق النفوس فإنـهـا | ذخر وغنم للمنيب المحسـن

وقال منصور الفقيه:

لا تلفين خـلـيطـاً | لفاسقٍ أو كـفـورٍ
فالقرب من ذين عار | على الفتى المستور

وقال محمود الوراق:

لا تسألن المرء عما عـنـده | واستمل ما في قلبه من قلبكا
إن كان بغضاً كان عندك مثله | أو كان حباً فاز منك بحبكـا

وقال منصور الفقيه:

اسمع فـهـذا كـلام | ما فيه والله عـلـه

أقل من كـل شـيءٍ من لا يرى الناس قله

وقال آخر:

اغتنم في الفراغ فضل ركوعٍ فعسى أن يكون موتك بغتـه

كم صحيحٍ رأيت من غير سقمٍ ذهبت نفسه العزيزة فلـتـه

وقال محمود الوراق:

قل لهرون إن حلل ت به قول ذي مقه

أطبق الموت والنفـو س على اللهو مطبقه

كيف يلهو من ليس من عشر يوم على ثقـه

وقال منصور الفقيه:

خذ من زمانك ما صفا ودع الذي فيه الكـدر

فالعمر أقصر من معا تبة الزمان على الغير

وقال محمود الوراق:

رأيت صلاح المرء يصلح أهـلـه ويعديهم داء الفـسـاد إذا فـسـد

ويشرف في الدنيا بفضل صلاحـه ويحفظ بعد الموت في الأهل والولد

وقال منصور الفقيه:

لا تعرضن عن النصي ح للؤمه يا ابن الكريمه

فالنصح أولى ما قـبـل ت وإن أتاك به بهيمـه

وقال محمود الوراق:

إن القلوب على القلوب شواهد فبغيضها لك بين وحبيبـهـا

وإذا تلاحظت العيون تفاوضت وتحادثت عما تجن قلوبـهـا

ينطقن والأفواه صامتة فـمـا يخفي عليك صحيحها ومريبها

وقال منصور الفقيه:

هبك نلت المنى وفوق الأماني وتجاوزت حـالة الإنـسـان

هل ترى ذاك باقياً لك والـده ر سريع الهجوم بالحـدثـان

وقال صالح بن عبد القدوس:

إذا وترت امرءاً فاحذر عـداوتـه من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا

إن العدو وإن أبـدي إذا رأى منك يوماً فرصةً

مـسـالـمةً … وثـبـا

وقال آخر:

جالس كهول الناس واحفظ حديثهم … ولا تك للأحداث خدناً محـادثـا

وقال سهل الوراق، وتنسب إلى الشافعي رحمه الله ولا تصح له:

إذا لم تـكـن تـاركـاً زينةً … إذا المرء جاء بها يستـراب
تقع في مواقع تـردي بـهـا … وتهوي إليك السهام الصـياب
تبين زمانـك ذا واقـتـصـد … فإن زمانـك هـذا عـذاب
وأقلل عتاباً فمـا فـيه مـن … يعاتب حين يحق الـعـتـاب
مضى الناس طرا وبادوا سوى … أراذل عنهم تجل الـكـلاب
يلاقيك بالبشر دهـمـاؤهـم … وتسليم من رق منهم سبـاب
فأحسن وما الحر مستحـسـن … صيان له عنهم واجـتـنـاب
فإن يغنه الله عـنـهـم يفـر … وإلا فذاك البلاء العـجـاب
إذا حار أمرك في معـنـيين … ولم تدر فيما الخطا والصواب
فدع ما هويت فإن الـهـوى … يقود النفوس إلى مـا يعـاب

وقال آخر:

وإياك والأمر الذي إن توسعت … موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن أن يعذر المرء نفسه … وليس له من سائرٍ الناس عاذر

وقال آخر:

فلا تقنطن من عظيم الذنوب … فرب العباد رحـيم رءوف
ولا تمضين على غـير زادٍ … فإن الطريق مخوف مخوف

وقال عدي بن زيد:

إذا ما رأيت الشر يبعث أهله … وقام بناة الشر للشر فاقعـدٍ

وقال يزيد بن الحكم:

يا بدر والأمـثـال يض … ربها لذي اللب الحكيم
دم لـلـخـلـيل بـوده … ما خــير ود لا يدوم
واعرف لجارك حقـه … والحق يعرفه الكـريم
واعلم بأن الضـيف يو … ماً سوف يحمد أو يلوم
والناس مبتـنـيان مـح … مود البنـاية أو ذمـيم
واعلم بـنـي فـإنـه … بالعلم ينتفع الـعـلـيم

أن الأمور دقـيقـهـا مما يهاج به العظـيم
والتبل مثل الـدين تـق ضاه وقد يلوي العزيم
والبغي يصرع أهـلـه والظلم مرتعه وخـيم
ولقد يكون لك الغـري ب أخاً ويقطعك الحميم
والمرء يكرم للغـنـى ويهان للعدم الـعـديم
قد يقتر الحول التـقـى ويكثر الحمـق الأثـيم
يملي لذاك ويبـتـلـي هذا فأيهما المـضـيم
ما بخل من هو للمنـو ن وريبها غرض رجيم
ويرى القرون أمـامـه همدوا كما همد الهشيم
وستخرب الدنـيا فـلا بؤس يدوم ولا نـعـيم
كل امرئ ستـئيم مـن ه العرس أو منها يثـيم
ما علـم ذي ولـد أيث كله أم الولـد الـيتـيم
والحرب صاحبها الصلي ب على تلاتلها العزوم
من لا يمل ضراسـهـا ولدى الحقيقة لا يخـيم
واعلم بأن الـحـرب لا يسطيعها المرح السؤوم

وقال منصور الفقيه:

توكل على الله فيما اعتراك ولا تشركن سواه مـعـه
فما في سواه تعالى اسمـه لراج ولا خائفٍ منفعـه

باب لمع من الدعاء

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: علمني ما ينفعني. فقال: "عليك بالدعاء فإنك لا تدري متى يستجاب لك، وأكثر من ذكر الموت يشغلك عما سواه".

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الدعاء هو العبادة، ثم تلا: "وقال ربكم ادعوني أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتي...". الآية.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أعوذ بك من دعاءٍ لا يسمع، وعلم لا ينفع، وقلبٍ لا يخشع، ونفسٍ لا تشبع، أعوذ بك من شر هؤلاء الأربع".

ومن دعائه عليه السلام: "اللهم إني أعوذ بك من الفقر والفاقة، والقلة والذلة، ومن موقف الخزي في الدنيا والآخرة".

ومن دعائه عليه السلام: "اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعافية والغنى، وأعوذ بك من درك الشقاء، ومن جهد البلاء، ومن سوء القضاء، ومن شماتة

الأعداء".
ودعاؤه صلى الله عليه وسلم كثير قد جمعه جماعة من العلماء.
دعا أعرابي فقال: اللهم إني أعوذ بك من الفقر والفاقة، والقلة والذلة، ومن مواقف الخزي في الدنيا والآخرة، قال: بينا أنا أصلى إذ سمعت متكلما يقول: اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير وكله، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره، أهل الحمد أنت، لا إله إلا أنت، إنك على كل شيء قدير. اللهم اغفر لي جميع ما سلف من ذنوبي، واعصمني فيما بقى من عمري، وأعني على عمل ترضى به عني. قال: فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، قال: "ملك أتاك يعلمك تحميد ربك".
كان رجل مظلوم في سجن الحجاج مغموماً، فأتاه آتٍ، فقال له: ادع الله. قال: وبم أدعو؟ قال: يا من لا يعلم كيف هو إلا هو، ولا يعلم قدرته إلا هو، فرج عني ما أنا فيه. فقالها فأطلق الله سبيله.
ومن الدعاء الحسن المرجوة إجابته: يا من لا يشغله شيء عن سماع الدعاء، يا فعال لما يشاء، يا من لا يغالطه السائلون، ولا يبرمه لملحون، اغفر لي وارحمني، يا من لا يغفر الذنوب غيره.
ومثله: يا سامع كل صوت، ويا بارئ النفوس بعد الموت، ويا من لا تغيبه الظلمات، ولا تشتبه عليه الأصوات، يا عظيم الشان، يا واضح البرهان، يا شديد السلطان، يا من هو كل يوم في شان، اغفر لي ذنوبي. وادع بهذا الدعاء فيما شئت: من دين أو دنيا، يستجب لك إن شاء الله تعالى.
ومثله من الدعاء: يا عظيم العفو، يا واسع المغفرة، يا قريب الرحمة، يا ذا الجلال والإكرام، هب لي العافية في الدنيا والآخرة.
ومن الدعاء الحسن: اللهم فرغني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما قد تكفلت لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبني وأنا أستغفرك.
قال أعرابي في دعائه: تظاهرت يا رب على منك النعم، وتكاثفت مني عندك الذنوب، فأحمدك على النعم التي لا يحصيها أحد غيرك، وأستغفرك من الذنوب التي لا يحيط بها ألا عفوك.
قال سفيان، قال مسعر: كنا إذا لقينا طلق بن حبيب، لا نكاد نفترق حتى يقول: اللهم أبرم للمسلمين أمراً رشداً، يعز فيه وليك، ويذل فيه عدوك، ويعمل فيه بطاعتك، ويتناهى فيه عن سخطك.
ومن دعاء بعض الأعراب: اللهم إني أعوذ بك من شهادة الزور، وركوب الفجور، وعذاب القبور، ومنكر ونكير.
كان من دعاء شريح: اللهم إني أسألك الجنة بلا عملٍ عملته، وأعوذ بك من النار بلا ذنب ركبته.
سأل أعرابي رجلاً فأعطاه، فقال: جعل الله المعروف عليك دليلا، والخير شاهداً، ولا جعل حظ السائل منك عذراً صادقاً.
من دعاء معروف الكرخي: اللهم اجعلنا ممن يؤمن بلقائك، ويرضى

بقضائك، ويقنع بعطاياك، ويخشاك حق خشيتك.
كان عمر بن هبيرة أمير العراق يدعو فيقول: اللهم إني أعوذ بك من صديق يطري، وجليس يغدي، وعدوٍّ يسري.
دعا أعرابي لرجل فقال: جنبك الله الأمرين، وكفاك شر الأجوفين.
الأمران: الجوع والعرى، والأجوفان: الفم والفرج.
دعا أعرابي فقال: اللهم أمسك قلبي عن كل شيءٍ لا أتزود به إليك ولا أنتفع به يوم ألقاك.
دعا أعرابي فقال: اللهم إني أعوذ بك من الذل إلا لك، ومن الفقر إلا إليك.
دعا أعرابي فقال: اللهم اجعل رزقي رغدا، ولا تشمت بي أحدا.
دعا أعرابي فقال: اللهم إني أعوذ بك من السلطان والشيطان والإنسان.
دعا علي بن أبي طالب يوماً فقال: يا خير من رفعت إليه الأيدي، وسمت إليه الأبصار، وتحاكم إليه العباد، نشكو إليك فقد نبينا، واختلافنا بيننا.
وقف شيخ أعرابي عند باب الكعبة، فقال: يا رب! سائلك عند بابك، مضت أيامه، وبقيت آثامه، وانقطعت شهوته، وبقيت تبعته، فارض عنه يا رب، وإن لم ترض عنه فاعف عنه، فقد يعفو السيد عن عبده وهو عنه غير راضٍ، اللهم إنك أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا، اللهم هب لي حقك، وأرض عني خلقك.
وقف محمد بن سليمان عند قبر أبيه، فقال: اللهم إني أرجوك له، وأخافك عليه، فحقق رجائي له، وآمن خوفي عليه.
قال سعيد بن المسيب لصلة بن أشيم: ادع الله لي. فقال: رغبك الله فيما يبقى، وزهدك فيما يفنى، ووهب لك اليقين الذي لا تسكن النفوس إلا إليه، ولا يعول في الدين إلا عليه.
وقف أعرابي بالموسم فقال: اللهم إن لك حقوقاً فتصدق بها علي، وللناس عندي تبعات فتحملها عني، وقد أوجبت لكل ضيفٍ قرى، وأنا ضيفك، فاجعل قراي في هذه الليلة الجنة.
قال الأصمعي: سمعت أعرابية تقول في دعائها: يا من ليس له رب يدعى، ويا من ليس فوقه خالق يخشى، ويا من ليس دونه إله يبقى، ويا من ليس له وزير يؤتى، ويا من ليس له صاحب يرشي، ولا بواب ينادي، ويا من لا يزداد على كثرة السؤال إلا كرماً وجودا، وعلى كثرة الذنوب إلا رحمة وعفواً.
قال العتبي: سمعت أعرابياً وهو يدعو في الصلاة ويقول: اللهم ارزقني عمل الخائفين، وخوف العاملين، وحتى أنعم بترك النعيم طمعاً فيما وعدت، وخوفاً مما أوعدت.
هنأ رجل رجلاً بولاية فقال: إن النعم ثلاث، فنعمة هي في حال كونها، ونعمة ترجى مستقبلة، ونعمة تأتي غير محتسبة، فأبقى الله لك ما أنت فيه، وحقق طمعك فيما ترجوه، وتفضل عليك بما لم تحتسبه.

ويروى عن الأحنف، أنه كتب بذلك إلى صديق له.
دعا أعرابي فقال: اللهم إني أعوذ بك من حلول النقم، وزوال النعم، وتحول العافية، اللهم هب لي بنين أتقوى بهم على عشيرتي، ومالاً أرغم به حسادي، واجعلني ملياً من العقل والدين، يا أرحم الراحمين.
أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم عليه السلام: هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع، وادعني فإني قريب مجيب.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة مخلصون، فإن الله لا يقبل دعاءً من قلبٍ لاهٍ".
كان يقال: إنما يستجاب لمخلص أو مظلوم.
ولامرئ القيس بن عانس الكندي:

الله أنجح ما طلبت بـه والبر خير حقيبة الرحل

ذكر الحميدي، عن سفيان، قال: سمعت أعرابياً يقول عند مقام إبراهيم عليه السلام: اللهم لا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي، اللهم إن كنت لا تقبل تعبي ولا نصبي، فأعطني أجر المصاب على مصيبته. اللهم إن لك عندي حقوقاً فلتهبها لي، وللناس على تبعات، فأسألك أن تحملها لهم، وقد أوجبت لكل ضيف قري، وأنا ضيفك، فاجعل قراي في هذه العشية الجنة.
قال سفيان بن عيينة: وسمعت أعرابياً يقول في الموقف: اللهم إن ذنوبي لن تضرك، ورحمتك إياي لن تنقصك، فلا تمنعني مالا ينقصك، واغفر لي مالا يضرك.
قال: وسمعت إعرابياً في الموقف جاثياً على ركبتيه يقول: يا رب! عجت إليك الأصوات بأنواع اللغات لطلب الحاجات، وحاجتي أن تذكرني بعد طول البلاء إذ نسيني أهل الأرض.
قال بعض أهل العلم: بينا أنا أمشي بين مني وعرفات ليلاً، إذ أنا بأعرابي قد أقبل على قعود له، رافعاً صوته، يقول:

يا ذا المعارج أنت اللـه أسـألـه وأنت يا رب مدعو ومـسـؤول
أدعوك في ليلةٍ حرم وفـي حـرمٍ وكل داعٍ بحلو النوم مـشـغـول
تعطي إذا شئت من يسألك من سعةٍ والخير منك لمن ناداك مـبـذول
فاجمع بعفوك شملاً أنت جامعـه إن شئت ذاك وما حاولت مفعول

قيل لعلي: كم بين السماء والأرض؟ قال: دعوة مستجابة. قيل: فكم بين المشرق والمغرب؟ قال: مسيرة يوم للشمس. من قال غير هذا فقد كذب.
سألت هند بنت النعمان سعيد بن العاص حاجةً فقضاها، فدعت له فقالت: لا أزال الله عنك نعمةً، ولا أحوجك إلى لئام الناس عند حاجة، وإذا زالت عن كريمٍ نعمة يجعلك الله سبباً لردها عليه.
ودعا رجل لرجلٍ فقال: لا جعلك الله آخراً تتكل على أول.
كان يقال: أربعة لا ترد لهم دعوة: الصائم حتى يفطر، والذاكر حتى يفتر،

والإمام العدل، ودعوة المظلوم.
دعاء لي: اللهم اجعلني مكثراً لذكرك، مؤدياً لحقك، حافظاً لأمرك، راجياً لوعدك، راضياً في كل حالاتي عنك، راغباً في كل أموري إليك، مؤملاً لفضلك، شاكراً لنعمك، يا من تحب العفو والإحسان وتأمر بهما، اعف عني وأحسن إلي، فإنك بالذي أنت له أهل من عفوك، أحق مني بالذي أنا له أهل من عقوبتك، اللهم ثبت رجاءك في قلبي، واقطعه عمن سواك حتى لا أرجو غيرك، ولا أستعين إلا إياك.
ودعاء لي أيضاً: اللهم هب لي اليقين والعافية، وإخلاص التوكل عليك، والاستغناء عن خلقك، واجعل خير عملي ما قارب أجلي، رب! ظلمت نفسي فاغفر لي يا خير الغافرين، ويا أرحم الراحمين.
قال بعض الأعراب، في وصف دعوة:

وساريةٍ لم تسر في الليل تبتغي	محلاً ولم يقطع بها البيد قاطع
سرت حيث لم تسر الركاب ولم تنخ	لوردٍ ولم يقصر لها القيد مانع
تحل وراء الليل والليل ساقط	بأرواقه فيه سمير وهاجع
تفتح أبواب السماوات دونها	إذا قرع الأبواب منهن قارع
إذا أوفدت لم يردد الله وفدها	على أهلها والله راءٍ وسامع
وإني لأرجو الله حتى كأنما	أرى بجميل الظن ما الله صانع

أمر المنصور أبو جعفر بأشخاص سوار بن عبد الله القاضي إليه من البصرة بعد قتل إبراهيم ابن عبد الله بن حسن، فلما قدم عليه قال له: يا سوار! ضربني أهل البصرة بمائة ألف سيف من غير جناية، لأفعلن بهم ولأفعلن. فقال له سوار: يا أمير المؤمنين! إن لأهل البصرة سلاحاً لا تطيقه. قال: أبسلاحهم تخوفني لا أم لك يا أمير المؤمنين: إنه دعاء بالأسحار.
ووقف أعرابي على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أوصيتنا فقبلنا منك، وحفظنا عنك مما وعيت عن ربك: "ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً"، وقد ظلمنا أنفسنا فاستغفر الله لذنوبنا، وقد أتيناك فاستغفر لنا. ثم بكى.
ومما جاء من الدعاء منظوماً عن الحكماء، قال محمود الوراق:

يا رب كن لي ولياً	بالحفظ حتى أطيعك
فإن ذممت صنيعي	فقد حمدت صنيعك
أو كنت أعصيك إني	أحب فيك مطيعك

قال منصور الفقيه:

أصلح الله كل من	يتولى أمورنا
ووقانا شرورهم	ووقاهم شرورنا

وقال آخر:

وإني لأدعو الله والأمر ضـيق على فما ينفك أن يتـفـرجـا
ورب فتىً سدت عليه وجوهـه أصاب لها في دعوة الله مخرجا

وقال آخر:

بالله تتـسـع الـفـجـا ج إذا تضايقت المذاهب

وقال آخر:

أيا مـن لا يخـيب لـــديه راجٍ ولم يبرمه إلحاح الـمـنـاجـي
ويا ثقتي على ظلمـي وجـرمـي وإيثاري التمادي في الـلـجـاج
أقلني عثـرتـي وتـلاف أمـري وهب لي منك عفواً واقض حاجي
فما لي غير إقـراري بـذنـبـي لنفسي دون عـذرٍ واحـتـجـاج

قال صحار بن عابد، رأيت حسن البصري بطريق مكة، وهو يحدو:

يا فالق الإصباح أنت ربي
وأنت مولاي وأنت حسبي
فأصلحن باليقين قلبي
ونجني من كرب يوم الكرب

كان يقال: عليكم بالدعاء في أوقات الصلوات، فإنها اختيرت في أفضل الأوقات.
ولمنصور الفقيه أو الشافعي:

يا سميع الدعاء كن عند ظـنـي واكفني من كفيته الشر مـنـي
وأعني على رضاك وخـر لـي في أموري، وعافني واعف عني

باب ذكر الدنيا

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر".

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله! دلني على عمل إذا عملته احبني الله وأحبني الناس. قال: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر: "يا عبد الله! كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعد نفسك من أهل القبور".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع إليه".
وقال عليه السلام: "مثل الدنيا كركبٍ رفعت لهم شجرة في يوم صائف،

فقالوا تحتها ساعةً من نهار ثم راحوا".
وقال عليه السلام: "إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخفلكم فيها، فانظروا كيف تعملون، ألا فاتقوا الهوى، واتقوا النساء".
ذكر المبرد أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه سئل عن الدنيا والآخرة، فقال: هما كالمشرق والمغرب، بقدر ما تقرب من أحدهما تبعد عن الآخر.
وروى عبد خير عن علي رضى الله عنه قال: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك، ويعظم حلمك، وأن تباهي الناس بعبادة ربك، وإن أحسنت حمدت الله عز وجل، وإن أسأت استغفرت، ولا خير في الدنيا إلا لرجلين: رجل أذنب ذنوباً فهو يتدارك ذلك بتوبته، ورجل يسارع في الخيرات ولا يقل عمل مع تقوى الله وكيف يقل ما يتقبل.
وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الدنيا حلوة خضرة، فمن أخذها بحقها بورك له فيها، ومن أخذها بغير حقها كان كالذي يأكل ولا يشبع، ورب منحوض من مال الله ورسوله له النار يوم القيامة".
وروى عنه عليه السلام أنه قال: "حب الدنيا رأس كل خطيئة". وروى أن ذلك من كلام المسيح عليه السلام.
قال الأصمعي: ذكر لنا أن أنوشروان لما ضرب عنق بزرجمهر، وجد في منطقته كتاباً لطيفاً فيه ثلاث كلمات: إن كان القدر حقاً فالحرص باطل، وإن كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحدٍ عجز، وإن كان الموت لكل أحد راصداً، فالطمأنينة إلى الدنيا حمق.
ووعظ أعرابي ابنه، فقال: يا بني! إن الدنيا تسعى على من يسعى لها، فالهرب قبل العطب.
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا الدنيا؛ فنعم مطية المؤمن يبلغ عليها الخير، وبها ينجو من الشر".
قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه: الدنيا دار صدقٍ لمن صدقها، ودار نجاةٍ لمن فهم عنها، ودار غنىً لمن تزود منها، مهبط وحي الله، ومصلى ملائكته، ومساجد أنبيائه، ومتاجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها، وقد أذنت ببينها، ونادت بفراقها، فيا أيها الذام لها، بم خدعتك الدنيا؟ أم بماذا استذمت إليك؟ أبمصارع أمهاتك في الثرى؟ أم بمضاجع آبائك للبلى، لقد تطلب علينا الشفاء، واستوصف الأطباء حين لا يغني عنه دواؤه، ولا ينفعه بكاؤه.
قيل لنوح عليه السلام - حين حضرته الوفاة -: يا نبي الله! لقد بلغت من العمر ما بلغت، فصف لنا الدنيا. فقال: ما وجدت الدنيا مع طول عمري فيها إلا كبيتٍ له بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر.
قال المسيح عليه السلام: حلو الدنيا مر الآخرة، ومر الدنيا حلو الآخرة، ومن حزن على دنياه سخط على الله.
وعن المسيح عليه السلام أنه قال: الدنيا لإبليس مزرعة، وأهلها لها حراث.

كان يقال: مثل صاحب الدنيا كخائض الماء، هل يستطيع ألا تبتل قدماه.
قال عمر بن الخطاب: يا معشر القراء! لا تلقوا كلكم على إخوانكم، ولا تدعوا دنياكم لآخرتكم، ولا آخرتكم لدنياكم، واستعينوا بهذه على هذه.
قال علي بن أبي طالب: الدنيا دار ممرً إلى دار قرار، والناس فيها رجلان: رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل ابتاعها فأعتقها.
وعن علي رضى الله عنه، أنه قال: إن الله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا من يحب، وقد يجمعهما الله لأقوام. وقد روى هذا الكلام مرفوعاً عن النبي عليه السلام.
أكثر قوم من ذم الدنيا عند رابعة القيسية، فقال: من أحب شيئاً أكثر من ذكره.
وقال سفيان الثوري: من أحب الدنيا وسرته، نزع خوف الآخرة من قلبه.
قال أبو الدرداء: من هوان الدنيا على الله أنه لا يعصي إلا فيها، ولا ينال ما عند إلا بتركها.
قال حذيفة بن اليمان: ليس خياركم الذين تركوا الدنيا للآخرة، ولا الذين تركوا الآخرة للدنيا، ولكن خياركم الذين أخذوا من هذه وهذه.
قال الشاعر:

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فمهما زوت عنه فليس بضائر
فما تعدل الدنيا جناح بعـوضةٍ ... لدى الله أو مقدار زغبة طائر
فما رضى الدنيا ثواباً لمؤمـنٍ ... ولا رضى الدنيا عقاباً لكافـر

قال أبو العتاهية:

ويا دنياي مالـي لا أرانـي ... أسومك منزلاً إلا نبـا بـي
وما لي لا ألح عـلـيك إلا ... نصبت الهم لي من كل باب
أراك وإن طلبت بكل وجـهٍ ... كحلم النوم أو ظل السحاب
وكالأمس الذي ولى مـريراً ... وكالحدثان أو لمع السراب
وهذا الخلق منك على مسيرٍ ... وأرجلهم جميعاً في الركاب
وموعد كل ذي سعيٍ وفعلٍ ... بما يبدو غداً يوم الحسـاب

قال ابن مسعود: الدنيا كلها غموم، فما كان منها سرور فهو ربح.
وقال الشاعر:

ومن يحمد الدنيا لـعـيشٍ يسـره ... فسوف لعمري عن قليلٍ يلومهـا
إذا أدبرت كانت على المرء حسرةً ... وإن أقبلت كانت قليلاً نعيمـهـا

وقال آخر:

إنما الدنيا وإن سـر ت قليل من قلـيل
لبس يخلو أن تراءى لك في زيٍّ جميل
ثم ترميك من المـأ من بالخطب الجليل

قال بعض الحكماء: الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها.
قال الخليل بن أحمد: الدنيا أمد، والآخرة أبد.
وصف الحسن البصري الدنيا، فقال: أما اليوم فعمل، وأما أمس فأجل، وأما غد فأمل.
قال محمود الوراق:

تلذذت في الدنيا بك لـطـريفة على أنها أيضاً حرام محـرم
وتأمل جنات الخلود لبئسـمـا تقدر، من يقضي بهذا ويحكم؟
لئن كان حكم الله يخرج هكـذا فإنك من يحيي على الله أكرم
إذا قيل: من يقضي بهذا فقل له ومد له في الصوت: يحلم يحلم

وقال منصور الفقيه:

دنيا تروح بأهلـهـا في كل يومٍ مرتين
فغدوها لتـجـمـعٍ ورواحها لشتَاتٍ بين

وقال آخر:

إنما الدنيا شـتـات فتأهب لشتـاتـك
واجعل الدنيا كـيومٍ صمته عن شهواتك
واجعل الفطر إذا ماً صمته يوم وفاتـك

وقال آخر:

أنت في دار شتاتٍ فاغتنم وقت حياتك
اترك الدنـيا ومـا فيها ودعها لعداتك
تجمع المال وتوعي ه لأزواج بناتـك
أو لكنـاتٍ قـريرا ت عيونٍ بوفاتـك
أو لبعل العرس من بعدك تحبوه بذاتك
إنما الدنيا كحـلـم فانتبه من غفلاتك

وقال آخر:

نراع لذكر الموت ساعة ذكـره وتعترض الدنيا فنلهو ونلعـب
ونحن بنو الدنيا خلقنا لغـيرهـا وما كنت فيها فهو شيء محبب

قال الخاسر: أشعر الجن والإنس أبو العتاهية في قوله:

سكن يبقى له سـكـن ما بهذا يؤذن الزمـن

نحن في دارٍ يخبرنـا عن بلاها ناطق لسن
دار سوءٍ لم يدم فـرح لامرئ فيها ولا حزن
في سبيل الله أنفسـنـا كلنا بالموت مرتهـن
كل نفسٍ عند ميتتهـا حظها من مالها الكفن
إن مال المرء ليس له منه إلا ذكره الحسن

كان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - يتمثل:

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له من الله في دار الحياة نـصـيب
فإن تعجب الدنيا أناسـاً فـإنـهـا متاع قـلـيل والـزوال قـريب

وقال الغزال:

لقد فسدت فما تلـقـى بها من ليس ذا شجـن
وصار الحي مـنـا يغ بط الملفوف في الكفن

وقال سابق البربري:

لسانك للدنيا عـدو مـشـاحـن وقلبك فيها للـسـان مـبـاين
وما ضرها ما قلت فيها وقد صفا لها منك ود في فؤادك كـامـن

قال ابن الحنفية: من كرمت عليه نفسه، هانت عليه الدنيا.
قال الشعبي: ما أعلم لنا وللدنيا مثلا إلا كما قال كثير عزة:

أسيئي بنا أو أحسن لا ملومةً لدنيا ولا مقليةً إن تقـلـت

وقال أبو العتاهية:

أصبحت الدنيا لنا عبـرةً والحمد الله على ذلـكـا
قد أجمع الناس على ذمها وما أرى منهم لها تاركا

وقال لسابق البربري:

جمعنا لها أكلاً وذماً بألسن أليس عجيباً ذمها واحنلاتها

قال أبو الطيب:

تفاني الرجال على حبها ولا يحصلون على طائلٍ

وقال أيضاً:

ومن لم يعشق الدنيا قديمـاً ولكن لا سبيل إلى الوصال

وقال آخر:

يذمون دنياهم وهم يحلبونها ولم أر كالدنيا تذم وتحلب

وقال سعيد بن حميد:

ولم أر كالدنيا تذم صروفهـا ونوسعها شتماً ونحن عبيدها

وقال منصور الفقيه:

ضحكت دنياك يا إن سان من نهيك عنها

مع تمنيك على ربك ما لم تؤت منـهـا

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، في خطبة له: أيها الناس! إنما الدنيا أجل محترم، وأمل منتقص، وبلاغ إلى دارٍ غيرها، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج، فرحم الله من فكر في أمره، ونصح لنفسه، وراقب ربه، واستقال ذنبه. أيها الناس! قد علمتم أن أباكم أخرج من الجنة بذنبٍ واحد، وأن ربكم وعد على التوبة خيراً، فليكن أحدكم من ذنبه على وجل، ومن ربه على أمل.

قال بعض الحكماء. إنما الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر.

قال محمود الوراق:

ما أفضح الموت للدنيا وزينتها جداً، وما أفضح الدنيا لأهليها

لا ترجعن على الدنيا بـلائمةٍ فعذرها لك بادٍ في مساويهـا

لم تبق في غيبها شيئاً لصاحبها إلا وقد بينته في معانـيهـا

تفني البنين وتفني الأهل دائبةً ونستنيم إليها لا نـعـاديهـا

فما يزيدكم قتل الذي قتـلـت ولا العداوة إلا رغبةً فـيهـا

قال أبو حفص عمر بن علي الفلاس: كتبت إلى صديق لي أشاوره في شيءٍ من أمر الدنيا، فكتب إلى رقعة فيها سطران، أحدهما: بسم الله الرحمن الرحيم، والآخر: اطلب الدنيا على قدر مكثك فيها، واطلب الآخرة على قد حاجتك إليها.

كان صالح المري يتمثل:

مؤمل دنيا لتـبـقـى لـه فمات المؤمل قبل الأمـل

وبات يروي أصول الفسيل فعاش الفسيل ومات الرجل

وقال آخر:

نرقع دنيانا بتمزيق ديـنـنـا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فطوبى لعبدٍ آثر الله ربـه وجاد بدنياه لما يتـوقـع

وقال آخر:

لقد غرت الدنيا رجالاً فأصبحوا بمنزلةٍ ما بعدها مـتـحـول

فساخط أمرٍ لا يبـدل غـيره وراضٍ بأمرٍ غيره سـيبـدل

وبالغ أمرٍ كان يأمـل غـيره ومختلج من دون ما كان يأمل

وقال آخر:

ويح دنيا غرورها يضـنـينـي كم إلى كم غررتني فدعيني

كم تسومينني خداعاً عن الـرش دٍ وكم ذا الخداع ويك ذرينـي

أملي زائد وعـمـري يفـنـي ويح نفسي عن رأيها المغبـون

همتي تعتلي السماء كسلاً سعي عاجـزٍ مـأفـون

وسعيي	
ويح نفسي أما كفاها من العي	ش تقضى سنين بعد سنين
ليت شعري وما انتظاري وقد	لاح شيب بعارضي وقروني
ويا ابن ستين ما اعتذارك من بع	د بلوغ الأشد والستين

قيل لراهب: كيف سخت نفسك بالخروج عن الدنيا؟ قال: أيقنت أني خارجها منها كارهاً، فأحببت أن أخرج منها طائعاً.

قال بزرجمهر: من عيب الدنيا أنها لا تعطي أحداً ما يستحق، إما زادته وإما نقصته.

لما قدم سعد بن أبي وقاص القادسية أميراً عليها من عند عمر بن الخطاب أتته حرقة بنت النعمان بن المنذر في خدمها ووصائفها، فلما وقفن بين يديه قال: أيكن حرقة بنت النعمان؟ قالت: هأناذه، فما أردت بتكرارك الاستفهام، إن الدنيا دار زوال لا تدوم لأهلها على حال، تنتقل بهم انتقال الظلال، وتعقبهم حالاً بعد حال، إنا كنا ملوك هذا المصر قبلك، يجبي إلينا خراجة ويطيعنا أهله مدة من الدهر، فلما أدبر عنا الأمر صاح بنا صائح الأيام، فصدع شملنا، وشتت ملأنا، وكذلك الدهر يا سعد، فلا تغتر بحال الدنيا، فإنها زائلة عنك كما زالت إليك. ثم سألته حوائجها فقضاها، فدعت: لا أزال الله عنك نعمة أتمها عليك.

كتب أبي بن كعب إلى أخ له: أما بعد، فإن الدنيا دار فناء، ومنزل قطيعة، رغب عنها السعداء، وانتزعت من أيدي الأشقياء، فغناها فقر، والعلم بها جهل.

كان يقال: الدنيا والآخرة ضرتان، إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى.

كان يقال: مثل الذي يريد أن تجتمع له الدنيا والآخرة، مثل عبدٍ له ربان فلا يدري أيهما يطيع.

حج سليمان بن عبد الملك فلما أشرف في انصرفه على قديد، نظر من عسكره فأعجبه ما رأى من كثرته، ومعه عمر بن عبد العزيز، فقال له: كيف ترى يا أبا حفص؟ قال: أرى يا أمير المؤمنين دنيا تأكل بعضها، أنت المبتلي بها والمسؤول عنها.

وروى عن أبي بكر الصديق رضى الله عنه، أو عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال: الدنيا دول، ليس إلى أحد دون الله إدالتها، فما كان منها لأحد أتاه على ضعفه، وما كان منها على أحد لم يدفعه بقوته.

قال أبو حازم: وجدت الدنيا شيئين: شيئاً لي وشيئاً لغيري، فما كان لي منها لم ينله غيري، ولو رامه بحيلة السموات والأرض، ففيم العناء والغم والتعب.

ذكرت الدنيا لأبي حازم فقال أبو حازم: الدنيا جيفة فمن أراد منها شيئاً فليصبر على مهارشة الكلاب.
قال أبو حازم: تكدرت الدنيا وتعذرت، ما تمد يدك إلى شيءٍ منها إلا وجدت فاسقاً قد سبقك إليه.
كان سفيان الثوري يقول: الدنيا داء التواءٍ لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح برخائها، ولم يحزن لشقائها.
قال وهيب بن الورد: من أراد الدنيا فليتهيأ للذل.
سمع المسعودي رجلا يقول: أين الزاهدون في الدنيا، الراغبون فيما عند الله. قال: اقلب المعنى وضع يدك على من شئت.
كان سفيان الثوري يتمثل:

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها	على أنهم فيها عراةٌ وجـوع
أراها وإن كانت تحب فإنهـا	سحابة صيفٍ عن قليل تقشع

وقال أبو العتاهية:

يا ساكن الدنيا لقد أوطنـتـهـا	وأمنتها عجباً وكيف أمنتـهـا
وشغلت قلبك عن معادك بالمنى	وشغلت نفسك بالهوى وفتنتها

وأشعار أبي العتاهية في ذم الدنيا كثيرة جداً، وقد جمعتها شعراً على حروف العجم مما قاله في المواعظ والحكم.
وقال آخر:

ما أعجب الدهر في تصرفه	والدهر لا تنقضي عجائبـه
كم رأينا للدهر مـن أسـدٍ	بالت على رأسه ثعالـبـه

قال محمد بن عبد الملك الزيات:

هي السبيل فمـن يوم إلـى يومٍ	كأنه ما تريك العين في النـوم
لا تعجلـن رويداً إنـهـا دول	دنيا تنقل من قـومٍ إلـى قـوم
إن المنايا وإن أصبحت في شغلٍ	تحوم حولك حوماً أيمـا حـوم

وقال آخر:

تقنع بالذي قاتـك	ولا تأس لما فاتك
ولا تغتر بالدنـيا	أما تذكر أمواتك

قال بعض الحكماء: استودقت الدنيا فأنعظ الناس.
لأيوب بن حول الشاربي:

فلم أر كالدنيا بها اغتـر أهـلـهـا	ولا كاليقين استوحش الدهر صاحبه

وقال محمود الوراق:

أيها الشيخ كم تروم وتبـنـي ليس منكِ الدنيا ولا أنت منها
لا ترومها؛ فأنت وإن كـن ت مقيماً بها كمن زال عنها

قيل لعامر بن عبد قيس: لقد رضيت من الدنيا باليسير. قال: أخبرك بمن رضى بدون ما رضيت.
قيل: من؟ قال: من رضى بالدنيا حظاً عن الآخرة.
قال المأمون: لو سئلت الدنيا عن نفسها ما زادت في وصفها عن وصف أبي نواس حيث يقول:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

قلت: وأظنه أخذه من قول أبو العتاهية:

ولم أر كالدنيا وكشـفـي لأهـلـهـا فما انكشفوا لي عن صفاءٍ وعن صدق

وأول هذا:

طلبت أخاً في الله في الغرب والشرق فأعوزني هذا على كثرة الـخـلـق

وقلت أنا: ولأبي نواس في صفة الدنيا بيت غاية أيضاً وهو قوله:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابضٍ على الماء خانته فروج الأصابع

قال عمر بن الخطاب: والله ما الدنيا في الآخرة إلا كنفخة أرنب، وتمثل:

لاشيء فيما ترى إلا بشاشتـه يبقى الإله ويفنى الأهل والولد

وقال آخر:

وإن امرءاً دنياه أكثر همـه لمستمسك منها بحبل غرور

وقال أبو العتاهية:

يا من ترفع بالدنيا وزينـتـهـا ليس الترفع رفع الطين بالطين
إذا أردت شريف الناس كلـهـم فانظر إلى ملكٍ في زي مسكين
ذاك الذي شرفت في الناس همته وذاك يصلح للـدنـيا ولـلـدين

وقال أبو العتاهية:

كفاك عن الدنيا الدنية مخبـراً غنى باخليها وافتقار كرامهـا
وأن رجال النفع تحت مداسها وأن رجال الضر فوق سنامها

وقال آخر:

الفقر في زمن الـلـئا م لكل ذي كرمٍ علامه

قال نفطويه: يروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال، قرضاً أو تمثلاً:

ولا خير في عيشٍ إذا لم يكن له ... من الله في يوم الحساب نصيب

قال الفتح بن شخرف:

كم يكون الشتاء ثم المصيف ... وربيع يمضي ويأتي خريف
وانتقال من الحرور إلى الظـ ... ـل وسيف الردى عليك منيف
يا قليل البقاء في هـذه الـدا ... ر إلى كم يغرك التسـويف

قال أبو العتاهية:

إن الشقي لمن غرته دنياه

وقال محمد بن عبد الملك الزيات:

سل ديار الحي من غيرها ... وعفاها وعفى منظرها
وكذا الدنيا إذا ما انقلبـت ... جعلت معروفها منكرها
إنما الدنيا كـظـل زائل ... أحمد الله كذا قـدرهـا

وقال محمود الوراق:

كفلت لطالـب الـدنـيا بـهـم ... طويلٍ لا يؤول إلى انقـطـاع
وذلً في الحـياة بـغـير عـز ... وفقرٍ لا يدل علـى اتـسـاع
وشغلٍ ليس يعـقـبـه فـراغ ... وسعيٍ دائمٍ مع كل سـاعـي
وحرصٍ لا يزال عليه عـبـدا ... وعبد الحرص ليس بذي ارتفاع

قال الحسن البصري، لست أعجب ممن هلك كيف هلك، إنما أعجب ممن نجا كيف ونجا، شيطان مريد يحرس منه السماء، ونفس أمارة بالسوء، ودنيا مزينة.

قال عبد الله بن الأرقم لعمر بن الخطاب: قد اجتمع عندي في بيت المال حلي كثير ومناطق من أموال فارس أفلا تقسمه؟ قال: بلى، فأتني به، فنقلته إليه في القفاف، فلما نظر إليه رأى شيئاً عجباً، فقال: اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نحب ما حببت إلينا، ثم تلا هذه الآية: "زين للناس حب الشهوات من النساء".

الآية ـ ثم قال: اللهم قني شره، وارزقني أن أنفقه في حقه.

قال يحيى بن خالد بن برمك: دخلنا في الدنيا دخولاً أخرجنا عنها.

قال منصور الفقيه:

قد صرف البواب والحاجب ... وقهرمان الدار والكاتـب
وأصبح الصاحب من بينهم ... بحيث لا جار ولا صاحب
واعتاضت الناهد من بعـده ... إلفاً سواه وكذا الكـاعـب
وجد في تفريق ما لم يزل ... يجمعه وارثه الـلاعـب
فكن من الدنيا على أهـبةٍ ... يا زاهداً فيها ويا راغـب
فإنـهـا أم لأبـنـائهـا ... منها عدو قاتـل سـالـب

وقال محمد بن أبي حازم الباهلي:

ألا إنما الدنيا على المرء فتنة ... على كل حالٍ أقبلت أو تولت

قال رجل لداود الطائي: عظني. فقال له: أرض من الدنيا إذا سلم لك دينك بما رضى به أهل الدنيا من الآخرة حين سلمت لهم دنياهم، وأنشد في ذلك شعراً، ذكر أن سليمان الأعمش تمثل به:

أرى رجالاً بدون الدين قد قنعوا ... ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالله عن دنيا الملوك كما اس ... تغنى الملوك بدنياهم عن الدين

لابن أبي عيينة، أو لمحمد بن يسير:

ما راح يوم على حيً ولا ابتكرا ... إلا رأى عبرةً فيه إن اعتبرا
ولا أتت ساعة في الدهر وانصرمت ... حتى تؤثر في قوم لها أثرا
وأن الليالي والأيام أنفسها ... عن عيب أنفسها لم تكتم الخبرا

قال بكر بن حماد:

الناس حرصي على الدنيا وقد فسدت ... فصفوها لك ممزوج بتكدير
فمن مكب عليها لا تساعده ... وعاجزٍ نال دبياه بتقصير
لم يدركوها بعقلٍ عندما قسمت ... وإنما أدركوها بالمقادير
لو كان عن قوةٍ أو عن مغالبة ... طار البزاة بأرزاق العصافير

ويقال: إنها مكتوبة على قائم سيف الإمام علي بن أبي طالب رضى الله عنه.

باب الزهد والقناعة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما قل وكفي، خير مما كثر وألهي".
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القناعة مال لا ينفد، وما عال من اقتصد".
وقال عليه السلام: "خير الرزق ما يكفي، وأفضل الذكر الخفي".
وقال عليه السلام: "إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل، ودعوا ما حرم".
قال أبو هريرة، قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقنع بما رزقت تكن أغنى الناس".
قال علي بن أبي طالب: الزاهدون في الدنيا قوم وعظوا فاتعظوا، وأيقنوا فعملوا، إن نالهم يسر شكروا، وإن نالهم عسر صبروا.
وفي الخبر المرفوع: "عز المؤمن استغناؤه بربه عن الناس".
قال سعيد بن المسيب: من استغنى بالله افتقر الناس إليه.
قال الحطيئة:

استغن عن كل ذي قربى وذي رحم ... إن الغنى من استغنى عن الناس

قال أوس بن حارثة لابنه: يا بني! خير الغنى القناعة، وشر الفقر الخضوع.
قال الحسن وعكرمة في قول الله عز وجل: "فلنحيينه حياة طيبةً"، قالا: القناعة.
أبلغ شيءٍ جاء في القناعة، قول علي رضى الله عنه: لا تحمل قوت غدك الذي لم يأت، على يومك الذي قد أتى، فإنه إن يكن من أيام حياتك جاءك وفيه رزقك، وأعلم أنك لم تدخر أكثر من قوت يومك إلا كنت فيه خازناً لغيرك.
قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين! بحقٍ ما أقول لكم: ما زهد في الدنيا من جزع على المصيبة فيها.
وقيل له: يا روح الله! لو اتخذت حماراً تركبه؟ قال: أنا أعز على الله من أن يجعل لي شيئاً يشغلني به.
قال أكثم بن صيفي: من لم يأس على ما فاته أراح نفسه.
سئل ابن شهاب عن الزهد في الدنيا، فقال: الزهد ألا يغلب الحرام صبرك، ولا الحلال شكرك.
قال مالك بن أنس، وسفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل.
قال بعض الحكماء: إذا كان سعيك إنما هو لطلب الراحة في الدنيا، ثم سعيت لأكثر مما يكفيك لم تزدد من الراحة والدعة إلا بعداً.
قال سفيان أو إبراهيم بن أدهم: الزهد زهدان؛ فزهد فرضٍ، وزهد فضل. فالزهد في الحرام فرض، و الزهد في الحلال فضل. والورع ورعان، فالورع عن المعاصي فرض، والورع عن الشبهات حذر وفضل.
سئل الخليل بن أحمد عن الزهد في الدنيا، فقال: الزهد ألا تطلب المفقود حتى تفقد الموجود.
قال إبراهيم بن أدهم: إذا بات الملوك على اختيارهم لأنفسهم، فبت على اختيار الله لك وارض به.
أصيب مكتوباً على صخرة: لست مدركاً أملك، ولا فائتاً أجلك، ولا آخذاً ما ليس لك.
وفي موضع آخر: القضاء غالب، والأجل طالب، والمقدور كائن، والهم فضل.
قال بعض الحكماء: القفاعة. ثوب لا يبلى، وهي شعار الأنبياء.
ولابن المبارك:

لله در القنوع من خـلـقٍ كم من وضيعٍ به قد ارتفعا
يضيق صدر الفتى بحاجته ومن تأسى بدونه اتسـعـا

قال بعض الحكماء لبنيه: يا بني! أظهروا الزهد والنسك، فإن رأى الناس أحدكم بخيلا قالوا: مقتصد لا يحب الإسراف، وإن رأوه عييا قالوا: يكره الكلام فيما لا يعنيه، ويؤثر الصمت خير من مقال يرديه، وإن رأوه جباناً قالوا: لا يقدم على الشبهات.
قال العتبي، كان يقال: من عدم القناعة، لم تزده الثروة إلا عناءً.
قال أبو العتاهية:

تبغي من الدنيا الكثير وإنمـا يكفيك منها مثل زاد الراكب
لا تعجبن بما تـرى فـكـأنـه قد زال عنك زوال أمس الذاهب

قال منصور الفقيه:

كل من في هذه الدن يا من الناس ذلـيل
وأذل الناس من لـم يرضه منها القلـيل

وقال آخر:

كم كافرٍ بالـلـه أمـوالـه تزداد أضعافاً على كفره
ومؤمن ليس لـه درهـم يزداد إيماناً على فقـره
لا خير فيمن لم يكن عاقلاً يمد رجليه علـى قـدره

وقال منصور الفقيه:

منافسة الفتى فيما يزول على نقصان همته دليل
ومختار القليل أقل منه وكل فوائد الدنيا قلـيل

وله أيضاً:

إذا قال لي قائل كيف أنت أقول له: أنا في عافيه
لأشياء منها الرضى بالكفاف وما كل نفسٍ به راضيه

وقال أيضاً:

ألا إن رزق الله ليس يفوت فلا ترعن إن القليل يقوت
رضيت بقسم الله حظاً لأنه تكفل رزقي من له الملكوت
سأقنع بالمال القليل لأنني رأيت أخا المال الكثير يموت

وقال الحسين بن الضحاك:

يا روح من حسمت قناعته سبب المطامع من غدٍ وغد
من لم يكن لله متهماً لم يمس محتاجاً إلى أحد

ويروى لأبي العتاهية أو العطوي:

عندي من الناس أنباء وتجربة على اختلافهم في العقل والشيم
حسبي بظل جدارٍ من مهادهم ومن مياههم ما أستقي بفم
كم قد أهابت بي الدنيا فقلت لها: إليك عني ففي أذني كالصمم
إني قنعت بقوتٍ لا أجاوزه وصون وجهي عن لالا وعن نعم
ولست أذخر فضل القوت عن أحدٍ في كل يوم يجىء الله بالطعم

لعبد الله بن المبارك وقيل إنها لغيره:

ومن البلاء وللبلاء علامة ألا يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها والحر يشبع مرة ويجوع

وقال آخر:

إذا لم يهن عرضي على ولم يكن بوجهي من ذل السؤال كدوح
فقوت بلا ذمٍّ وبيت يكنني وطمران أغدو فيهما وأروح
هو العيش لا ظل انتظار لموعدٍ ولا مالك أمري على شحيح
ولي أمل في الناس ليس شقاوةً سوى دين سياح عليه مسوح

وقال آخر:

يا رب ساع له في سعيه أمل أودى ولم يقض من لذاته الوطرا

ما ذاق طعم الغني من لا قنوع له	ولا ترى قانعاً ما عشت مفتقـرا

وقال منصور الفقيه:

إذا شئت أن تحيا بلا عـائبٍ أصـلا	فكن راضياً بالقوت واجتنب الفضلا
وكاف ذوي الإجرام بالصفح عنهـم	وقل لهم إمـا لـقـيتـهـم أهـلا
ولا تلق خـلـقـاً سـائلا وزن ذرةٍ	ولو جاد بالدنـيا نـسـائلـه بـذلا
فما وضع المرء الحسيب ولا ارتقى	بأدنى الورى بيتاً إلى المنزل الأعلى
سوى صبر هذا عن سواه وحرص ذا	فبع بالغني فقراً وبالـعـزة الـذلا

وقال آخر:

ما سرني أن نفسي غير قـانـعةٍ	وأن أرزاق هذا الخلق تحت يدي

وقف أعرابي على الحسن، وهو يعظ جلساءه، فقال: يا أعرابي! ما أظنك تعلم شيئاً مما نحن فيه، فأنشأ يقول:

مهما جهلت فقد عـلـم	ت بأنني بشر أمـوت
والناس في طلب الغنى	وغناهم من ذاك قـوت
شادوا لغـيرهـم وبـا	دوا والقبور هي البيوت

وقال أبو العتاهية:

طال همي بغير ما يعنـينـي	واشتغالي بكل ما يلـهـينـي
ولو أني قنعت لم أبغ رزقـي	كان رزقي هو الذي يبغينـي
ولعمري إن الطريق إلى الحق	منير لناظر المـسـتـبـين
أحمد الله حمد عبـد شـكـور	ما عليها إلا ضعيف اليقـين

وقول أبي العتاهية: كان رزقي هو الذي يبغيني، مأخوذ - والله أعلم - من قول ابن أذينة:

أسعى له فيعنيني تطلبـه	ولو قعدت أتاني لا يعنيني

وقد ذكرت هذه الأبيات في باب الرزق.

قال العطوي:

إن القناعة من يحلل بساحتها	لم يلق في دهره هماً يؤرقه

قال الأضبط بن قريع:

اقنع من الدهر ما أتاك بـه	من قر عيناً بعيشه نفـعـه
قد يجمع المال غير آكـلـه	ويأكل المال غير من جمعه

قال سليمان بن داود عليه السلام: كل العيش قد جربناه، لينه وشديده، وبلوناه فوجدناه يكفي منه أدناه.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسمه، معه قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا".
قال منصور الفقيه:

إذا القوت تأتي لك ... والصحة والأمن
وعف الفم والفرج ... تقي لله والبطن
وأصبحت أخا حزنٍ ... فلا فارقك الحزن

وقال آخر:

إذا ما كساك الله سربال صحةٍ ... ولم تخل من قوتٍ يحل ويعذب
فلا تحسدن الكمثرين فإنهم ... على قدر ما يكسوهم الدهر يسلب

وقال هلال بن خثعم في أبيات له، ونسبت إلى بشار بن بشر المجاشعي:

إن قراب البطن يكفيك ملؤه ... ويكفيك سوءات الأمورٍ اجتنابها

قال يحيى بن خالد: دخلت على الرشيد يوماً فأصبته متكئاً يسطر في ورقةٍ فيها كتابة بالذهب، فلما رآني تبسم، فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين؟ قال: نعم، وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية، وقد أضفت إليهما ثالثاً، وأنشدني:

إذا سد باب عنك من دون حاجةٍ ... فدعه لأخرى ينفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ... ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها
ولا تك مبذالا لعرضك واجتنب ... ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

وعن أبي محمد اليزيدي، قال: دخلت على الرشيد.. فذكر مثله حرفاً بحرف.
روى أبو خليفة الفضل بن حباب، عن محمد بن سلام، قال: قال حماد الراوية: أفضل بيت روى من أشعار العرب، قول الحطيئة:

يقولون يستغني ووالله ما الغنى ... من المال إلا ما يكف وما يكفي

وقال محمود الوراق:

إن القناعة ما علمت غنىً ... والحرص يورث ذا الغنى فقرا

وقال منصور الفقيه:

إذا قنعت بقوتٍ ... ولبس ثوبٍ مرقع
ولم يكن لي عيال ... نفسي لهم تتفجع
ولا بنون صغار ... قلبي لهم يتقطع
ولا صديق مصافٍ ... فراقه أتوقع

وقد عزفت عن اللـه	و والغنى والتمتـع
وكان لله نـسـكـي	فما بي الدهر يصنع

وقال آخر:

قنع النفس بالكفـاف وإلا	طلبت منك فوق ما يكفيها

قال الأصمعي: أحكم بيتٍ قالته العرب، بيت أبي ذؤيب الهذلي:

والنفس راغبةً إذا رغبتها	وإذا ترد إلى قليلٍ تقنع

وقال محمد بن أبي حازم:

لعمرك للقليل أصون وجهـي	به في الأوحدين وفي الجميع
أحب إلى من طلبي كـثـيراً	تمد إليه أعناق الـخـضـوع
فعش بالقوت يوماً بـعـد يومٍ	كمص الطفل فيقات الضروع
ولا ترغب إلى أحدٍ بحـرصٍ	رفيعٍ في الأمور ولا وضيع

قال الخليل بن أحمد:

إن لم يكن لك لحم	كفاك خبز وزيت
أو لم يكن لك هذا	فكسرة ثم بـيت
تظل فيه وتـأوى	حتى يجيئك موت
هذا كفاف وأمـن	فلا تغرنك لـيت

وقال ابن بسام أو غيره:

رضيت بالقوت من زمانـي	وصنت عرضي عن الهوان
مخـافةً أن يقـول قـــومٍ	فضل فلانٍ علـى فـلان
من كنت عن مالـه غـنـياً	رأيته مـثـل مـا يرانـي
أزوره إن أراد وصـلـــي	وأقطع الوصل إن جفانـي
فاستغن باللـه عـن فـلانٍ	وعن فـلان وعـن فـلان

ولعبد الله بن المبارك:

أرى رجالاً بدون الذين قد قنـعـوا	ولا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالله عن دنيا الملوك كما اس	تغنى الملوك بدنياهم عـن الـدين

لعمر بن محمد بن عبد الملك الزيات:

شره النفوس على النفوس بلـية	فتعوذوا من كل نفسٍ تـشـره
ما من فتى شرهت له نفس وإن	نال الغنى إلا رأى مـا يكـره

وقال آخر:

إذا ما شئت أن تعـر	ف يوماً كذب الشهوه
فكل ما شئت يغنـيك	عن المرةِ والحلـوه

وطا ما شيت يغنـيك … عن الحسناء والذروه
فكم أسلاك ما تهـوا … ه فعل الشيء لم تهوه

وقال منصور الفقيه:

من كفاه من مساعي … ه رغيف يغـتـذيه
ولـه بـيت يواري … ه وثوب يكتـسـيه
فلماذا يبذل الـعـر … ض لنذلٍ أو سفـيه
كل مالٍ منعتـه ال … بر أيدي بـاذلـيه
فهو للوارث والوز … ر على مكتسبـيه

وقال محمود الوراق:

مروءة معسر عف قنـوعٍ … يقدر في معيشته ويمسـك
تزيد على مروءة كل مثـرٍ … يروح ويغتدى جم التملـك
وأكثر من سخاتك بالعطـايا … سخاء النفس عما ليس تملك

وقال سهل الوراق:

ترى المرء مشغوفاً بدنياه متعبا … وراحته لو صح فيها يقـينـه
صباحاً مساءً في طلاب وماله … من الرزق إلا ما الإله ضمينه

وقال كعب بن زهير:

إن يفن ما عندنا فالله يرزقنـا … ومن سوانا، فلسنا نحن نرتزق

وقد مضى في باب الرزق أشياء من معاني هذا الباب.

وقال محمود الوراق:

غنى النفس يغنيها إذا كنت قانعـاً … وليس بمغنيك الكثير من الحرص
وإن اعتقاد الهم للمـرء جـامـع … وقلة هم المرء يدعو إلى النغص

ولمحمود الوراق أيضاً:

من كان ذا مالٍ كـثـير ولـم … يقنع فذاك الموسر المعسـر
وكل من كان قـنـوعـاً وإن … كان مقلا فهو الـمـكـثـر
الفقر في النفس وفيها الغنـى … وفي غنى النفس الغنى الأكبر

وقال منصور الفقيه:

ليس هذا زمان قولك ما الحك … م على من يقول: أنت حرام؟
والحقى بائناً بأهـلـك أو أن … ت عتيق محـرر يا غـلام

ومتى تنكح المصانة في العـد	ةٍ عن شبهةٍ، وكيف الكلام؟
في حرامٍ أصاب سن غـزالٍ	فتولى ولـلـغـزال بـغـام
إنما ذا زمان كدًّ إلى الـمـو	ت، وقوتٍ مبلغٍ والـسـلام

لأبي العتاهية رحمه الله:

أتدري أي ذل فـي الـسـؤال	وفي بذل الوجوه إلى الرجـال
يعز على التنزه مـن بـغـاه	ويستغنى العفيف بغـير مـال
إذا كان النوال ببذل وجـهـي	فلا قربت من ذاك الـنـوال
معاذ الله مـن خـلـق دنـئً	يكون الفضل فيه على لالـي
توق يداً تكون عليك فـضـلا	فصانعها إليك عـلـيك غـال
يد تعلو يداً بجـمـيل فـعـلٍ	كما علت اليمين على الشمـال
وجوه العيش في سعةٍ وضـيقٍ	وحسبك والتوسع في الحـلال
أتنكر أن تكـون أخـا نـعـيمٍ	وأنت تصيف في الظل الظلال
وأنت تصيب قوتك في عفـافٍ	ورياً إن ظمئت مـن الـزلال
متى تمسى وتصبح مستريحـاً	وأنت الدهر لا ترضى بحـال
تكابد جمع شيءٍ بعـد شـيءٍ	وتبغي أن تكون رخـي بـال
وقد يجري قليل المال مجـرى	كثير المال في سد الـخـلال
إذا كان القليل بسـد فـقـرى	ولم أجد الكثير فـلا أبـالـي
هي الدنيا رأيت الحب فـيهـا	عواقبه التفرق عـن تـقـال
تسر إذا نظـرت إلـى هـلالٍ	ونقصك إن نظرت إلى الهلال
تعالى الله يا سلم بن عـمـروٍ	أذل الحرص أعناق الرجـال
هب الدنيا تساق إليك عـفـواً	أليس مصير ذاك إلـى زوال
فما ترجو بشيءٍ ليس يبـقـى	وشيكاً ما تفرقـه الـلـيالـي

فلما اتصل بسلم الخاسر، وهو سلم بن عمرو، قول أبي العتاهية، كتبت إليه:

ما قبح التزهيد من واعظٍ	يزهد الناس ولا يزهـد

لو كان في تزهيده صادقـاً	أضحى وأمسى بيته المسجد
إن رفض الدنيا فما بـالـه	يستكثر المال ويسـتـرفـد
يخاف أن تنـفـد أرزاقـه	والرزق عند الله لا ينـفـد
الرزق مقسوم على من ترى	يسعى له الأبيض والأسـود

وقد قيل: إن الأبيات التي فيها ذكر سلم بن عمرو، ليست في الشعر المذكور، وإنما هي في قول أبي العتاهية:

نعى نفسي إلى من الليالـي	تصرفهن حالاً بعـد حـال
فما لي لست مشغولا بنفسي	ومالي لا أخاف الموت مالي
لقد أيقنت أنـي غـير بـاقٍ	ولكني أرانـي لا أبـالـي
تعالى الله يا سلم بن عمـروٍ	أذل الحرص أعناق الرجال

باب من المواعظ الموجزة

قال ر سول الله صلى الله عليه وسلم: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من ائتمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب".

قال عليه السلام لعبد الله بن مسعود: "يا عبد الله! لا تكثر همك ما يقدر يكن، وما ترزق يأتك".

قال عليه السلام لعبد الله بن عمر يعظه: "يا عبد الله! اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك". أخذه محمود الوراق، والله أعلم، فقال:

بادر شبابـك أن تـهـرمـا	وصحة جسمك أن تسقـمـا
وأيام عيشك قبل الـمـمـات	فما قصر من عاش أن يسلما
ووقت فراغـك بـادر بـه	ليالي شغلك في بعض مـا
فقدر فـكـل امـرئٍ قـادم	على علم ما كان قد قـدمـا

سئل علي عليه السلام: من الزاهد في الدنيا؟ قال: من لم ينس المقابر والبلى وترك فضل زينة الدنيا، وآثر ما يبقى على ما يفنى، وعد نفسه في الموتى.

قال عليه السلام: "ما ينتظر أحدكم إلا غنى مطغياً، أو فقراً منسياً، أو مرضاً مفسدا، أو هرماً مقيداً، أو موتاً مجهزاً، والدجال شر غائب، تنتظره الساعة، والساعة أدهى وأمر".

قال ر سول الله صلى الله عليه وسلم: "لم أر كالنار نام هاربها، ولم أر كالجنة نام طالبها".

قال جعفر بن محمد: الناقص من الناس من لا ينتفع من المواعظ إلا بما آلمه أو لزمه.

كان يقال: اجعل عمرك كنفقةٍ رفعت إليك، فأنت لا تحب أن يذهب ما ينفق منها ضياعا، فلا يذهب عمرك ضياعاً.

قال أبو عمرو بن العلاء: أول شعر قيل في ذم الدنيا، قول يزيد بن خذاق العبدي:

هل للفتى من بنات الدهر من راق	أم هل له من حسام الموت من واق

قد رجلوني وما بالشعر من شعث وألبسوني ثياباً غير أخلاق
ورفعوني وقالوا أيما رجلٍ وأدرجوني كأني طي مخراق
وأرسلوا فتيةً من خيرهم حسباً ليسندوا في ضريح القبر أطباقي
وقسموا المال وارفضت عوائدهم وقال قائلهم مات ابن خذاق
هون عليك ولا تولع بإشفاق فإنما مالنا للوارث الباقي

قال ابن عباس: ما انتفعت بشيءٍ بعد وعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم منفعتي بشيءٍ كتب به إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه: أما بعد، فإن المرء يسره درك ما لم يدركه، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك، وليكن أسفك على ما فات منها، وليكن همك لما بعد الموت.
قال أبو سليمان الداراني: رأيت على باب دمشق:

وكم من فتىً يمسي ويصبح لاهياً وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

قال أعرابي لابنه: يا بني! من خاف الموت بادر الفوت، ومن لم يصبر على الشهوات، أسرعت به إلى الهلكات.
ووعظ أعرابي أخاه فقال: يا أخي! أنت طالب ومطلوب، يطلبك من لا تفوته، وتطلب ما قد كفيته، فكأن ما قد غاب عنك قد كشف لك، وما أنت فيه قد نقلت عنه، يا أخي! كأنك لم تر حريصاً محروماً، ولا زاهداً مرزوقاً.
كتب علي بن الحسين إلى عبد الملك بن مروان: أما بعد، فإنك أعز ما تكون بالله، أحوج ما تكون إليه، فإذا عززت به فاعف له، فإنك به تقدر، وإليه ترجع والسلام.
وفي الحديث المرفوع: "عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه".
كتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء: أما بعد، فإنك لا تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تبلغ ما تأمل، إلا بالصبر على ما تكره، فليكن قولك ذكراً، وصمتك فكراً، ونظرك عبرة، واعلم أن أعجز الناس من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله، وأن أكيسهم من أتعب نفسه وعمل لما بعد الموت.
قال الحسن البصري: يا معشر الشيوخ! الزرع إذا بلغ ما يصنع به؟ قالوا: يحصد. قال: يا معشر الشباب! كم زرع لم يبلغ قد أدركته آفة.
قال مسلم بن الوليد:

كم رأينا من أناسٍ هلكوا فبكى أحبابهم ثم بكوا
تركوا الدنيا لمن بعدهم ودهم لو قدموا ما تركوا
كم رأينا من ملوكٍ سوقةٍ ورأينا سوقةً قد ملكوا

وقال آخر:

رب قومٍ غبروا من عيشهم في نعيمٍ وسرورٍ وغـدق
سكت الدهر زمانا عنهـم ثم أبكاهمْ دماً حين نطـق

وقال آخر:

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرجال فلم تمنعهم القلل

وقال محمود الوراق:

أبقيت مالـك مـيراثاً لـوارثـه فليت شعري ما أبقى لك المـال؟
القوم بعدك في حال تـسـرهـم فكيف بعدهم دارت بك الـحـال
ملوا البكاء فما يبكـيك مـن أحـدٍ واستحكم القيل في الميراث والقال
مالت بهم عنك دنيا أقبلـت لـهـم وأدبرت عـنـك والأيام أحـوال

وقال تميم بن مقبل:

ما أنعم العيش لو أن الفتى حجر تنبو الحوادث عنه وهو ملموم
وكل حصن وإن طالت سلامته على دعائمه لابـد مـهـدوم
ومن تعرض للغربان يزجرهـا على سلامته لابـد مـشـئوم

وقال كعب بن زهير:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلةٍ حدباء محمـول

كان عمر بن عبد العزيز يتمثل:

من كـان حـين تـصـيب الـشـمـس جـبـهـتــه أو الـغـبـار يخـاف الـشـين والـشـعـــثـــا
ويألـف الـظـل كـي تـبـقـى بـشـاشـــتـــه فسـوف يسـكـن يومـاً راغـمـــاً جـــدثـــا
في قعرٍ مظلمةٍ غبراء موحشةٍيطيل فيها ولا يختارها اللبثا
تجهزي بجهازٍ تبلغين به يا نـفـس واقـتـصـدي لـم تـخـلـقـي عـبـثـــا

وكان يتمثل أيضاً - رحمه الله -:

أيقظان أنت اليوم أم أنت نـائم وكيف يطيق النوم حيران هائم

فلو كنت يقظان الغداة لحرقت مدامع عينيك الدموع السواجم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة ونومك ليل والردى لـك لازم
يغرك ما يفني وتشغل بالمنـى كما غر باللذات في النوم حالم
وتشغل فيما سوف تكره غبـه كذلك في الدنيا تعيش البهـائم

وقال محمود الوراق:

أيها الـشـيـخ الـمـعـلـ ل نفسه والشيب شامـل
والليل يطـوي لا يفـتـر والنهار بك الـمـنـازل
اعـلـم بـأنـك نـــائم فوق الفراش وأنت راحل
يتعاقـبـان بـك الـردى لا يغفلان وأنت غـافـل

وقال ابن الكلبي، عن أبيه: خرج النعمان بن المنذر إلى الصيد، ومعه عدي بن زيد، فمر بشجرة، فقال له: أتدري ما تقول هذه الشجرة؟ قال: لا. قال: تقول:

رب ركبٍ قد أناخوا عندنـا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالاً بعد حال

قال: ثم مر بمقبرة، فقال له عدي: أتدري أيها الملك ما تقول هذه المقبرة؟ قال: لا. قال: تقول:

أيها الركب المخبـون على الأرض المجدون
كمـا أنـتـم كـنـــا كما نحن تـكـونـون

فقال النعمان: قد علمت أن الشجرة والمقبرة لم يتكلما، وإنما أردت موعظتي، فما السبيل الذي تدرك به النجاة؟ قال: تدع عبادة الأوثان، وتعبد الله، وتدين بدين المسيح. قال: فتنصر يومئذ.

ولعدي بن زيد:

كفى واعظاً للمرء أيام دهره تروج له بالواعظات وتغتدي

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم المدني: عظني. فقال: عظم ربك أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

ومن مواعظ بعض العرب: كل من ازداد نقص، وكل من أقام ظعن وشخص، ولو كان يميت الناس الداء أعاشهم الدواء.

وأنشد أبو العباس المبرد:

تصرفت طورا كي أرى كل عبرةٍ وكان الصبا مني جديداً فأخلـقـا
فما ازداد شيء قط إلا لنقـصـه وما اجتمع الإلفان إلا تـفـرقـا

وقال محمود الوراق:

أراني في انتقـاصٍ كـل يومٍ ولا يبقى مع النقصان شـيء
طوى العصران ما نشراه مني فأخلق جدتي نشـر وطـي

فإن أك قد فنيت ومات بعضي	فإن الحرص باقٍ في حـي
عصيت الرشد إذ أدعى إلـيه	وملك طاعتي ضعف وعـي

وقال عمرو بن هند:

نعلل والأيام تنـقـص عـمـرنـا	كما تنقص النيران من طرف الوقد

وقال محمود الوراق:

إن عيشاً إلى الممات مصيره	لحقـيق ألا يدوم سـروره
وسرور يكون آخره الـمـو	ت سواء قليلـه وكـثـيره

ويروي: طويلة وقصيرة.

كان يزيد الرقاشي يتمثل كثيراً بهذا البيت:

إنا لنفرح بالأيام نقـطـعـهـا	وكل يوم مضى يدني من الأجل

روى من حديث مالك، عن أبي الزناد، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه، قال: ما من أهل بيت إلا وملك الموت يأتيهم، فمن وجده قد انقضى أجله قبض روحه، فإذا بكى أهله قال: لم تبكون، ولم تجزعون؟ والله ما نقصت لكم عمرا، ولا حبست عنكم رزقاً، ومالي ذنب، وإن لي فيكم لعودة ثم عودة وعودة حتى لا يبقى منكم أحد.

قال أبو الدرداء في خطبة خطبها بدمشق: مالي أراكم تجمعون مالا تأكلون، وتبنون مالا تسكنون، وتأملون مالا تدركون، إن من كان قبلكم جمعوا كثيراً وبنوا شديداً وأملوا بعيداً، فأصبح جميعهم بوراً ومنازلهم قبوراً، وأملهم غروراً، هذه منازل عاد وثمود بين قطري الأرض ما يسرني أنها لي بدرهمين.

وجد مكتوباً في حجر: ابن آدم! لو رأيت يسير ما بقى من أجلك؛ لزهدت في طول ما ترجوه من أملك، وإنما يلقاك ندمك، لو قد زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، وانصرف عنك القريب وودعك الحبيب، ثم صرت تدعى فلا تجيب، فلا أنت في عملك بزائد، ولا إلى أهلك بعائد؛ فاعمل لنفسك قبل يوم القيامة، وقبل الحسرة والندامة.

قال محمود الوراق:

يا ناظراً يرنـو بعـينـي رافـد	ومشاهداً للأمر غير مشـاهـد
منتك نفسك ضلة فأجـبـتـهـا	طرق السفاهة فعل غير الراشد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى	فوز الجنان ونيل أجر العـابـد
ونسيت أن الـلـه أخـرج آدمـا	منها إلى الدنيا بـذنـبٍ واحـد

وجد حجر في بئر باليمامة، وهي بئر طسم وجديس، في قرية يقال لها معتق مكتوب فيه:

يا أيها الناس سيروا إن قصركم	أن تصبحوا ذات يومٍ لا تسيرونا
حثوا المطى وأرخوا في أزمتها	قبل الممات وقضوا ما تقضونا
كنا أناساً كما كنتـم فـغـيرنـا	دهر، فأنتم كما كنا تكونـونـا

قال عبد الله بن ثعلبة: أمسك مذموم منك، ويومك غير محمودٍ لك، وغدك غير مأمون عليك.
ومما أنشده ابن أبي الدنيا - رحمه الله -:

قل للمؤمل إن الموت في أثرك ... وليس يخفي عليك الموت في نظرك
فيمن مضى لك إن فكرت معتبر ... ومن يمت كل يوم فهو من نذرك
دار تسافر منها في غدٍ سفراً ... ولا تؤوب إذا سافرت من سفرك
تضحى غدا سمراً للذاكرين كما ... كان الذين مضوا بالأمس من سمرك

قال علي بن أبي طالب: يا ابن آدم! لا تحمل هم يومك الذي لم يأت على يومك الذي قد أنى، فإنه إن يكن من أجلك أتى الله فيه برزقك، واعلم أنك إن تكسب شيئاً فوق قوتك إلا كنت خازناً لغيرك.
قال بعض الحكماء: الأيام ثلاثة، فأمس صديق مؤدب، أبقى لك عظةً وترك فيك عبرة، واليوم صديق مودع، أتاك ولم تأته، كان عنك طويل الغيبة، وهو عنك سريع الظعن، فخذ لنفسك فيه، وغد لا تدري ما يحدث الله فيه، أمن أهله أنت أم لا.
لأسقف نجران، ويروى لتبع الحميري:

منع البقاء تصرف الشمس ... وطلوعها من حيث لا تمسى
وطلوعها بيضاء صافيةً ... وغروبها صفراء كالورس
اليوم تعلم ما يجئ به ... ومضى بفصل قضائه أمس

وقال أبو العتاهية:

الشمس تنعي ساكن الدنيا ... ويسعدها القمر
أين الذين عهدتهم ... لهم المهابة والأثر
أودوا وصار عليهم ... ركم الجنادل والمدر
أفناهم غلس العشا ... ء وهز أجنحة السحر
ما للقلوب رقيقةً ... وكأن قلبك من حجر
ولقلما تبقى وعو ... دك كل يومٍ يعتصر

وقال أبو العتاهية:

سبحان ذي الملكوت أية ليلةٍ ... مخضت صبيحتها بيوم الموقف
لو أن عيناً أوهمتها نفسها ... يوم الحساب تمثلاً لم تطرف

وقال أبو العتاهية أيضاً:

أيا عجباً كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
والله في كل تحريكةٍ ... وفي كل تسكينةٍ شاهد
وفي كل شيءٍ له آية ... تدل على أنه الواحد

وقال آخر:

ومنتظرٍ للموت في كل ساعةٍ	يشيد ويبني دائباً ويحـصـن
له حين تبلوه حقيقة مـوقـنٍ	وأفعاله أفعال من ليس يوقن
عيان كإنكارٍ وكالجهلٍ علمه	لمذهبه في كل ما يتـيقـن

وقال العطوي:

نحن أهل اليقين بالموت والبع	ث وعرض الأقوال والأعمال
ثم لا نرعوي وقد أمهل الـلـ	ه بطول الإيقاظ والإمـهـال
أي شيءٍ تركـت يا عـارفـاً	بالله للممترين والـجـهـال

مكتوب في التوراة: البر لا يبلي، والذنب لا ينسى، والمال يفنى، والخير يبقى، والديان حي لا يموت، فكن كما شئت، كما تدين تدان.

وجد حجر مكتوب فيه: ما أكلنا نلنا، وما قدمنا وجدنا، وما تركنا ندمنا.

وخير من هذا قول ر سول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس للإنسان من ماله إلا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وغير ذلك فإلى وارثه".

ولأعرابي من بني أسد:

يقولون ثمر ما استطعت وإنما	لوارثه ما ثمر المال كاسبـه
فكله وأطعمه وجنبه وارثـا	شحيحا ودهراً تعتريك نوائبه

وقال آخر:

وللمنايا تربى كل مرضـعةٍ	وللخراب يجد الناس عمرانا

وقال آخر:

فإن يكن الموت أفناهم	فللموت ما تلد الوالده

وقال أبو العتاهية:

لدوا للموت وابنوا للـخـراب	فكلكم يصير إلـى تـبـاب
لمن نبني ونحن إلـى تـرابٍ	نصير كما خلقنا للـتـراب
ألا يا موت لم تقـبـل فـداءً	أتيت فما تحيف ولا تحابـي
كأنك قد هجمت على مشيبي	كما هجم المشيب على شبابي

وقال آخر:

كم من مصيخٍ إلى أوتار مسمعةٍ	ناحت عليه وقد كانت تغـنـيه

وقال منصور الفقيه:

تراوح ما ليس يرضى الإله	وتغدو عليه وتخشى البـلاء
كفعل النساء إذا مـا أسـأن	فعاتبتهن أطلن الـبـكـاء
ولو كنت داويت قرح الذنوب	بترك الذنوب جمعت الدواء

وقال عروة بن أذينة:

نراع إذا الجنائز قابلتنـا	ويحزننا بكاء الباكـيات

كروعة ثلةٍ لمغار سبعٍ فلما غاب عادت راتعات

وقال أبو العتاهية:

إذا ما رأيتم ميتين جـزعـتـم وإن لم تروا ملتم إلى صبواتها

قال علي بن أبي طالب: لا وجع إلا وجع القلوب من الذنوب، ولا شيء أشد من الموت، وكفى بما سلف تفكرا، وكفى بالموت واعظاً.

قال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانهـا

وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانـهـا

وهل بدل الدين غير الملوك وأحبار سوءٍ ورهبانـهـا

قال أبو العتاهية:

مالي أراك بغير نفسك لا أبالك تشتغل

خذ للوفاة من الحيا ة بـحـظـهـا قـبـل الأجـــل

واعـلــم بـــأن الـــمـــوت ليس بـغـافـلٍ عـمـن غـفـــلْ

أين الـمـرازبة الـــجـــحـــا جحة الـــبـــطـــارقة الأول

وذوو التفاضل في المجا لس والترفل في الحلل

قال عمر بن عبيد للمنصور: إن الله قد وهب لك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها.

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز: خف ما خوفك الله يكفك ما خوفك الناس، وخذ مما في يديك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين.

قال الحسن بن أبي الحسن، وقد نظر إلى الناس يلعبون ويضحكون في يوم العيد: إن الله قد جعل شهر رمضان مضمار الخلق، يستبقون فيه لطاعته إلى مرضاته، فالعجب من الضاحك واللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون، ويخسر فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه، ومسيء بإساءته عن تجديد ثوب أو ترجيل شعر.

وقال منصور الفقيه:

أتلهو وقد ذهب الأطـيبـان وأنذرك الشيب قرب الأجل

كأنك لم تـر حـياً يمـوت ولم تر ميتاً على مغتسـل

كان بعض الحكماء يقول: لئن كانت الحظوظ بالجدود فما الحرص، وإن كانت الأيام ليست بدائمةٍ فما السرور، وإن كانت الدنيا غرارة فما الطمأنينة.

قال أحمد بن زهير: سمعت مصعب بن عبد الله الزبيري يقول: أبو العتاهية أشعر الناس، فقلت: بأي شيءٍ استحق ذلك عندك؟ فقال: بقوله:

تعلـقـت بـآمـالٍ طوالٍ أي آمــال

وأقبلت على الدنـيا ملحـاً أي إقـبـال
أيا هذا تجـهـز ل فراق الأهل والمال
فلابد من الـمـوت على حالٍ من الحال

ثم قال مصعب: هذا كلام حق لا حشو فيه ولا نقصان، يعرفه العاقل، ويقر به الجاهل.
قال عمر بن عبد العزيز: خلقنا لأمر إن كنا نؤمن به إنا لحمقى، وإن كنا تكفر به إنا لهلكي.
قال أبو العتاهية:

أتطمع أن تخلد لا أبا لـك أمنت قوى المنية أن تنالك
أما والله إن لهـا رسـولا أقسم لو أتاك لما أقالـك
توقع حيث كنت نزول يومٍ يشتت بعد جمعهم عيالـك
كأني بالتراب عليك يحثي وبالباكين يقتسمون مالـك
ولست بحاملٍ منه نقـيراً ولا متزوداً إلا فعـالـك

قال داود الطائي: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد، ومن طال أمله قصر عمله.
وقال سابق البربري:

أين الملوك التي عن خطبها غفلت حتى سقاها بكاس الموت ساقيها
نرجو ونأمل أيامـاً تـعـد لـنـا سريعو المر تطوينا ونطـويهـا
أموالنا لذوي الميراث نجمعـهـا ودارنا لخراب الدهر نبـنـيهـا

قال ميمون بن مهران: دخلت على عمر بن عبد العزيز يوماً، وعنده سابق البربري ينشده شعراً، فكان مما حفظت منه:

فكم من صحيحٍ بات للموت آمنـاً أتته المنايا بغتةً بعد ما هـجـع
فلم يستطع إذ جاءه الموت بغـتةً فراراً ولا منه بحيلةٍ امـتـنـع
ولا يترك الموت الغنى لمـالـه ولا معدماً في المال ذا حاجةٍ يدع

وقال مصبح الأسدي:

كفى خيبةً بالمـرء يا أم مـالـكٍ ركوب المعاصي عامداً واحتقارها

وقال محمود الوراق:

دب في السقام سفلا وعلـوا وأراني أموت عضواً فعضوا
لهف نفسي علـى لـيال وأيا مٍ تمليتهن لعـبـاً ولـهـوا
بليت جدتي بطاعة نفـسـي وتذكرت طاعة الله نـضـوا

ويروى لمنصور الفقيه:

إذا لم يكن لك في المحكمـات وفي الموت ناه عن المنكرات

فلا تـغـدون إلـى واعـظٍ فلست بمنتفع بالـعـظـات

وقال أيضاً:

من لم تعظه المنايا ولم يعظه الكتاب

فليس ينجع فـيه فلا تعن عتـاب

الحسن بن هانئ، ويروى لأبي العتاهية:

وعظتك أجداث صمت ونعتك أزمنة خفـت

وأرتك قبرك في القبو ر وأنت حي لم تمت

وتكلمت عـن أوجـهٍ تبلي وعن صورٍ شتت

وقال محمود الوراق:

حياتك أنفـاس تـعـد وكـلـمـا مضى نفس منها انتقصت به جزءا

فتصبح في نقصٍ وتمسى بمثـلـه وما لك معقول تحـس بـه رزءا

يميتك ما يحييك في كل سـاعةٍ ويحدوك حادٍ ما يريد بك الهزءا

وقال منصور الفقيه:

يا رسوم الجدث المـه جور قولي لابن سعد

لو رأت عيناك عينـي كيف سالت فوق خدي

بعد دفنـي بـثـلاثٍ ما هناك العيش بعدي

وقال آخر:

من كان لا يطأ التراب بنعلـه وطئ التراب بصفحة الخـد

من كان بينك في التراب وبينه شبران فهو بغاية الـبـعـد

لو كشفت للناس أغطية الثرى لم يعرف المولى من العبـد

خرج النعمان بن المنذر يتنزه بظاهر الحيرة ومعه عدي بن زيد العبادي، فمرا على المقابر فقال له عدي: أبيت اللعن! أتدري ما تقول هذه المقابر؟ قال: لا. قال: فإنها تقول:

من رآنا فليحـدث نـفـسـه أنه موفٍ على قرن الـزوال

وصروف الدهر لا تبقى لهـا ولما تأتي به صم الـجـبـال

رب ركبٍ قد أناخوا عـنـدنـا يشربون الخمر بالماء الزلال

والأبـاريق عـلـيهـا فـدم وجياد الخيل تردي في الجلال

عمروا الدهر بعيشٍ حـسـنٍ آمني دهرهم غيرِ عـجـال

ثم أضحوا عصف الدهر بهـم وكذاك الدهر حالاً بعد حـال

كان عمر بن الخطاب يتمثل:

لا شيء مما ترى تبقى يبقى الإله ويودي المال

بشاشتـه	والولد
لم تغن عن هرمزٍ يوماً خزائنه	والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياح له	والإنس والجن فيما بينها تـرد
أين الملوك التي كانت لعزتهـا	من كل أوبٍ إليها وافـد يفـد
حوض هنالك مورود بلا كـذبٍ	لابد من ورده يوماً كما وردوا

وقال آخر:

وإذا مضت للمرء من أعوامـه	خمسون وهو إلى التقى لم يجنح
عقدت عليه النابحات وقلن قـد	أرضيتنا فأقم كـذا لا تـبـرح
وإذا رأى الشيطان غرة وجهـه	حياً، وقال: فديت من لم يفلـح

نظر مالك من ملوك الفرس يوماً إلى ملكه فأعجبه، فقال: إن هذا لهو الملك لو لم يكن بعده هلك، وإنه لسرور لولا أنه غرور، وإنه ليوم، لو كان يوثق له بغد.

قال مالك بن أنس: سكن القبور رجل مجاوراً لها ملازماً، فعوتب في ذلك، فقال: إنهم جيران صدق لا يؤذونني، ولي فيهم عبرة.

قال ابن المعتز:

وجيران صـدق لا تـزاور بـينـهـم	على قرب بعض في التجاور من بعض
كأن خواتيماً مـن الـطـين فـوقـهـم	فليس لها حتى الـقـيامة مـن فـض

وقال الخليل بن أحمد:

كن كيف شئت فقصرك الموت	لا مزحل عـنـه ولا فـوت
بينا غنى بـيتٍ وبـهـجـتـه	زال الغنى وتقوض الـبـيت

وقال آخر:

اسمع فقد أسمعك الصـوت	إن لم تبادر فهو الـفـوت
كل كل ما شئت وعش ناعماً	آخر هذا كلـه الـمـوت

وقال آخر:

إذا ما وعظت الجاهلين بحكـمةٍ	فلم يعرفوها أنزلوها على هجر
فعظ كل ذي عقلٍ على قدر	ولا تعظ الحمقى على ذلك

عقله القدر

باب العمل

قال ر سول الله صلى الله عليه وسلم: "اعملوا، وخير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن".

وقال عليه السلام: "لا تعمل شيئاً رياءً ولا تتركه حياء".

قال أبو ذر: قلت يا رسول الله! الرجل يعمل العمل لنفسه ويحبه الناس عليه؟ قال: "ذلك عاجل بشري المؤمن".

قال أبو الدرداء: اعملوا ما شئتم أن تعملوا، فإنه لن يأجركم الله حتى تعملوا.

قال القاسم بن محمد: أدركت الناس وما يعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل.

قيل لمحمد بن المنكدر: أي الأعمال أفضل؟ قال: إدخال السرور على المؤمن.

قال بعض العلماء: أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس، ويشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم: "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء عند المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط".

لما قدم عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون من العراق، وسئل عن أهلها، قال:

بها ما شئت من رجلٍ نبيلٍ ولكن الوفاء بها قـلـيل

يقول فلا ترى إلا جمـيلا ولكن ليس يفعل ما يقول

وقال دعبل:

ولي صاحب أسترزق الله قوته خفيف عليه قول ما ليس يفعل

قيل لسفيان الثوري: ما العمل الصالح؟ قال: مالا تحب أن يحمدك عليه أحد.

قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس. قال: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس".

قال المأمون: نحن إلى أن نوعظ بالأعمال، أحوج منا إلى أن نوعظ بالأقوال.

كان أبو معاوية الأسود يقول: الله أكرم من أن ينعم بنعمةٍ إلا يتمها، ويستعمل بعمل إلا يقبله.

قال بعض الحكماء: لو ثقل الكلام على الواعظين كما ثقل على العاملين، قل كلامهم.

قال ابن السماك: قليل من توفيق، أحب إلى من كثير من عمل.

كان يقال: العمل قرين لا يستطاع فراقه، فمن استطاع أن يكون قرينه صالحا فليعمل، فإنه لا يصحبه في آخرته غير عمله.

قال الشاعر:

المـوت داء لا دواء لـه إلا التقى والعمل الصالح

رأى أعرابي جنازة حمزة الزيات وقد حشد لها الناس، فقال: ما رأيت أرفع لخساسة من عمل صالح.

قال عمرو بن العاص: اعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً.

كان يقال: اعمل وأنت مشفق، ودع العمل وأنت تحبه.

قيل لرابعة القيسية: هل عملت عملاً ترين أنه يقبل منك؟ قالت: إن كان فمخافة أن يرد علي.

قال أبو بكر المزني: رحم الله من كان قوياً فأعمل قوته في طاعة، أو كان ضعيفاً فكف عن معصية الله.
كان أبو حنيفة رحمة الله يتمثل:

كفى حزناً ألا حـياة هـنـيةً	ولا عمل يرضى به الله صالح

وقال آخر:

يا أيها الناس كان لي أمل	أعجلني من بلوغه الأجل
فليتق الـلـه ربـه رجـل	أمكنه في حياته العمـل

وقال محمود الوراق:

لقد رأيت الصغير من عمل الخي	ر ثواباً عجبت من كبـره حـذ
وقد رأيت الحقير من عمل الشر	جزاء أشفـقـت مـن خـدره

وقال أيضاً:

قطع الدهر بأسباب الـعـلـل	وأعار الـسـهـو أيام الأجـل
ألف اللذة حـتـى اعـتـادهـا	واشتهى الراحة واستوطا الكسل
فهو الـدهـر يقـضـي أمـلاً	ولعل الموت في طـى الأمـل
يحسـن الـقـول إذ قـال ولا	يتحرى حسناً فـيمـا فـعـل
صير القول بجـهـلٍ عـمـلاً	ثم أجراه على مجرى العمـل
ليتـه كـان كـمـا قـال ولا	يقـطـع الأيام إلا بـالـجـدل

باب مختصر من التعازي في المصائب والصبر على النوائب

روى عن النبي عليه السلام، من حديث ابن عمر، أنه قال: "من كنوز البر كتمان المصائب".
قال ر سول الله صلى الله عليه وسلم: "ليعز المسلمين في مصائبهم المصيبة بي".
وفي حديث آخر: "من عظمت مصيبته فليذكر مصيبتي، فإنها ستهون عليه مصيبته".
كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه إذا عزى قوماً، قال: ليس مع العزاء مصيبة، وليس مع الجزع فائدة، والموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده، اذكروا فقد ر سول الله صلى الله عليه وسلم تسهل عليكم مصيبتكم.
قال أبو العتاهية:

اصبر لكل مصـيبةٍ وتـجـلـد	واعلم بأن المرء غير مخـلـد
أو ما ترى أن المصـائب جـمة	وترى المنية للعباد بمـرصـد
من لم يصب ممن ترى بمصيبةٍ?	هذا قبيل لست فـيه بـأوحـد
وإذا أتتك مصيبة تشجـي بـهـا	فاذكر مصابك بالنبي محـمـد

وقال منصور الفقيه:

ألا أيها النفس السئوم تـنـبـهـي	وألقى إلى السمع إلقاء حـازمـه
ضلال لأذهـان وظـن مـكـذب	رجاؤك أن تبقى على الدهر سالمه
وقد غص بالكأس الكريهة أحـمـد	ومات فمات الحق إلا معالـمـه
عليه سلام الله ما فصـل الـنـدى	وصدق ذو الشح المطاع لوائمـه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تنزل المعونة على قدر المئونة، وينزل الصبر على قدر المصيبة".
وقال عليه السلام: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى".
وقال عليه السلام: "ثلاث من رزقهن فقد رزق خير الدنيا والآخرة؛ الدعاء في الرخاء، والرضا بالقضاء، والصبر عند البلاء".
قال علي رضى الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له.
قال محمد بن علي بن الحسين: الصبر صبران؛ فصبر عند المصيبة حسن جميل، والصبر عما حرم الله أفضل.
مات ابن لداود عليه السلام، فجزع عليه جزعاً شديداً، فأوحى الله إليه: أتفرح إذ جعلته فتنة، وتجزع إذ جعلته صلاة ورحمة.
مات ابن لخالد بن عبد الله القسري، فقامت الخطباء تعزيه فأطنبت، فقام دهقان فقال: أيها الأمير! إن رأيت أن تقدم ما أخرت من الصبر، وتؤخر ما قدمت من الجزع فافعل. فلم يحفظ إلا كلامه.
مات ابن لعمر بن عبد العزيز، فكتب إليه بعض إخوانه يعزيه عنه، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإن هذا أمر كنا نعرفه، فلما وقع لم ننكره، والسلام.
عزى ابن عباس عمر عن ابن له، فقال له: عوضك الله منه ما عوضه منك.
عزى عبد الله بن عباس عبد الله بن جعفر، فقال: لا أعدمك الله الأجر على الرزية، ولا الخلف من الفقيد، وثقل به ميزانك.
قال العتبي:

كل حزن يبلي على قدم الـدهـر	وحـزنـي يجـــده الأبـــد
فجعت باثنين لـيس بـينـهـمـا	إلا لـيالٍ لـيسـت لـهـا عـدد
ما عالج الحزن والحرارة في الأح	شاء مـن لـم يمـت لـه ولـد

قال سهم بن عبد الحميد: شهدت يونس بن عبيد وقد عزاه عمرو بن عبيد على ابن له هلك، فقال: إن أباك كان أصلك، وإن ابنك كان فرعك، وإن امرءاً ذهب أصله وفرعه لحرى أن يقل بقاؤه.

قال عمر بن عبد العزيز: ما أحسن تعزية أهل اليمن، فكانت تعزيتهم: لا يحزنكم الله ولا يفتنكم، وأثابكم ما أثاب المتقين، وأوجب لكم الصلاة والرحمة.
عزت امرأة المنصور عن أخيه أبي العباس، فقالت: أعظم الله أجرك، فلا مصيبة أعظم من مصيبتك، وبارك الله لك فيما أتاك، فلا عوض أحسن من خلافتك.
كتب بعض العلماء إلى المنصور يعزيه: أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإن أحق الناس بالرضا والتسليم لأمر الله من كان إماماً بعد الله، ولم يكن له إمام إلا الله.
عزى الزبير عبد الرحمن بن عوف عن بعض نسائه فقام على قبرها، فقال: لا اصفر الله ربعك، ولا أوحش بيتك، ولا أضاع أجرك، رحم الله متوفاك، وأحسن الخلافة عليك.
مات لرجل بنون فترك كلام الناس حيناً ثم انبسط وضحك، فقيل له في ذلك، فقال: كان قرحاً فبرأ.
قال حذيفة: إن الله لم يخلق شيئاً قط إلا صغيراً ثم يكبر، إلا المصيبة فإنه خلقها كبيرةً ثم تصغر.
قال الطائي:

ومهما يدم فالوجد ليس بدائم

وقال آخر:

وكما تبلى وجوه في الثرى فكذا يبلى عليهن الحـزن

خرجت امرأة من العرب تريد المقابر حتى جلست على قبر ابنها، فقالت بصوتٍ لها ضعيف: هذا والله المنزل الحق، والوعد الصدق، والوعيد الشديد، والمسكن الذي ليس لأهل الدنيا عنه محيد، هذا والله المفرق بين الأحباب، والمقرب من الحساب، وبه يعرف الفريقان منازلهم، أهل السعادة وأهل الشقاء، لا أقول هجراً، ولكني أحتسب على الله مصابي بك يا بني، ففسح الله لك في ضريحك، وجمع بينك وبين نبيك، أما إني أقول علمي بك، كنت - والله عليم بباطنك - جواداً، إن أتيت أتيت رشاداً، وإن اعتمدت وجدت عماداً. ثم أنشأت تقول:

يا ليت شعري كيف غـيرك الـردى أم كيف صار جمال وجهك في الثرى
للـه درك أي كـهـلٍ غــيبـــوا تحت الجـنـادل لا يحـس ولا يرى
لباً وحـلـمـاً بـعـد حـزمٍ زانـه بأس وجود حين يطـرق لـلـقـرى
لما نقلت إلى المقـابـر والـبـلـى دنت الهموم فغاب عن عيني الكـرى

قال: ثم لم تزل تبكي وتشهق وتضرب على قرنيها حتى ماتت.
كان خالد بن برمك يقول: التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة، والتهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمودة.
دخل عبد الله بن عمر بن عتبة على المهدي يعزيه بالمنصور، فقال: آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين، وبارك له فيما خلفه فيه، فلا مصيبة أعظم من المصيبة بإمام، ولا عقبي أفضل من خلافة الله على أمة نبيه عليه السلام، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية، واحتسب عنده أفضل الرزية.
قال عبد الصمد بن المعذل، أو صالح بن عبد القدوس:

إن يكن ما به أصبت جليلا فذهاب العزاء فيه أجـل

وقال محمود الوراق:

تعز بحسن الصبر عن كل ففي الصبر مسلاة الهموم

هالـك اللوازم

إذا أنت لم تسل اصطباراً وحسـبة سلوت على الأيام مثل البـهـائم

وليس يذود النفس عن شهواتـهـا من الناس إلا كل ماضي العزائم

وقال أيضاً:

يمثل ذو العقل في نفـسـه مصائبه قبـل أن تـنـزلا

فإن نزلت لم تكـن بـغـتة لما كان في نفسه مـثـلا

رأى الهم يفضي إلى آخـرٍ فصــير آخـــره أولا

وذو الجهـل يأمـن أيامـه وينسى مصارع من قد خلا

فإن بدهته صروف الزمان ببعض مصـائبـه أعـولا

ولو قدم الحـزم فـي رأيه لعلمه الصبر عند الـبـلا

وقال أبو تمام الطائي:

أتصبر في البلوى عزاءً وحسبةً فتؤجر أم تسلو سلو البـهـائم

كتب رجل إلى صديق: أما بعد، فإن الصبر سجية المؤمن، وعزيمة المتوكل، وسبب درك النجح في الحوائج، وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب: أصيب الأحنف بمصيبةٍ فلم يجزع لها، فقيل له: إنك لصبور! فقال: الجزع شر الحالين، يباعد المطلوب، ويورث الحسرة، ويوقع على صاحبه العار.

وقيل لامرأة أصيبت بولدها: كيف أنت والجزع؟ فقالت: لو رأيت فيه دركاً ما اخترت عليه، ولو دام لي لدمت عليه.

جزع أعرابي على موت ابنه؟ فليم على ذلك، فقال: أعلى قدر الله أتجلد؟ والله للجزع من قدر الله أحب إلي، لأن الجزع استكانة، والصبر قساوة.

سئل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن الرجل المسلم تموت له أم نصرانية كيف يعزى فيها؟ فقال: تقول: الحمد الله على ما قضى، قد كنا نحب أن تموت على الإسلام ويسرك الله بذلك.

وسئل أيضاً عن الجار النصراني يموت وله ولي من النصارى، كيف نعزيه؟ قال: تقول: إن الله كتب الموت على خلقه، والموت حتم على الخلق كلهم.

عزى أعرابي عمر بن عبد العزيز في ابنه، فقال:

تعز أمير المؤمـنـين فـإنـه لما قد ترى يغذى الصغير ويولد

لما قطعت رجل عروة بن الزبير تمثل بأبيات معن بن أوس:

لعمرك ما أهديت كـفـى لـريبة ولا حملتني فوق فاحشةٍ رجلـي

ولا قادني سمعي ولا بصري لهـا ولا دلني رأيي عليها ولا عقلـي

وأعلم أني لم تصبنـي مـصـيبة من الدهر إلا قد أصابت فتىً قبلي

قدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك حين دويت رجله، فقيل له: اقطعها. فقال: إني لأكره أن أقطع مني طائفة، فارتفعت إلى الركبة، فقيل: إن وقعت في ركبتك قتلتك فقطعها، فلم يقبض وجهه ولا تأوه. ويقال: إنه لم يترك حزبه في تلك الليلة. وقيل له قبل أن يقطعها: نسقيك دواءً لا تجد لها ألما؟ قال: ما يسرني أن هذا الحائط وقاني أذاها. فلما كان بعد أيام قام ابنه محمد بن عروة ليلا

فسقط من أحد الأسطح في اصطبل دواب الوليد، فضربته بقوائمها حتى قتلته. فأتى رجل عروة يعزيه، فقال له عروة: إن كنت جئت تعزي برجلي فقد احتسبتها. فقال: بل أعزيك في محمد ابنك. قال: وماله؟ فخبره بشأنه، فقال:

وكنت إذا الأيام أحدثن نكبة ... أقول شوى، ما لم يصبن صميمي

اللهم أخذت عضواً وتركت أعضاء، وأخذت ابناً وتركت أبناء، ولئن كنت أخذت لقد أبقيت، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت.

ولما قدم المدينة نزل قصره بالعقيق، فأتاه محمد بن المنكدر، فقال له: كيف كنت؟ قال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. وجاءه عيسى بن طلحة، فقال لبعض بنيه: اكشف لعمك عن رجلي ينظر إليها، ففعل. فقال عيسى بن طلحة: أما والله يا أبا عبد الله ما أعددناك للصراع ولا للسباق، ولقد أبقى الله لنا ما كنا نحتاج إليه منك، رأيك وعلمك، فقال عروة: ما عزاني أحد عن رجلي مثلك.

قال سهل بن هارون: التهنئة على آجل الثواب أولى من التعرية على عاجل المصيبة.

قال عيينة بن حصن الفزاري، وقد قدم من سفر، وقد أصابه مصيبة، فأتاه قومه فقال لهم: اجعلوا لقاءكم سلاماً، ولا يأتي أحدكم معزياً، فإن التعزية تهيج التذكرة، ومن أراد أن يدعو بخير في الرزية فليظهر العتب.

أصيب محمود الوراق بجارية يقال لها نشوى، كان علمها وخرجها وأعطى فيها مالا كثيراً فأبى، فأتى بعض إخوانه يعزيه عنها، وهو عنده أنه شامت، فجعل يعذله على ما كان يحمل إليه من ثمنها ويذكر حاله، ويطنب في وصفها، فأنشأ محمود يقول:

ومنتصح يكرر ذكر نشوى ... على عمدٍ ليبعث لي اكتئابا

فقلت وعد ما كانت تساوي ... سيحسب ذاك من خلق الحسابا

عطيته إذا أعطى سرور ... وإن أخذ الذي أعطى أثابا

فأي النعمتين أعم فضلا ... وأحمد في عواقبها إيابا

أنعمته التي أهدت سروراً ... أم الأخرى التي أهدت ثوابا

بل الأخرى وإن نزلت بكرهٍ ... أحق بشكر من صبر احتسابا

وقال محمود أيضاً في نشوى:

لعمري لئن غال صرف ... نشوى لقد غال نفساً حبيبه

الزمان

ولكن علمي بما في الثواب عند المصيبة ينسى المصيبة

روى يحيى القطان، عن خالد بن أبي عثمان، قال: أتاني سعيد بن جبير يعزيني عن أبي، فرآني مستكيناً، فقال لي: أما علمت أن الاستكانة من الجزع.

كان علي رحمه الله إذا عزى قوماً قال: عليكم بالصبر؛ فبه يأخذ الحازم، وإليه منصرف الجازع.

ولما دفن علي فاطمة رضى الله عنهما تمثل على قبرها بهذين البيتين:

لكل اجتماع من خليلين فرقة وكل الذي دون الممات قليل

وإن افتقادي واحداً بعد واحدٍ دليل على ألا يدوم خليل

يقال: إنها له، وقال ابن الأعرابي: هي أبيات لسقران السلاماني.

كان يقال: جزعك على مصيبة أخيك أحمد من صبرك، وصبرك على مصيبتك أحمد من جزعك.

ومن أبيات لضابئ بن الحارث البرجمي:

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب

عزى رجل رجلاً فقال: لا أراك الله بعد مصيبتك ما ينسيكها.

قال بعض تميم:

لقد عزى ربيعة أن يوماً عليها مثل يومك لا يعود

ومن عجبٍ قصدن له المنايا على عمدٍ، وهن له جنود

أخذه يعقوب بن الربيع في رثائه جاريته، فقال:

لئن كان قربك لي نافعاً لبعدك أصبح لي أنفعا

لأني أمنت رزايا الدهور وإن جل خطب فلن أجزعا

وقال محمود الوراق:

لا تطل الحزن على فائتٍ فقلما يجدي عليك الحزن

سيان محزون لما قد مضى ومظهر حزنٍ لما لم يكن

وقال أخو ذي الرمة:

تعزيت عن أوفى بغيلان بعده عزاءً وجفن العين ملآن مترع

ولم تنسني أوفى المصائب بعده ولكن نكء القرح بالقرح أوجع

وقال آخر:

أترجو البقاء وهذا محال ولله عز وجل البقاء

فلو كان للفضل يبقى كريم لما مات من خلقه الأنبياء

تموت النفوس وتبقى الشخوص وعند الحساب يكون الجزاء

دخل أبو العتاهية على الفضل بن الربيع يعزيه بابنه العباس، فقال: الحمد الله الذي جعلنا نعزيك عنه، ولم يجعلنا نعزيه عنك. فدعا الفضل بالطعام فأكل، وقد كان قبل ذلك امتنع من الأكل.

ومن أحسن ما قيل في رثاء البنين قول العتبي:

ألا يزجر الدهر عنا المنونا يبقى البنات ويفنى البنينا

وأخنى على بلا رحمةٍ فلم يبق لي فوق جفنٍ

جفونا

وكنت أبا صبية كالـبـدور أفقي بهم أعين الكاشحينـا
فمروا على حادثات الزمان كمر الدراهم بالنـاقـدينـا
وما زال ذلك دأب الزمـان حتى أماتهم أجـمـعـينـا
وحتى بكى لي حسـادهـم وقد أقرحوا بالدموع العيونا
وحسبك من حادثٍ بامـرئٍ ترى حاسديه له راحمـينـا
رأيت بني على ظهرهـا فصاروا إلى بطنها ينقلونا
فمن كان يسليه مر الزمان فحرني تجدده لي السنونا
ومما يسكن وجدي بـهـم بأن المنون ستلقى المنونا

وقال آخر:

فإن تصبرا فالصبر خير مغبةٍ وإن تجرعا فالأمر ما تريان

قال يونس بن حبيب: أشعر بيت قالته العرب، قول دريد بن الصمة:

قليل التشكي للمصيبـات ذاكـر من اليوم أعقاب الأحاديث من غد

وقال آخر:

وما كثرة الشكوى بأمرٍ حـزامة ولا بد من شكوى إذا لم يكن حرم

وقال منصور الفقيه:

ماذا جنته الليالـي فيما جلبن إلـينـا
وفي كل يوم نعزى فيمن يعز علينـا

وقال آخر:

غز امرؤ منتـه نـف س أن تدوم له السلامه
هيهات أعـيا الأولـي ن دواء دائك يا دعامه

عرى رجل رجلاً ماتت امرأته من نفاسها، فقال: أعظم الله أجرك فيما أباد، وبارك لك فيما أفاد.

قال جرير:

وأهون مفقودٍ إذا الموت غالـه على المرء من أحبابه من تقنعا

وقال آخر:

ولم أر نعمةً شملت كريماً كنعمة عورةٍ سترت بقبر

وقد مضى من هذا المعنى ذكر في باب الولد.

ومن شعر جرير في رثاء امرأته:

لن يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهـم ونـهـار
صلى الملائكة الذين تخيروا والطيبون عليك والأبـرار

قال عمر بن الخطاب: أفضل الصبر التصبر.
قال يونس بن عبيد: لو أمرنا بالجزع لصبرنا.
قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر: اصبر إذا عضك الزمان، ومن أصبر عند الزمان.
وقال محمود الوراق:

أئن فات ما كنت أملـتـه   جزعت وماذا يرد الجزع
ففوض إلى الله كل الأمور   فليس يكون سوى ما صنع
ولا يخدعنك صرف الرمان   فإن الرمان كثير الخـدع

وقال آخر:

إذا ضيقت أمراً زاد ضيقاً   وإن هونت ما قد عز هانا
فلا تهلك لشيءٍ فات حرناً   فكم أمرٍ تصعب ثم لانـا

وقال آخر:

فإذا أتتك مصيبة فاصبر لـهـا   عظمت مصيبة مبتلىّ لا يصبر

وأنشد ابن عائشة:

يعزى المعزى ساعةً ثم ينقـضـى   ونفس المعزى في أحر من الجمر
لأن المعزى إلفه فـي مـكـانـه   وإلف المعزى في ضريحٍ من القبر

وأنشد ابن عائشة أيضاً:

خليلي إني للـثـريا لـحـاسـد   وإني على صرف الزمان لواجد
أيجمع منها شملها وهي سبـعة   وأفقد من أحببته وهـو واحـد

وقال ربيعة الرقي:

أليس الزمان كما قد علمـت   فمالك تجزع من صـرفـه
وعندك عـلـم بـه ثـاقـب   وعين تدل عـلـى وصـفـه
وأيامـه دول والـنـفــوس   رهون الحوادث من حتـفـه
فأين المعافى من النـائبـات   ومن صاحب الدهر لم يعفـه
ومن صاحب الدهر لاقى الذي   يخاف على الرغم من أنفـه
فكن حازم الرأي واصبر لـه   فللحر صبر على ضعـفـه

وقال أبو العتاهية:

ليس لمن ليست له حيلة   موجودة خير من الصبر

وقال آخر:

رمن لم يسلم للنوائب أصبحت   خلائقه طراً عليه نـوائبـا

وقال آخر:

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقى نوائب هذا الدهر أم كيف يحذر
يرى الشيء مما يتقى فيخـافـه وما لا يرى مما يقي الله أكثـر

وقال أبو العتاهية:

حيلة من ليست لـه حـيلة حسن عزاء النفس بالصبر

لضابئ بن الحارث البرجمي:

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى رشاداً ولا عن ريثـهـن يخـيب
ورب أمور لا تضـيرك ضـيرةً وللقلب من مخشاتـهـن وجـيب
ولا خير فيمن لا يوطن نـفـسـه على نائبات الدهر حين تـنـوب
وفي الشك تفريط وفي الحزم قوة ويخطىء في الظن الفتى ويصيب

وقال آخر:

كم نعـمةٍ مـطـويةٍ لك بين أثواب النوائب
ومسـرةٍ قـد أقـبـلـت من حيث تنتظر المصائب

وقال آخر:

كم نعمةٍ لا يستقل بشكرها لله في طى المكاره كامنه

باب من كلام المحتضرين

روى وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبد الله البهمي مولى الزبير، عن عائشة رحمها الله، قالت: لما احتضر أبو بكر قالت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفـتـى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال: يا بنية! لا تقولي هكذا، ولكن قولي: "وجاءت سكرة الحق بالموت، ذلك ما كنت منه تحيد". وكذلك كان يقرأها فيما زعموا. ثم قال: انظروا إلى ثوبي هذين، فاغسلوهما وكفنوني فيهما، فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت. وقد روى من وجوه في هذا الخبر أن أبا بكر -رحمه الله - قال لها: قولي: "وجاءت سكرة الموت بالحق" على ما في مصحف عثمان.

قيل لبعض الصالحين - وهو يجود بنفسه -: كيف تجدك؟ وكيف حالك؟ فقال: كيف حال من يريد سفراً بعيداً بلا زاد، ويدخل قبراً موحشاً بلا مؤنس، وينطلق إلى رب ملك بلا حجة.

لما احتضر عمر بن الخطاب بكي، فكلمه ابن عباس أو غيره بكلام فيه ثناء عليه، فقال: المغرور من غررتموه، ليت أمي لم تلدني. ثم أوصى بوصايا حسان.

لما احتضر معاوية، قيل له: قل: لا إله إلا الله، فضعف عنها حتى كررت عليه ثلاثاً، كل ذلك لا يقدر يقولها، ثم قال في آخر ذلك: أولست من أهلها؟!.

وفي خبر آخر: أن معاوية لما احتضر، قال لابنه: يا بني! كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإني أخذت من شعره بمشقص، وهو عندي في موضع كذا، فإذا أنا مت فخذوا ذلك الشعر واحشوا فمي ومنخري، ثم قال:

إن تناقش يكن نقاشك يا رب عذاباً لا حاق لي بالعـذاب
أو تجاوز وأنت رب رحـيم عن مسيءٍ ذنوبه كالتراب

ثم أغمى عليه، ثم أفاق فقال:

فهل من خالدٍ إما هلكـنـا وهل بالموت يا للناس عار

ثم قال لأهله الذين حضروا: اتقوا الله؛ فإن الله يقى من اتقاه. ثم قضى.

وفي خبر آخر: أن معاوية لما حضرته الوفاة احتوشه أهله، فجعلوا يقبلوا به. فقال: إنكم لتقبلون حولاً قلبا إن نجا من النار. ثم قال: لا يدفع ريب المنية الحيل.

وفي خبر آخر: أنه لما احتضر معاوية، رفع يديه؛ وهو يجود بنفسه، وقال متمثلا:

هو الموت لا منجى من الموت والذي أحاذر بعد الموت أدهى وأفـظـع

ثم قال: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وجد بحلمك على من لا يرجو غيرك، ولا يثق إلا بك، فإنك واسع الرحمة، نعفو بقدرة، وما وراءك مذهب لذي خطيئة موبقة، يا أرحم الراحمين.

وفي خبر آخر عن سعيد بن المسيب، قال: لما احتضر معاوية قال: أقعدوني. فأقعد. فجعل يذكر الله، وقال: يا رب! ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، وعزتك إن لم تغفر لي فقد هلكت، ثم غشى عليه فبكى أهله، ثم أفاق، فأنشأ يقول متمثلاً:

لعمري لقد عمرت في الملك برهةً ودنت لي الدنيا بوقع الـبـواتـر
وأضحى الذي قد كان منى يسرني كلمحٍ مضى في السالفات الغوابر
فاليتني لم أغن في الملـك سـاعةً ولم أغن في لذات عيشٍ نواضـر
وكنت كذي طمرين عاش ببـلـغةٍ من الدهر حتى زار ضيق المقابر

ثم مات رحمه الله: لما احتضر عمرو بن العاص قال: اللهم أمرتني فلم ائتمر، وزجرتني فلم أزدجر، ووضع يده في موضع الغل، فقال: اللهم لا قوى فأنتصر، ولا برئ فأعتذر، ولا مستكبر بل مستغفر، لا إله إلا أنت. فلم يزل يرددها حتى مات. رحمه الله.

وفي خبر آخر، قيل لعمرو بن العاص في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك؟ قال: أجدني أذوب ولا أثوب. فلما قربت نفسه من أن تفيض قال له ابنه: قد كنت تحب أن ترى عاقلاً فطناً قد احتضر؛ فتسأله عما يجد المحتضر وقد احتضرت، وأنا أحب أن تصف لي الموت. فقال: أجد كأن المساء منطبقة على الأرض، وكأني أتنفس من خرم إبرة.

لما نزل بهشام بن عبد الملك الموت، نظر إلى ولده يبكون حوله، فقال لهم: جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكاء، وترك لكم ما جمع، وتركتم عليه ما اكتسب، ما أعظم منقلبه إن لم يغفر الله له.

وقال معمر المتكلم صاحب المعاني: حضرت الوفاة رجلاً كان معي في الحبس، وكان داؤه البطن، فقلت له: كيف تجدك؟ قال: أجد تحرري أكثر

من تبردي، وأجد روحي قد خرج من نصفي الأسفل، وكأن السماء قد دنت مني فلو شئت أن ألمسها بيدي لفعلت، ومهما شككت في شيءٍ فلا تشك أن الموت برد ويبس، وأن الحياة رطوبة وحرارة.

ليعقوب بن الربيع يرثي جاريته:

حتى إذا فتر اللسان وأصبحت	للموت قد ذبلت ذبول النرجس
وتسهلت منها محاسن وجهها	وغدا الأنين تحثه بتـنـفـسٍ
رجع اليقين مطامعي يأساً كما	رجع اليقين مطامع المتلمسٍ

لما احتضر سعيد بن المسيب، وجه إلى القبلة، فقال: ما هذا؟ فقالوا: وجهناك إلى القبلة. فقال: أولست على القبلة؛ أليس وجهي إلى الله حيث كان.

قال عطاء بن يسار: تبدي إبليس لرجل عند موته، فقال: نجوت قال ما أمنتك بعد.

لما احتضر عمرو بن عبيد، قال: جاءني الموت ولم أتأهب له، اللهم إنك تعلم أنه لم يسنح لي أمران لك في أحدهما رضى، ولي في الآخرة هوىً، إلا اخترت رضاك على هواي، اللهم فاغفر لي.

قيل لبعضهم، وقد احتضر: أي شيءٍ تشتكي؟ قال: تمام العدة، وانقضاء المدة.

قيل لأعرابي في مرضه: ما الذي تجدٍ؟ قال: أجد مالا أشتهي، وأشتهي مالا أجد.

قال: لما احتضر الحجاج قال: والله لئن كنت على سبيل هدىً فليس حين جزع، وإن كنت على سبيل ضلالة فليس حين فزع.

قال عبد الأعلى بن حماد البرقي: دخلت على بشر بن منصور، وهو في الموت: فرأيته مستبشراً، فقلت له: ما هذا السرور؟ قال: أخرج من بين الحاسدين والباغين والمغتابين، وأقدم على رب العالمين، ولا أفرح.

لما مرض أمية بن أبي الصلت - اسم أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف من ثقيف - مرضه الذي مات فيه، جعل يقول: قد دنا أجلي، وهذه المرضة منيتي، وأنا أعلم أن الحنيفية حق، ولكن الشك يداخلني في محمد، فلما دنت وفاته أغمى عليه قليلاً، ثم أفاق وهو يقول: لبيكما لبيكما، هأنذا لديكما. لا مال فيقذيني ولا عشيرة فتنجيني. ثم أغمى عليه أيضاً بعد ساعة حتى ظن من حضر من أهله أنه قد مضى، ثم أفاق وهو يقول: لبيكما لبيكما، هأنذا لديكما، لا برئ فأعتذر، ولا قوى فأنتصر. ثم إنه بقى يحدث من حضره ساعة، ثم أغمى عليه مثل المرتين الأوليين، حتى يئسوا من حياته، وأفاق وهو يقول: لبيكما لبيكما، هأنذا لديكما محفوف بالنعم، محفوظ من الريب:

إن تغفر الله تغفر جما	وأي عبدٍ لك لا ألمـا

ثم أقبل على القوم، فقال: قد جاء وقتي، فكونوا في أهبتي، وحدثهم قليلا، ثم يئس القوم من موته، وأنشأ يقول:

كل عيشٍ وإن تـطـاول دهـراً	قصـره مـرةً إلــى أن يزولا
ليتني كنت قبل مـا إن بـدا لـي	في رؤوس الجبال أرعى الوعولا
اجعل الموت نصب عينيك واحذر	غولة الدهر إن للـدهـر غـولا

ثم قضى نحبه، ولم يؤمن بالنبي عليه السلام.

لما احتضر سيبويه، جعل رأسه في حجر أخيه، فقطرت قطرة من دموع أخيه على وجهه، فأفاق من غشيته، وقال:

أخيين كنا فـرق الـدهـر بـينـنـا إلى المنزل الأقصى ومن يأمن الدهرا

قال محمد بن إبراهيم الكاتب، دخلنا على أبي نواس نعوده في مرضه الذي مات فيه، ومعنا صالح بن علي الهاشمي، فقال له صالح: تب إلى الله يا أبا علي؛ فإنك في أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا، وبينك وبين الله هنات. فقال: أسندوني. فأسندوه، فقال: إياي تخوف الله؟ قد حدثني حماد بن سلمة، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"، أترانى لا أكون منهم؟ وقد حدثني حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله، فإن حسن الظن بالله ثمن الجنة". ورآه بعض إخوانه بعد موته بأيام في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بأبيات قلتها، وهي الآن تحت وسادتي. فنظروا وإذا برقعة تحت وسادته في بيته فيها مكتوب:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسن فمن الذي يدعو إليه المجـرم

أدعوك رب كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم

مالي إليك وسيلة إلا الـرجـا وجميل ظني ثم أني مسـلـم

حدث محمد بن يعقوب البزاز: كنت جارا لأبي نواس، فعدته في مرضه الذي مات فيه، ودخل عليه طبيب نصراني اسمه سعيد، فنظر إليه ووصف له دواء يعلله به، ثم خرج وخرجت بخروجه، فغمزني وقال: مرهم لا يعذبوه بالدواء؛ فإنه الساعة يموت، فرجعت إليه فقال: سألتك بالله ما قال لك النصراني، فإني رأيته قد غمزك؟ فقلت: ما عسى أن يقول؟! فقال: أقسمت عليك لما أخبرتني. فأخبرته، فرفع عينيه إلى السماء، وسالت دموعه على خديه، وقال:

يا رب إني لـم أزل في مثل حال السحره

حين استلاذوا بعـرى الدين وكانوا كفـره

فآمنوا يومـاً فـفـا زوا بثواب البـرره

ولم أزل مستشعر ال إيمان ياذا المقـدره

فاغفر فإني منـك أو لي منهم بالمغفـره

ويروى أن آخر بيت قاله محمود الوراق في مرضه الذي مات فيه:

إن ظني بحسن عـفـوك يا رب جميل وأنـت مـالـك أمـري

صنت سري عن القرابة والأهل جميعاً وأنت مـوضـع سـري

ثقة بالذي لـديك مـن الـسـر فلا تخزنـي بـه يوم نـشـري

يوم هتك الستور عن حجب الغيب فلا تهتكن للـنـاس سـتـري

لمحمد بن مناذر من شعره المطول:

نحن للآفات أغراض فإن

إنما أنفـسـنـا عـارية

أنتهى الكتاب

مكتبة مشكاة الإسلامية